THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190923

UNIVERSAL
LIBRARY

مطبوعات المطبعة العصرية بمصر

ص	
١٠٠	القاموس العصري عربي وانكليزي تأليف الياس انطون الياس
٧٠	« « انكليزي وعربي « « « «
٢٥	قاموس الجيب عربي وانكليزي « « «
٢٠	« « انكليزي وعربي « « « «
٣٥	« « « وبالعكس « « « «
٥٠	القاموس المدرسي « « « « « «
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية « « «
١٢	الهدية السنية « « «والعربية « « «
١٠٠	قاموس عربي وانكليزي (باللفظ) تأليف سقراط سبيرو
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة مصورة) ترجمة توفيق عبد الله
١٠	رواية تاييس مصورة (لاناتول فرانس) ترجمة احمد الصاوي محمد
١٦	« الزنبقة الحمراء « (« «) « « « «
٢٠	« « « (ورق ممتاز) « « « «

* تطلب هذه الكتب من كل المكاتب في مصر والسودان وفلسطين وسوريا والعراق ، او منا رأساً بالعنوان الآتي : —

الياس انطون الياس — صاحب المطبعة العصرية — بالفجالة (صندوق البريد رقم ٩٥٤ بمصر)

٥	خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل
١٠	رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الاحد
١٠	الغربال ، بقلم مخائيل نعيمة عضو الرابطة القلمية بأمريكا
٢٥	علم الاجتماع (الجزء الأول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف
٢٥	« « (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية) نقولا حداد
٣٠	ملقى السبيل (في مذهب النشوء والارتقاء) إسماعيل مظهر
١٠	حصاد الهشيم (مصور) للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني
١٠	مختارات سلامه موسى (تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)
١٠	نظرية التطور وأصل الانسان للاستاذ سلامه موسى
١٥	في أوقات الفراغ ، تأليف الدكتور محمد بك حسين هيكل
١٠	عشرة أيام في السودان « « « « « «
١٢	مراجعات ، في الأدب والفنون - للاستاذ عباس محمود العقاد
١٥	الدنيا في اميركا (به نحو ٤٠ صورة بديعة) للاستاذ امير بقطر
٢٠	أناتول فرانس في مباذله - لصاحب العطوفة الأمير
٢٥	« « « (ورق مخصوص) شكيب ارسلان
٣	كتاب الحقوق الوطنية كتاب مدرسي لفرنسيس مخائيل
٢٠	روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر
١٠	فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)
٨	رواية الانتقام العذب ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر

٢٠	رواية باردليان (٣ اجزاء متوسطة الحجم) ترجمة طانيوس عبده
٢٠	رواية الاميرة فوستا (جزآن كبيران) » » »
١٦	» كابيتان » » » » »
١٦	» الساحر العظيم » » » » »
١٠	» فارس الملك » » »
١٦	» فلمبرج » » » » »
١٠	التربية الاجتماعية تأليف علي فكري
١٠	مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل بيدس
١٠	الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون) ترجمة صادق رستم
٨	مقدمة الحضارات الاولى » » » »
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات (مصور) ، تألف الدكتور فخري
٣٠	الأمراض التناسلة وعلاجها وطرق الوقاية منها » »
١٥	اسرار الحياة الزوجية ترجمة نقولا حداد
٥	مركز المرأة ، تعريب الاستاذ سليم العقاد
٨	التعليم والصحة ، تأليف الدكتور محمد بك عبد الحميد

(وغير ذلك تحت الطبع)

حق طبع هذا الكتاب
محفوظ للناشر

المخاطبات البريدية بعنوان
صندوق البريد ٩٥٤ بمصر

Published by
E. A. Elias
P. O. Box 954
Cairo, (Egypt)

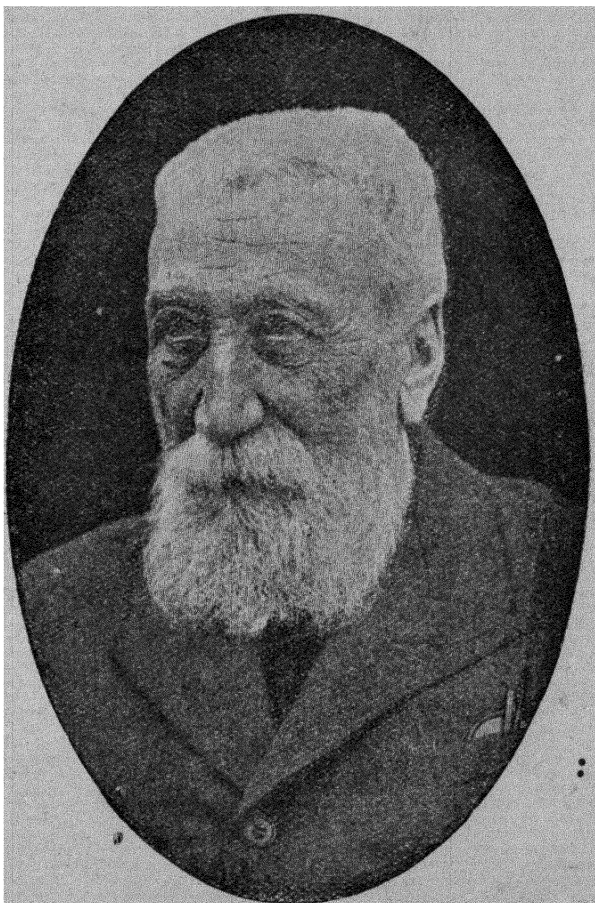

أناتول فرانس

١٨٤٤ — ١٩٢٤

كتاب الحب والحياة

الزنبقة الحمراء

للكاتب العظيم

أناتول فرانس

تعريب حضرة الأستاذ

احمد الصاوي محمد

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بمصر

ANATOLE FRANCE

LE LYS ROUGE

Checke

Traduction Arabe de

AHMED ES-SAWI MOHAMED

Traducteur de Thaïs

LE CAIRE
ELIAS A. ELIAS, EDITEUR,
6, RUE KHALIG EL-NASIRI, 6
FAGGALAH
1926.

« وما هـذه القصة التي أريد أن أحدثك عنهـا ؟ لا أكاد لأنني »
« لا أستطيع الانصراف عن الكاتب ؟ انك لتقرؤها فتجد فيها لذة الهية »
« لا تظفر بمثلها الا حين تقرأ آثار صاحبـه أفلاطون ، انك لتقرؤها »
« فتجد فيها ابتساماً حلواً وعبوساً مراً ، انك لتقرؤها فتجد فيها جداً وهزلاً ، »
« انك لتقرؤها فتجد فيها شكاً ويقيناً ، وانك لتقرؤها فتجد فيها الحاداً »
« وديناً ، وانك لتجد أثناء قراءتهـا من اللذة القوية الدقيقة ما يسحرك »
« عن نفسك ويملك عليـك هواك وينسيك أن للكاتب فكرة بعينهـا »
« وغرضاً واضحاً يسعى اليه ، وانك لتفرغ من قراءتها فتسأل نفسك : »
« أكنتُ في حلم أم يقظة ؟ ! »

طه حسين

كلمة الناشر

بقلب مغتبط ونفس مطمئنة ، نتقدم الى جمهور قرائنا الكريم ، بهذا الكتاب الذي هو غرة من غرر أناتول فرانس وأوفر مؤلفاته حظاً عند قارئيه والمعجبين به .

وقد رأينا النجاح الباهر الذي لاقته رواية « تاييس » وهى أول كتاب صدر لأناتول فرانس فى اللغة العربية ، وما اجتمع لها من الثناء من الصحف والمجلات العربية والافرنجية على السواء ، فتمنينا على صديقنا الأديب الاستاذ احمد الصاوى محمد أن يُطرف قراء سلسلة المطبوعات العصرية بدرَّة أخرى من درر كاتب فرنسا العظيم الذى نعد أنفسنا سعداء بنشر أحسن تآليفه ، فقدم الينا هذه القصة . وليس يفوتنا الاعتذار عن تأخير صدورها لظروف قاهرة .

نسأل الله السداد والتوفيق ؟

الياس انطون الياس

مصر في أول يونيو سنة ١٩٢٦

Ut vitam habeant
et abundent.

لكيما يكون لهم حياة موفورة !

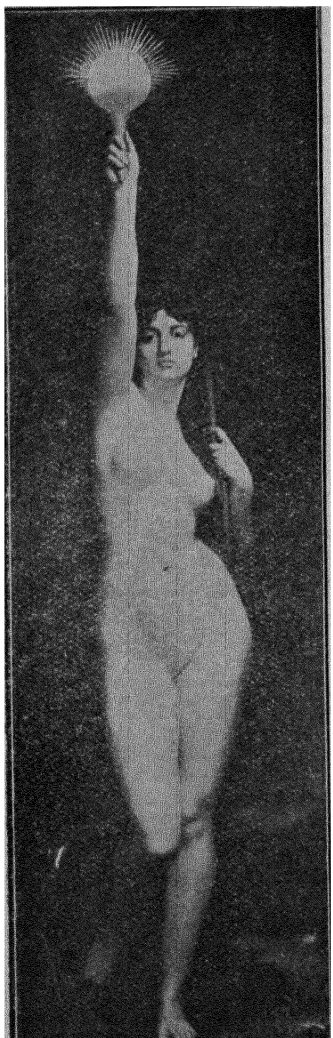

هذه هي القصة الثانية من مجموعة الشعلة الخالدة ، التي وعدنا الشباب، وفاءً لعهدنا لهم ان العهد كان مسئولاً.

ولقد عانيت طويلاً في استخلاصها للأدب من بين المتاعب والمشاغل المرهقة ، فاذا لقيتْ على ضعفها من القراء حسن القبول كنت موفَّقًا مجدوداً .

ولست في حاجة على ما أظن الى الدلالة على شدة سروري بضم هذه «الزنبقة الحمراء» الى الطاقة المنضَّرة من الأزاهير الجَنِيَّة التي ينقها وينضّدها حضرة الصديق الكريم الاستاذ الياس انطون الياس بفضل عنايته المعروفة وذوقه السليم . فجزاه الله عني وعن الأدب وأهله خير الجزاء

احمد الصاوي محمد

أناتول فرانس

كلمة المترجم يوم وفاته [1]

كأني بعبقرية أناتول فرانس قد
ولدت شاكية السلاح مثل « أتينا »
الهة الحكمة عند الاغريق !
ماسون

كنت خارجًا بعد الظهر من مكتبي ذاهبًا الى « المطبعة العصرية » حاملاً أصول « الزنبقة الحمراء » « Le Lys Rouge » الذى نقلته الى العربية بعد « تايبس » .

فاذا بي أروّع وأفاجأ فى منتصف الطريق بالنبأ الفاجع الأليم ، نبأ وفاة أناتول العزيز العظيم !

مات أناتول فرانس ! ذلك الذى عشت وعاش الألوف معى وقبلى وسيعيشون بعدى على استنشاق روحه كما يعيش النحل على طعام الزهور ! مات ! فكيف مات ؟ ! ولماذا يموت ؟ ؟ !

سنّة الله . . .

---

(١) نشرتها جريدة « الاهرام » بعددها الصادر في ١٤ اكتوبر ١٩٢٤

• مات ولا يزال القتلة المجرمون الذين يملأون السجون فى شرق الدنيا وغربها يعيشون ! مات أناتول ولا يزال على قيد الحياة المجاذيب الذين يملأون فى طول الأرض وعرضها مستشفيات المجانين ! مات أناتول فرانس وامحى من الدنيا التى فيهـا الدهماء والسفهاء والسخفاء أحياء يرزقون ! ! !

نعم ! ماتت « الفكرة » . و « الحكمة » و « الابتسامة » ماتت الفكرة التى أودعها الغيب رأسه ! زالت البسمة التى كانت دائمًا مطبوعة على ثغره ! البسمة التى كانت خير ما يجمّل فنه وأدبه . فقد كان أبداً بسّامًا ساخراً . وكان يهزأ من الشىء ويعزه ! وكان يسخر من الانسان ويحبه ! فأما أنه يسخر منه فلضعفه وقوته ، ولجهله وعلمه ، وأما أنه كان يحبه فلاجتماع هذه الأشياء فيه كلها ! كان أناتول ابن الحياة ، بل أبر أبناء الحياة ، بل كان الحياة نفسها !

وقد استكشف له « چورچ براندس » الناقد الدانيمركي المشهور الجملة الآتية ، وقال أن رجلاً واحداً هو الذى يستطيع أن يكتب هذه الجملة ، وهو أناتول فرانس : «لن نحب الطبيعة لأنها غير جديرة بالحب ، لـكننا كذلك لن نبغضها لأنها لا تستحق البغض . فهى كل شىء . وما أصعب أن تكون كل شىء ! »

وثمة شيئان يبغضهما أناتول فرانس ، شيئان يمحوان بسمته الخالدة ويحيلانها غضبة ثائرة ، هما الظلم والفقر . فهو نصير الطبقات

الفقيرة الشقية كما هو عدو الحكام القساة الطغاة . فهو من هذه الوجهة ابن الانسانية ، بل أبر أبناء الانسانية ، بل الانسانية نفسها !

وكذلك كان يكره الألم أمرّ الكره . ويقول انه يرضى من الله بكل شيء إلا الألم ! (١)

وقد عُرف عن أناتول فرانس منذ ترك وظيفته التى كانت تقيده ليتمكن من الدفاع عن دريفوس صاحب القضية المشهورة ، أنه من أكبر أنصار حرية الرأي وأهل الفكر الحر .

* * *

ولد فى باريس فى ١٦ ابريل عام ١٨٤٤ ، عام الاحسان . فهو يموت الآن فى الحادية والثمانين من عمره ، فى عام ١٩٢٤ ، عام الاساءة !

وكان أبوه بائع كتب . فتكوّن ذهنه فى جو من عقول القدماء ، والمحدثين من الكتاب والحكماء .

---

(١) باريس فى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٤ — كان اناتول فرانس قد فقد رشده كله تقريباً منذ يوم الجمعة فلم يكن يسترد صوابه مؤقتاً الا ليدعو أمه قائلاً . « أماه ! . . أماه ! . . انى أموت . . . »

وقد دخل فى دور النزع الاخير فى الساعة السادسة صباحاً وكان نزاعه مؤلماً جداً . . واسلم الروح فى الساعة ١١ والدقيقة ٢٦ تماماً .

« هافاس »

• ولفت اليه الأنظار بقصته الجميلة (جريمة سيلفستر بونار) فتوّجها المجمع العلمى الفرنسى وذاع صيتها ، وكانت بداءة شهرته التى لن تطفىء الأيام من نورها الاّ بقدر ما يطفىء النسيم من نور الشمس ! . . ومنح وسام اللجيون دونور فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . وانتخب عضواً فى الاكاديمى الفرنسية ، ، كرسى فردينان دى لسبس فى عام ١٨٩٦ . ونال جائزة « نوبل » فى الآداب لعام ١٩٢٠ ، وتقدر بنحو خمسة عشر الف جنيه . فتبرع بها كلها لأهل روسيا أيام المجاعة . . . فتأمل ! .

أما منتقدوه فكثيرون . لكن — كما يقول أرمان ماسون — « حتى هؤلاء الذين يرفضون استحسان درس التسامح الذى يلقيه الاستاذ علينا ، ومجهوده فى سبيل تحرير الانسان من ربقة الأفكار المزيفة الباطلة والعواطف الخطرة الخاطئة ، حتى هؤلاء نجدهم مضطرين الى الاذعان بأنهم يجدون فى كتابات أناتول فرانس — على أقل تقدير — أجمل مدرسة للفكر فى زمننا هذا »

* * *

والآن . . .

فى ذمة الله يا أستاذى العظيم .

ياصاحب الكلمات المختارات من صندوق حلى الملائكة المملوء بجوهر الجمال ولؤلؤ النور وزمرد الحكمة ! . . أنت ! . . يامن تحكى بأسلوبك الهادىء الوديع سير الطاووس المتخطر فى المساء ، فى ضوء القمر ، فى فصل الربيع ، على شاطىء البحيرة ، على نغم الموسيقى ، فى دار الفردوس المفقود ! . . .

احمد الصاوى محمد

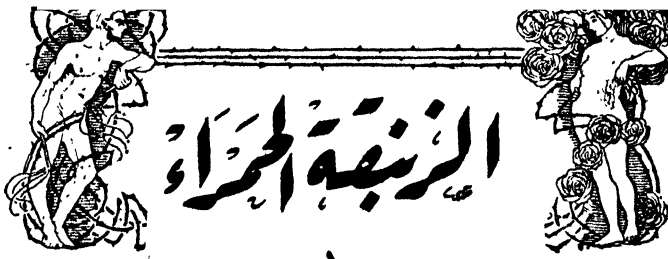

١

ألقت نظرةً على المقاعد المتراصّة امام المصطلى ، ومنضدة الشاى التى تضىء فى الظلام ، والطاقات الكبيرة من الزهر الشاحب المنبثق من أصص صينية . فأدخلت يدها بين الأغصان المزهرة عابثة بأكمامها الفضية ، ثم بدا لها فالتفتت الى المرآة باهتمام ، على ما بينها وبينها من البعد ، وقد لصق خدها بكتفها ، فتتبعت تموّج قوامها الرشيق فى الثوب الحريرى الاسود المغطّى بنسيج شفاف مطرز بلآلىء تضىء وتتلاعب بنور اللهيب ....

فاقتربت من المرآة مدفوعة بالرغبة فى تعَرُّف ما كان عليه محيّاها فى ذلك النهار ، فالفت نفسها بحيث استردت نظرتها الهادئة كأنما كانت تلك المرأة الفاتنة التى تأملتها فى المرآة تعيش بنجوة من الافراح البالغة والاحزان المبرّحة .

وكانت جُدُر البَوِيّ (الصالون) الكبير مزدانة بالسجاجيد

القاتمة ذات النقوش العتيقة المكفهرّة على الحيطان اكفهراراً لا حَد لروْعته ، وكذلك التماثيل الخزفيـة الصغيرة الموضوعة فوق عُمُد قصـيرة ، ومجموعات الصيني السكسونى القـديم ، ومصوَّرات « سيڤر » المرصوصة على رفوف الخُزُن البلَّوْرية ، كانت هذه كلها كأنها تتحدث عن التاريخ الغابر .

وكان على قاعدة محلاّة بالبرنز الثمين تمثـال نصفى من المرمر لأميرة متنكرة فى زى « ديانا » (١) ذات محيا ذابل وصدر بارز قد انشق عنـه دثارها ، على حين كان سقف الصالون مزداناً بصورة « الليـل » فى شكل « مركيزة » محوط بصور عدّة لإلٰه الحب ، تنثر حواليه الزهور .

وكان كل شىء فى همود وهجود ، ولم يكن يُسمع غير زفير النيران وهى تتلظَّى فى جوف المصطلى .

ولما تحولت عن المرآة ، ذهبت الى النافذة ، فرفعت طرف الستار ، ونظرت الى مياه نهر السين الصفراء ، من خلال أشجار الميناء التى تبدو فى الشفق سوداء ، فانعكس فى عينيها الزرقاوين صفاء الماء وصفاء السماء .

ومرَّ فى اثناء ذلك زورق مقلع من إحدى قناطر جسر « لالما » حامل فقراء المسافرين الى « جرنل » و « بيانكور » . فأتبعته

---

(١) Diane الٰهة الصيد والقنص عند القدماء

نظوها وهو يتحول مع التيار الكدر ، ثم أرخت الستار وأخذت مجلسها المعهود من ركن (الكنبة) ، تحت أصص الزهر ، تنتظر زائريها ، فتناولت كتابًا قريبًا منها على المنضدة ، وكان على غلافه المتّخذ من نسيج فى لون القش اسمه مموّهًا بالذهب :

عيسول السّقراء

بقلم

ڤيڤيان بل

Yseult la Blonde, par Vivian Bell

وهو مجموعة أشعار فرنسية من نظم سيدة انكليزية ، طبعت فى لندرة . ففتحته ، وقرأت اتفاقًا :

« اذا دقّ الناقوس فى الجو المهتز طربًا

« دقة « السلام عليك يا مريم »

« كأنه متعبد يغنى و يصلى . . .

« ارتعدت العذراء خوفًا وفَرَقًا

« وهى فى البستان بين أشجار التفاح

« إذ ترعى الرسول مقبلاً

« يقدم اليها « الزنبقة الحمراء »

« التى يحب الموت بعض الحب من يشم شذاها !

« وفى طراءة المساء بين اسوار الروضة الغناء

« تستشعر العذراء النفسَ الصاعدة على الشفتين
« فيخيل اليها أن روحها يفيض من صدرها الناصع
« كالغدير الذى يفيض من الزلال الصافى . . . »

فظلت تقرأ ذاهلة غير مكترثة ، تفكر فى الشاعرة « مس بل » اكثر مما تفكر فى شعرها ، ولعل هـذه الشاعرة كانت ألطف صواحبها جميعًا وان كانت قليلاً ما تراها .

وقد حدث مرة من مرات لقائهما النادر أن عانقتها « مس بل » هذه ونقرتها بشدة فى خدها وهى تقبلها ! . . ودعتها : « عزيزة » !! واندفعت فى حديث كمناغاة الاطفال ، وكانت غير جميلة الصورة ولـكنها كانت خفيفة الظل ، ولطيفة خالصة اللطف .

وكانت تعيش فى « فيزول » عيشة فلسفية حينما ذهب سِمْعُها فى بلادها بأنها شاعرة انجلترا المحبوبة ، وقد هامت هيام « مارى روبنسون » و « ڤرنون لى » بحب الحيـاة « التسكانية » والفن « التسكانى » ، وأخذت تعبر عن خواطر الطليان بالشعر الفرنسى .

وها هى ذى قد أرسلت ديوانهـا « عيسول الشقراء » الى « عزيزة » مع دعوة الى تمضية شهر فى بيتها بحلّة « فيزول » ، وكتبت اليها تقول : « هلمى اشهدى أجمل ما فى الدنيا يزدد بك جمالاً ! »

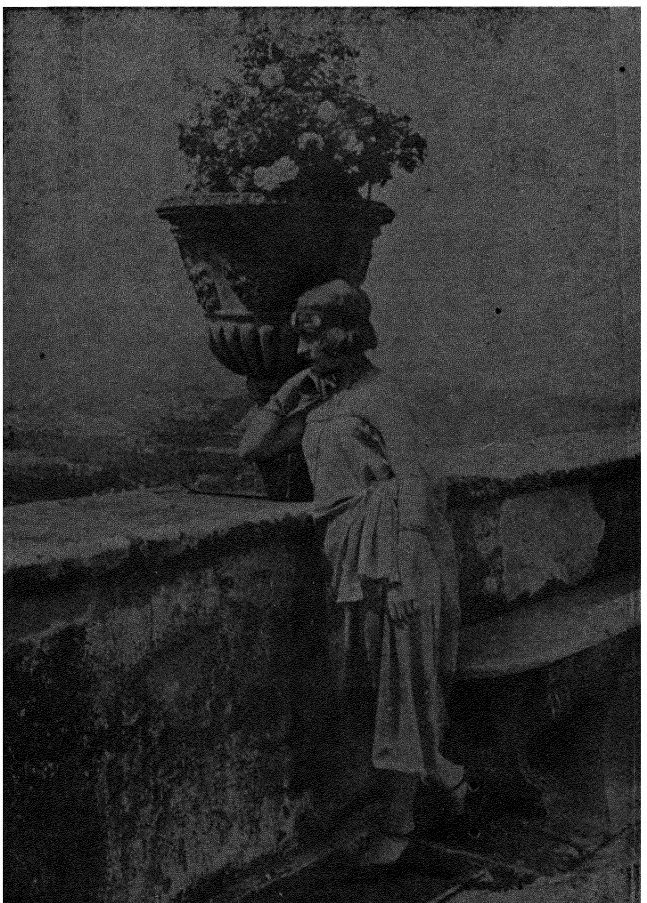

مس ڤيڤيان بل

الشاعرة الانجليزية مؤلفة « عيسوق الشقراء »

وكانت « عزيزة » تقول فى نفسها انها لن تذهب ، وانها محجور عليها في باريس ، ولكنها كانت تميل الى مشاهدة « مس بل » وايطاليا مرة أخرى .

وبينا هى تقلب صفحات الكتاب إذ رأت هذا السطر اتفاقاً :

الحبُّ والقلبُ الشفيقُ سواءُ

فتساءلت فى تهكم رقيق : « تُرى أذاقت مس بل للحب طعماً ! وماذا عسى أن يكون حديث غرامها ؟ ! »

وكان للشاعرة رجل معجب بها ملازم لها بفييزول وهو الامير « البرتنلّى » ، وكان على جماله الساحر عادياً مبتذلاً غير جدير أن يكون ملء نفس شاعرة تعرف كيف تمايز بين صنوف الحسن ، وفيلسوفة ترى فى الحب نوعاً من الاشراق الذى يوصل الانسان الى الله .

***

– نعمت صباحاً يا تريز ! كيف أنت ؟ أما أنا فقد عييت وضقت ذَرْعاً . . .

وكانت المتكلمة تدعى الاميرة « سنيافين » وهى امرأة جميلة الشكل فى فرائها التى كان يصعب تفريقها عن لون بشرتها البضّة السمراء .

فجلست وقالت بصوت أجش يمازجه الحنان ، كأنه خليط من صوت الرجل وزقزقة العصفور :

– قطعت الغابة هذا الصباح سيراً على القدمين بصحبة « الجنرال لاريفيير » ، وكنت قد لقيته فى طريق « دى پوتان » فصحبته الى جسر « ارچنتاى » ، حيث أصرَّ على شراء عَقْعَق متعلم فصيح من حارس الغابة ليهديه إلىّ ، حتى توعك مزاجى وتضايقت !

– لكن ليت شعرى مادعاك الى اصطحاب « الجنرال » حتى جسر « ارچنتاى » ؟

– ان أصبع قدمه الكبير مصاب بالنقرس !

– انك تسرفين فى خبائثك . أنت رعناء !

– وأنت يا عزيزتى أتريدينني على أن أوفر شفقتى وأدخر خبائثى لتوظيفهما بالربا فى صفقة أخرى مهمة ؟

وهنا دخل « الجنرال لاريفيير » متثاقلاً ، يتقدمه صوت تنفسه المرتفع ، فقبل يدى السيدتين ، ثم جلس بينهما ، وعليه سيماء النشاط والارتياح ، يغمز بعينه ، ويضحك حتى تبدو نواجذه ، وقال :

– كيف حال الكونت « مارتن بليم » ؟ ألا يزال منهمكاً فى عمله مشغولاً كدأبه ؟

فقالت « تريز » انها تظنه الآن فى البرلمان ، وتظنه فوق ذلك يخطب ! . . .

فسألتها الاميرة « سينافين » عمّا أخَّرها عن الحضور ليلة أمس الى دار « مدام ملاّن » حيث مُثِّلت مَهْزلة .

فقالت لها الكونتس : « وهل أجادوا تمثيلها ؟ »

فأجابت :

– نعم ، أو بالحرى لا أدرى ! فقد كنت جالسة فى الثَّوي الصغير الاخضر لون فراشه ، تحت صورة « دوق أورليان » فدخل مسيو « لومنيل » وقدم لى خدمة من تلك الخِدَم التى لا تنسى ، اذ أنقذنى من مسيو « جران » . .

ولما كان الجنرال « لاريفيير » من قراء « دليل الاسماء » ويختزن فى رأسه الكبير أنواع المعارف المفيدة ، أرهف سمعه عند سماع هذا الاسم ، وسألها :

– « جران » ؟ اليس هو أحد رجال الوزارة التى كانت فى دست الحكم حين كان الامير قرينك فى المنفى ؟

– هو بعينه ، وقد رقته كثيراً فجعل يبثنى لواعج شوقه ، ويحدثنى عن حاجات قلبه ، ويحدق النظر إلىّ بحنان فاجع ، وينظر من وقت لآخر الى صورة « دوق أورليان » ويتنهد . . .

فقلت له : « أنت تخلط يا مسيو « جران » ! فهى أخت زوجى التى من مقاطعة « أورليان » ، أما أنا فأجنبية منها بعيدة عنها ! »

وعندئذ جاءنى مسيو « لومنيل » وأخذنى الى المقصف ، وهنأنى

بجيادى ، وقال لى انه ليس فى « الغابة » هـذا الشتاء اكرم منها أصلاً ، وحدثنى عن الذئاب وجِرائها ، فكان حديثه منعشًا طلياً .

فقال الجنرال ، وكان لا يحب الشبان ، انه قابل « لومنيل » مساء فى الغابة وهو يعدو بفرسـه خَطْفَ البرْق ، وقال أيضًا إن الفرسان القدماء هم وحدهم الذين يحافظون على تقاليـد الرَّكْبَة الحسنة . وان شبان اليوم يخطئون بركوبهم رِكْبَة الأُجراء فى حَلْبة السباق . . .

فقاطعته الاميرة « سنيافين » بقولها :

– انظرْ يا جنرال ما أبدع « الـكونتس مارتن » ! انها فتانة دائمًا وان كانت الآن أشد فتنة منها من قبل ، وما ذلك الاّ لأنها متضجرة ، وليس مثـل الضجر يبلغها غاية الفتنـة وأمد الجمال ، وقد أثقلنا عليها وضايقناها مذ جئناها ؛ انظر الى جبينها القاتم ونظرتها المبهمة وثغرها الحزين . انها ضحية !

ثم قفزت فطبعت على خد « تريز » قبلة حارة ، وعدت تاركة الجنرال ذاهلاً .

فرجت منه « الـكونتس مارتن » ألا يكترث لتلك المجنونة ، فهدأ وسألها :

– وكيف حال شعرائك يا سيدتى ؟

وكان الجنرال يتحرَّج أن يغفر للكونتس تعلّقها بالكتّاب الذين من غير طبقتها . . فعاد يقول :

– نعم . شعراؤك ! ماذا جرى لذلك « المسيو شولت » الذى يأتى لزيارتك لابسًا كوفية حمراء ؟ !

– ان شعرائى ينسوننى ويتخلون عنى ، وليس ثمة انسان حقيق بأن يُعتَمد عليه أو يُركن اليه ، وما الحياة إلا سلسلة خيانات متصلة الحلقات . . وليس غير تلك المسكينة « مس بل » التى لا تنسانى ، فقد كتبت إلىّ من « فلورنسا » وارسلت إلىّ ديوانها .

– « مس بل » ؟ اليست هى تلك الشابة التى تشبه بشعرها المجعّد الأشقر الكلب البيتى الصغير ؟

ثم قدر فى ذهنه تقديرات انتهى منها الى القول بأنها الآن لا بد أن تكون فى سن الثلاثين .

ثم دخلت القاعة سيدة عجوز بيضاء الشعر حسنة البِزَّة محتشمة الهيئة ، يتبعها رجل نشيط الحركة حديد البصر ، وهما « مدام مارميه » والمسيو « پول ڤانس » .

ثم ظهر رجلٌ صليب القامة كثير التكلف واضع عوينة واحدة من البلّوْر (مونوكل) على احدى عينيه ، وهو المسيو « دانيل سالمون » حُجَّةُ الأزياء .

فانسحب الجنرال .

وأخذوا فى الكلام عن رواية الاسبوع . وكانت « مدام مارميه » قد تعشت مع مؤلفها غير مرة فوجدت منه فتى جذّابًا . وقال « پول ڤانس » انه وجد الكتاب مملاً .

فتنهدت « الكونتس مارتن » قائلة :

– ان الكتب كلها مملة ! لكن الرجال أشد من الكتب إملالاً ، واكثر مطالبَ وأطماعًا !

ثم التفتت الى « مسيو دانيل سالمون » وسألته رأيه فى بعض أوانيها الخزفية ، قائلة :

– انها من « سان كلو » . فقل لى هل تروقك ؟ وأنت أيضًا يا « مسيو ڤانس » يجب أن تبدى رأيك ، إلا إذا كنت تزدرى مثل هذه التوافه .

فحدّق المسيو « سالمون » الى « پول ڤانس » من وراء عوينته بغطرسة عابسة . ودار « ڤانس » ببصره حول الثَّوي وقال :

– عندك يا سيدتى أشياء جميلة . وهذا فى نفسه لا يعد ذا شأن . ولكن ليس عندك إلا كل ما هو جميل ولائق بك .

فلم تخف امتنانها لسماع هذا القول ، وكانت تعد « پول ڤانس » الرجل الوحيد الذكي الفؤاد من بين أصدقائها الذين يختلفون اليها ، وقد عرفت قدره حق المعرفة قبلما تشهره كتبه و يذيع صيته ، وكان ضعف بنيته واضمحلال صحته واكتئابه ووفرة أعماله قد

باعدت بينه و بين الناس ، وقليلاً ما كان هذا الرجل الصفراوىُّ المزاج الضئيل الجسم لطيفًا مستحبًا ، ومع ذلك قد اجتذبها واستمالها وكانت تعجب بتهكمه البليغ وكبريائه القاسى وتقدر مواهبه التى أنضجتها الوَحدة حق قدرها ، وكان اعجابها به صحيحًا لأنها كانت تراه كاتبًا قديراً بديعًا كل ما يكتبه فى الفنون والأخلاق .

وحَفِلَ النَّوي شيئًا فشيئًا بجماعة مُتَخَيَّرة من السيدات والسادة. وكانت إذ ذاك دائرة المقاعد الكبيرة قد احتوت « مدام دى ڤرسون » التى أُثرت عنها حكايات جِدُّ مرعبة ، وهى التى سلخت عشرين سنة فى فضائح لم يُقض عليها بعد ، ولا تزال على ذلك وعيناها عينا طفل ووجنتاها وجنتا عذراء . .

وكان فيمن هناك « مدام مورلين » العجوز ، الخفيفة المراحة ، الموزّعة الفكر ، الولهى ، تجىء بنكات بائخة فى صيحات صارخة ، بينا تهزّ شكلها الهائل العَجَب كأنها سابحة محوطة بنُطُق النجاة ! . .

وكذلك كان فيمن هناك « مدام رايمون » زوج أحد أعضاء الأكاديمية ، ومدام « جران » زوج أحد الوزراء السابقين ، وثلاث نساء أُخريات . وكنت ترى بينهم مسيو « برتييه ديزل » محرر جريدة الديبا Le Journal des Débats وعضو مجلس النواب ، واقفًا يصطلى ، ويمريده على عارضيه الأبيضين ، متثنيًا متخايلاً ، فى حين صاحت به « مدام مورلين » قائلة:

– ان مقالك فى « مذهب المعدنين » درّة ، انه جوهرة ! أما الخاتمة ، بخاصة ، فكانت فتحاً والهاماً !

ووقف فى آخر القاعة بضعة شبان من أعضاء الاندية يتشدقون فيما بينهم بمثل قولهم :

— ما الذى فعله حتى نال جائزة الصيد التى وضعها الامير ؟ . . .

— لم يفعل شيئاً ، وفعلت امرأته كل شىء !

وكان لهؤلاء الشبان فى الحيـاة فلسفتهم . وكان منهم من لا يثق بالوعود فقال :

— فى الناس صِنفٌ لا أطمئن اليه ولا أرجو خيراً على يديه ، وهو من تجد قلبه طوع يده وفمه . يسألك : « أأنت مرشح للانتخاب ؟ فأعدك أن أصوّت لك » وعند ما يجىء الانتخاب تنقلب الكرة البيضاء سوداء و يصوّت لغيرك ، خديعة وخَباً ! وما الحيـاة إلا شيئاً غثاً إذا ما أمعنت النظر فيها .

فقال ثالثهم :

— لا تمعن النظر فيها اذاً !

ودخل فى غمارهم « دانيل سالمون » فجعل يهمس فى آذانهم ، بصوته الطاهر . . بأسرار الخدور ، و بعد افشاء كل سر غريب مفترى على « مدام رايمون » زوج عضو الاكاديمى ، أو مدام « برتييه ديزل » أو « الاميرة سنيافين » ، يضيف بلا مبالاة قوله :

. — كل الناس يعرفون ذلك !

ثم أخذت السهرة تنفض والزائرون ينصرفون ، حتى لم يبق غير « مدام مارميه » و « پول ڤانس » ، فذهب الاخير الى « الكونتس مارتن » ربة البيت فسألها :

— متى تريدين أن أقدم اليك « دى شارتر » ؟

وكانت هذه هى المرة الثانية التى سألها فى هذا ، ولم تكن مواتية برؤية سِحَن جديدة فقالت ، بلا أدنى اكتراث :

— صاحبك المثّال ؟ متى شئت . فقد رأيت فى « شان دى مارس » تماثيل من صنعه لا بأس بها . لكنه قليل الانتاج . انه من الهواة ، اليس كذلك ؟

— انه رقيق المزاج . وليس فى حاجة لأن يتكسّب بفنه ، وهو يدلل صورَه و يصنع تماثيله بأناة العاشق لها المغرم بها ، لكن ثقى يا سيدتى انه يدرك و يشعر ، ولولا انه يعيش وحده لصار استاذاً ، وقد عرفته مذ كان طفلاً . يحسبه الناس قليل الاكتراث دائم الكآبة ، والواقع انه خجول سريع التأثّر ، والذى ينقصه وسيظل ينقصه ليصل الى أعلا درجات فنه هو صفاء العقل وخلو البال ، فهو دائماً قلق متلهف مضطرب ، و بذلك يتلف أبدع تصوراته وأفتن تأثيراته ، وعندى انه يصلح للفلسفة والشعر أكثر مما يصلح

لصنع التماثيل والحفر ، وهو غزير المعرفة ، وستدهشك خصوبة ذهنه وغزارة علمه .

فأقرّت ذلك « مدام مارميه » الخيّرة . ذلك أنها تُرضى الناس بظهورها مظهر الراضية عنهم ، تراها كثيراً ما تسمع وقليلا ما تتكلم . ولأنها مجاملة ، تجعل ثمن مجاملتها التؤدة فى منحها . وسواء أكانت « الكونتس مارتن » تعجبها حقاً أم أنها كان فى مقدورها الظهور فى كل بيت بمظهر المؤثرة لهـذا البيت ، كانت تجلس مسرورة كالجدّة ، تصطلى فى ركن المصطلى المصنوع على طراز « لويس السادس عشر » الأصلى ، الذى كان يتناسب وجمال سيدة عجوز سَمْحَة مثلها . ولم يكن ينقصها فى مجلسها الاَّ كلبها الصغير . .

فسألتها الكونتس مارتن :

— وكيف حال « توبى » ؟ ألا تعرف « توبى » يا مسيو « ڤانس » ؟ ان له شعراً حريرياً طويلاً وانفاً صغيراً أسود جميلاً !

وبينا كانت « مدام مارميه » تستمتع بسماع الثناء على كلبها « توبى » إذْ دخل شيخ مورَّد الخدين ، مجعَّد الشعر أشقره ، قصير النظر يكاد يكون كفيفه ، يلبس عوينات ذهبيّة . وكان قصير الساقين فاصطدم بالأثاث ، وخبأ المقاعد الخالية ، وجرى نحو المرايا ، ثم رفع أنفه الاقنى نحو « مدام مارميه » التى كانت تنظر اليه شزْراً . وكان الرجل يدعى « مسيو شُمَـلْ » وهو عضو المجمع الأثرى ،

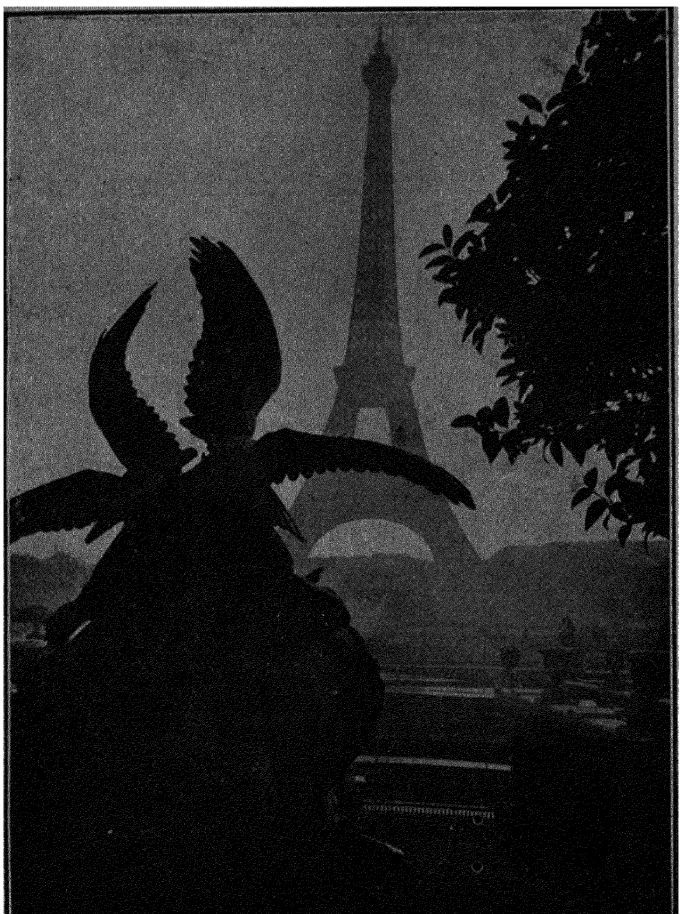

شان دي مارس

حيث كانت معروضات المثّـال « جاك دي شارتر »

وكان لغوياً عظيماً وعضواً بالمجمع العلمى الفرنسى لأنه يعرف جميع اللغات ما عدا الفرنسية ! ! وكانت « الكونتس مارتن » تنزه خاطرها بتلطفاته وتسلى نفسها بتغزّلاته التى كانت من الثّقَل كقطع الحديد القديم الصَّدِئة التى يعرضها بائعو الفلِزّات « الخُرْدَة » . وكان « مسيو شمل » من عشاق الشعراء ، والنساء ، وكان فَهِماً !

فتجاهلته « مدام مارميه » ، ثم خرجت ولم ترد عليه تحيته . ولما أفرغ « مسيو شمل » جُعْبَةَ غزله ، غشيه الحزن وصار بحيث يرثى له ، فأخذ يردد النواح والأنين والشكوى المرة ، فقال انه لم يُمنح الكفايةَ من النُّعْمى ، ولا زُوِّد الكفاف من العيش ، ولا هيء له ولا لزوجه ولا لبناتهما الخمس المسكن اللائق بهم على نفقة الحكومة ، وكان فى بَثّه ونواحه شيء من العظمة والجلال .. كأن فيه من روح أرميا وحزقيال ...!!

ولنكد الطالع ، نظر الى سطح المنضدة بعو يناته الذهبية فاستكشف كتاب « ڤيڤيان بل » ، فصاح بحرقة :

— آه ! « **عميدُ الشعراء** » ؟ ! أهذا الكتابُ الذى تقرئينه ياسيدتى ؟ ألا فاعلمى ان « مس ڤيڤيان بل » قد سرقت منى سطوراً ! وزادت الطين بلّةً بأن حرَّفت معناها بنظمها فى قصيد ! وستجدينها فى هذا الكتاب فى الصفحة ١٠٩ :

« أيا من أحب لا تبك !
« فما لم يعد كائناً ، لم يكن قط .
« دع حزنى الكظيم يسيل
« فقد يبكى الطيف من أجل طيف ! »

أسامعة أنت يا سيدتى ؟ أيمكن طيف الخيال أن يبكى طيفاً ! نعم ! هذه الكلمات مترجمة حرفياً عن كتابة خاصة بالجنائز كنتُ أنا أول من نشرها وشرحها ، وفى العام الماضى لما كنت أتناول طعام العشاء فى منزلك وألفيت نفسى بجانب « مس بل » على المائدة استشهدت بتلك الجملة التى راقتها كثيراً ، وفى اليوم التالى ترجمت القطعة كلها الى الفرنسية إجابة لملتمسها وأرسلتها اليها ، وهأنذا أجدها الآن مشوهة مقطعة الأوصال محرّفة فى هـذا الديوان تحت عنوان : « على الطريق المقدس ! » وما الطريق إلاَّ أنا !

وكرّر بمزاجه العَـكِر المضحك :

— نعم ، أنا يا سيدتى ذلك الطريق المقدس !

وقد ساءه بخاصة أن الشاعرة لم تذكره فى صدر تلك القطعة ، وكان يود لو يرى اسمه فى رأس القصيدة ، وفى السطور ، وفى القافية ! وكان يريد على الدوام أن يرى اسمه فى كل مكان ، وكان يبحث عنه دائماً فى الصحف التى كانت جيوبه محشوة بها ، لـكنه لم يكن حاقداً ، ولم يحمل « للآنسة بل » أية موجدة ، فقد وافق راضياً على انها امرأة ممتازة نابهة ، وانها الآن أشهر شاعرة تشرف الانجليز .

فلما انصرف سألت « الكونتس مارتن » « المسيو پول فانس » ، بكل بساطة ، أيعرف لماذا جبهت السيدة « مارميه » ، وهى عادة طيّبة رحيمة خيّرة ، بمثل ذلك الغضب والصمت ، المسيو «شمل» عند دخوله ؟

فبُهت ، وقال لها :

— ان النزاع بين « جوزيف شمل » و «لويس مارميه » الذى ظل دويه فى المجمع أمداً طويلاً قد شاع وذاع ولا يزال ملء الاسماع ، ولم ينته إلا بوفاة « مارميه » بل ان زميله « شمل » الذى لا يبرأ من غله وسخيمته قد تبعه الى مقبرة « پيرلاشيز » ! فى اليوم الذى دفن فيه « مارميه » المسكين كان البَرَدُ يتساقط مدراراً ، فابتلّت اجسامنا وتثلجت حتى عظامنا وهنالك ، بجانب الحفرة ، فى الضباب ، وفى العاصفة ، وفى الوَحَل ، تلا «شمل» وهو تحت مظلة ، خطبةً ملؤها الفرح والسخرية والشماتة . ثم حملها من فوره الى الجرائد فى عربة من عربات الجنازة ! وحدث ان صديقًا أخرق أراها « لمدام مارميه » الطيبة القلب فسقطت مغشياً عليها ، أفيمكن يا سيدتى انك لم تسمعى قط نبأ تلك المشادة العلمية الوحشية ؟ !

وكانت اللغة « الاتروسكية » هى السبب ، وكان « مارميه » وقف حياته على دراستها حتى قد لُقّب بـ « مارميه الاتروسكى » ولم يكن هو ولا سواه يعلم كلمة واحدة من تلك اللغة التى عَفَت

آثارها ، وكان « شمل » يقول له دائمًا : « أى زميلى العزيز ! أنت تعرف انك لا تعرف اللغة الانروسكية ، وهذا الادعاء هو سبب عدّك من العلماء واهل الذكاء ! » . فاعتزم « مارميه » وقد هاجه وغاظه هذا المدح الهازىء أن يعرف شيئًا من اللغة الانروسكية . فتلا على زملائه أعضاء المجمع مذكرة فى : « مكانة علم الصَرْف من لغة التسكانيين القدماء »

فاستفهمت « الكونتس مارتن » عن معنى « الصَرْف » فقال « پول فانس » :

— عفواً سيدتى ! انى اذا اعطيتك ايضاحات وقعت واياك فى حيْص بيْص وضاع منا جوهر الموضوع ، فاقنعى بمعرفة ان « مارميه » المسكين قد استشهد فى تلك المذكرة بمتون لاتينية ، فجاء اقتباسه لها عكسيًا بحتًا ، ولما كان « شمل » عالمًا بارعًا فى اللاتينية عتب على زميله الصغير (كان « مارميه » دون الخمسين من عمره) انه يعرف الشىء الكثير جداً من الانروسكية والقليل جداً من اللاتينية . ومنذ ذاك الحين لم يدع « شمل » « مارميه » يذوق للراحة طعماً ، وكان فى كل اجتماع يتهكم عليه بشراسة وتحقير وغبطة الى حد أن ضاق صدر « مارميه » بالرغم من دماثة خلقه ووفرة حلمه . وحدث يومًا ان « شمل » كان صاعداً سلم المجمع مع « رينان » و « اوبير » فالتقى « بمارميه » فمدّ له يده ، فرفض

« مارميه » مصافحته قائلاً : « لا أعرفك ! » فاجابه « شمل » بقوله : « هل تحسبني كتابة لاتينية ؟ »

فكانت تلك الكلمة من الاسباب التي عجلت وفاة « مارميه » المسكين .

والآن قد علمتِ السبب الذي يدعو أرملتـه التي تقدس ذكراه تميز غيظاً لمرأى عدوه .

فقالت « الكونتيس مارتن » :

— يا ويْحي ! كيف أدعو هـذين الضدين الى الغداء معاً لأجلسهما جنباً الى جنب ! ؟

فقال « پول فانس » :

— لم يكن هذا يا سيدتي عملا شائناً . لا ! وانما كان قاسياً . . .

— قد أدهشك يا سيدي العزيز . . لكن اذا لم يكن بدٌّ من الاختيار ، فاني أوثر أن آتي عملا شائناً على أن اقترف عملاً قاسياً !

وعندئذ دخل شاب طويل القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ، مفتول الشارب ، وحيّا « الكونتس مارتن » . فقالت :

« مسيو فانس » ! لعلك تعرف « مسيو لومنيل » ؟

أجل ، فانهما كانا قد التقيا من قبل بدار « الكونتس » ، وتراءيا

غير مرة في قاعة السلاح التى كان «لومنيل» يختلف اليها باستمرار، وكانا ايضاً قد التقيا فى السهرة الماضية فى بيت « مدام مللان » . فقال « پول فانس» :

— ان بيت « مدام مللاّن » مصدر مضايقة للانسان .

فقال « لومنيل » :

— ومع ذلك فهى تستقبل فيه أعضاء الاكاديمى . نعم ، لست ابالغ فى أقدارهم ، لكن الحاصل انهم هم المختارون .

فابتسمت « الكونتس » وقالت :

— انّا نعلم يا « مسيو لومنيل » انك فى دار « مدام مللان » اكثر اشتغالاً بالحسان منك باعضاء الاكاديمى . . فقد أخذت الاميرة « سنيافين » الى المقصف وحدثتها عن ذئاب .

— كيف ؟ عن ذئاب ؟

— عن ذئاب وذئبات وجِرَاء ، وعن غابات جرَّدها الشتاء . . ! ومن رأينا ان أحاديثك هذه مع مثل تلك السيدة الفاتنة كانت أحاديث جافة جافية .

فنهض « پول فانس » قائلاً :

— على ذلك ، اذا أذنت لى يا سيدتى ، أتيتك بصديق « دى شارتر » ، فهو شديد الرغبة فى التعرف بك ، وارجو ان

يروقك ولا ينبو عنه ذوقك ، فان له عقلاً ذكياً وفؤاداً حياً ، كما ان له خيالاً ساميًا ورأيًا ناصحًا ورأسًا مليئًا بالفِكَر . . .

فقاطعته « الكونتيس مارتن » بقولها :

— على رسلك ! انني لا أطلب هذا كله ، فالمطبوعون الذين هم على سجيتهم و يبدون كحقيقتهم وكما تنبىء عنهم ظواهرهم قلما يضايقونني ، بل أجد فيهم سلواى أحيانًا .

ولما انصرف « پول فانس » ، صغى « لومنيل » الى وقع أقدامه المتضائل فى الردهة ، والى صوت البـاب الخارجي وهو يغلق ، ثم اقترب منها قائلاً :

— غداً ، فى الساعة الثالثة ، فى « بيتنا » ، اليس كذلك ؟

— أوَلا تزال تهواني ؟

فاستعجلها الرد فى وحدتهما ، فاجابته وهى تحاوره ، لكيما تعذبه ، ان الوقت متأخر ، ولم تعد تتوقع زوّاراً آخرين ، ولم يبق سوى زوجها الذى قد لا يلبث ان يدخل ! . .

فتوسل اليها فلم تمض فى عنادها ، وتجعله يزيد فى رجائها ، وقالت :

— أتريد ؟ اذن اليك : غداً سأكون حرّةً سحابة النهار . فانتظرني فى الساعة الثالثة بشارع « سبونتينى » . و بعد ذلك . . نخرج للتنزه .

فشكرها بنظرة ، وعاد فاتخذ مجلسه قبالتها ، الى الجانب الآخر من المصطلى ، وسألها عن « دى شارتر » هذا الذى كانت تطلب أن يُقَدَّم لها . فقالت :

— انى لم أطلب التعرف به ، بل سُئلت أن يُقدم الىَّ . وهو مثَّال .

فشكا من انها تريد دائمًا رؤية وجوه جديدة . وقال :

— مثَّال ! ، ان اولئك المثَّالين عامة ذوو فظاظة ! . . .

— أوه ! ان ذاك قليل الصناعة ، فهو مثَّال أو بعض مثَّال . ومع ذلك اذا كنت غير راض عن استقبالى له فلن أفعل .

— سأكون غير راض مطلقًا اذا أخذ الناس أى جزء من الوقت الذى تختصيننى به .

— ليس لك يا صديقى أن تشكو من منحى الناس كثيراً من وقتى ، على انى لم أذهب بالأمس الى بيت « مدام ملاّن » .

— أنت على صواب فى الاقلال من ذهابك اليه ما امكن ، فليس بالبيت الذى يليق بك الاختلاف اليه .

وافصح عما فى نفســه قائلاً ، ان كل النساء اللواتى يزرنه لهن تاريخ معروف ، يُتحدث به ، فضلاً عما اشتهرت به « مدام ملاّن » من انها دسَّاسة ، وعَزَّز قوله ببعض الأمثلة .

وفى تلك الاثناء كانت قد وضعت يديها على ذراعى مقعدها

بهيئـة اضطجاع للراحة اخّاذة بالألباب ، ومالت برأسها جانبًا ، وأخذت تحدق الى النار الخامدة . . وقد سلبت أفكارها ولم يبق لهـا منها أثر سواء فى محياها الذى عليه مسحة من الكدر أو فى جلستها الكليلة المتراخية . . وكانت راغبة ، اكثر منها فى أى وقت مضى ، فى تلك الغفوة التى كانت فيها روحها ، ولبثت باقية حينًا فى ذلك السكون العميق الذى زاد جمال الفن والصناعة على جاذبية جمالها الطبيعى .

فسألها فيمَ تفكر . فأوشكت أن تتخلص من سحر النار والرماد الـكئيب ، وقالت :

— سنذهب غداً اذا شئت الى أحياء المدينة البعيدة ، الى تلك الاحياء الغريبـة حيث نستطيع رؤية معيشة الفقراء ، فانى أحب الشوارع العتيقة التى أنحى عليها الشقاء . . .

فوعدها أن يجيب سؤلها و يتابع ميلها ، وان لم يُخْفِ انه يراه منها ذوقًا شاذًّا وخيالاً ضالاً ، وكانت هذه الجولات التى جعلته يصحبها فيها تضايقه احيانًا ، وكان يعدها خطرة إذ يمكن أن يراهما أحد . فقال :

— وقد نجحنا الى الآن فى تجنب كلام الناس عنا .

فهزت رأسها قائلة :

— أيخيل اليك انه لم يتكلم عنا أحد؟ ان الناس يتكلمون

سواء أكانوا يعلمون أم لا يعلمون . وليس كل شيء يُعرف ، ولكن كل شيء يُقال .

وعادت الى أحلامها فظنها غير قانعة ولا راضية ، ومتكدرة من شيء تخفيه عنه ، فمال نحوها محدقًا فى عينيها الجميلتين الحالمتين اللتين كان ينعكس فيهما ضياء نار المصطلى . لـكنها هدّأت من روعه بقولها :

— لست أدرى أيتكلم الناس عنى أم لا ، على انه ماذا يَعنينى من ذلك ؟ لا شيء !

فغادرها وكان ذاهبًا لتناول طعام العشاء فى النادى حيث كان ينتظره صديق له مارّ بباريس .

فأتبعته نظرةَ عطف هادئة ثم عادت تطالع الرَّماد . . .

وذكرت أيام طفولتها ، والقصر التى اعتادت أن تمضى فيه فصول الصيف الطويلة الحزينة ، والغابات المونقة ، والحديقة النديّة المظلمة ، والبركة الخَضِرَة الراكدة ، والتماثيل المرمرية تحت أشجار الـكستنا ، والمقعد الذى بكت فوقه وتمنّت الموت ، والى هذا اليوم كانت تجهل اسباب ذلك القنوط البالغ عند ما كانت يقظة مخيلتها فى أشدّها وكان التحوّل الذى يدب فى جسمها كلاهما يُجِدُّ لها ضَرْبًا من التهيج هو مزيج من المخاوف والأهواء .

وفى طفولتها ، جعلتها الحياة ترغب وترهب ، فقد عرفت الان

أن الحياة لا تستحق مثل هذا الأمل أو القلق ، وانها ليست سوى شيء عادى ، وكان ينبغى لها أن تتوقّع ذلك ، فكيف لم تدركه من قبل ؟

ومضت فى حلمها تقول لنفسها :

— كانت « **مادا** » نُصْبَ عينى ، سيدةً موفورة الحظ من الصلاح ، ضئيلَتَه من السعادة . فأمّلت نصيباً من العيش يختلف كل الاختلاف عن نصيبها . فلِمَ هذا ؟ لقد كنت أتذوق طعم الحياة تَفَهّاً فى تلك البيئة ، فتنظَّرتُ مستقبلاً فيه من مرارة الحياة وحلاوتها . فترى لِمَ هذا ؟ ما الذى كنت أريده وأتوقعه ؟ أفلم يكن لى من كآبة كل شيء نذير كاف ؟ ؟

***

وُلدت غنية ، محوطة بأبهة من الثروة الطريفة ، وكانت ابنة ذلك الرجل « مونتسوى » الذى لم يكن بادئاً إلاَّ كاتباً فى مصرف باريسى ، فاسس بيتين كبيرين من بيوتات المال وادارهما ، وقد استطاع ان يجتاز بهما ازمات شِداداً ، وتعامل والحكومة على قدم المساواة وذلك بما أُوتى من حذاقة ولباقة ومتانة خلق وبعد نظر .

فنمت فتاتنا وترعرعت في قصر « جوانفيل » التاريخى الذى اشتراه ابوها ورمّه وفرشه بأفخر الاثاث ، فصار فى ست سنوات

بحديقته الغناء وبحيراته الجميلة يضارع « ڤولو ڤيكونت » وجاهةً ، وتمتع « مونتسوى » بكل ما يمكن ان تمنحه الحياة من لذات ، ولما كان بفطرته ماحداً وجبّاراً فقد اعتزم أن يغتنم كل ما تطوله يده من لذاذة ونعيم ، فجمع فى قاعات استقبال قصر « جوانفيل » وساحاته صور كبار الفنانين ونُصُب المرمر الثمين ، وكان وهو فى سن الخمسين يؤدى لأجمل الممثلات والغانيات نفقات زينتهن وترفهن ، واستمتع بكافة ما فى المجتمع من متع بكل بهيمية طبيعته ، وحدّة ذكائه وفطنته ، فى حين كانت « مدام مونتسوى » زوجه المسكينة قابعة فى « جوانفيل » عليلة ذليلة ، تبدو بحرصها واقتصادها حقيرة فقيرة . وهناك ، فى ذات مساء ، على سرير صغير من حديد منزوٍ عند قوائم سرير العُرْس ، ماتت من الحزن والضعف ، ولم تكن تحب فى الدنيا سوى اثنين : زوجها وثويّها المفروش بالحرير الاحمر المشجَّر في بيت شارع مو بيج !...

فلم تكن ثمة أُلفة أصلاً بين الأم وابنتها إذ كانت الأم تشعر بالطبع أن « تريز » بعيدة كل البعد عنها فى غرائرها ونزعاتها . لأن البنت كانت موفورة الحجى والنهى ذات جنان ثابت وإرادة قوية ، وكان يجرى فى عروق « تريز » هذه دم « مونتسوى » الحار القوى . وكانت إلى ذلك طيبة القلب لطيفة الطبع ، وكان « لتريز » ما لأبيها من حرارة النفس ونشاط الجسم اللذين سببًا للأم أَمَرّ الألم ، وكان

يهون عليها أن تغفرها لزوجها اكثر مما يهون عليها غفرانهما لابنتها ، بَيْدَ أن « مونتسوى » عرف قدر ابنته ورأى نفسه فيها ، فأحبها ، وكانت له ساعات أنسه وانشراحه كأهل المسرات أجمعين ، فمع أنه يقضى معظم أوقاته خارج البيت قد تعود أن يتناول الغداء معها كل يوم تقريباً ، فكان يأخذها أحياناً للتنزه . وكان خبيراً بالزى والحلى فيلحظ بنظرة منه ما فى زينة ابنته من غلطات سببها ذوق أمها السقيم ، فيصلحه . وكان يعلم بنيّته « تريز » ويرشدها ، وكان خشن الطبع لكنه حلو الفكاهة ، فسرّها ونال حبها واجتذبها ، وكان — حتى معها وفى معاملتها — مدفوعاً بغريزته وهى الكافُ بالغلبة والظفر ، واذ كان يجب أن يربح دائماً فقد ربح حتى ابنته ، فاغتصبها من أمها ، فراحت به معجبة مولعة .

وعادت ، وهى سابحة فى أُفق من أحلامها وأخيلتها ، فرأته فى أعماق الماضى مسرة طفولتها الوحيدة . وكانت لا تزال مقتنعة بأنه ليس فى الدنيا من يضارع أباها لطفاً .

ولما دخلت معترك الحياة لم تلبث ان يئست من العثور على مثال تلك الصفات الطبيعية ، وذلك الكمال فى قوى الجسم والفكر ، وظل هذا اليأس ملازمها عندما أتت لاختيار قرينها ، وربما بعد ذلك أيضاً حين آن لها أن تختار فى خفية عن الناس رفيقاً لها . .

وفى الحق انها لم تختر زوجها أصلاً ، بل كانت لا تكاد تعرفه ،

إذ تركت قرانها يتم بوساطة أبيها ، ولما كان الرجل أرملاً مرتبكاً مثقلاً بعبء من واجبه حيال ابنته فى وسط الحياة المضطربة ذات المشاغل الكثيرة ، لذلك أراد أن يتصرف فى الأمر بسرعة واتقان كما هو شـأنه ، فلم يفكر الا فى المظاهر الاجتماعيـة ، وقدّر قيمة الثمانين عاماً من النبل الملكى التى قدمها « الكونت مارتن » والارث المجيد الذى صار الى هذا الكونت من أسرة كان من أفرادها أعضاء فى حكومة يوليو والامبراطورية الحرّة .

أما فكرة أن تجد ابنته الحب فى الزواج فلم تكن تخطر له على بال . بل منّى نفسه بأنهـا ستجد فى الزواج غُنْيَتَهَا من ذلك الهوى بالوجاهة الذى كان يدّعيه لها ، كما تجد هناء الغنى والظهور ، فترضى تلك الأُبهة العامة القوية وذلك الكبرياء الشائع الخسيس والتحكم المادى — وذلك فى نظره جوهر الحياة .

وبغضّ النظر عن هـذا كله ، لم تكن له آراء صريحـة عن سعادة المرأة الفاضلة فى المجتمع ، لكنه كان واثقاً كل الثقة من ان ابنته ستبقى من فضليات النساء . وتلك مسألة يقين فطرى فيـه لم يحاول قط أن يثيرها .

ولما تأملت «تريز» فى تلك الثقة الحمقاء ، والثقة الطبيعية أيضاً ، التى كانت على النقيض من تجاريب أبيها الشخصية وآرائه فى النساء

افترَّ ثغرها عن بسمة تهكم حزينـة ، وزادها اعجاباً بأبيها انه من سعة الحكمة بحيث لا يقع منه ما تضيق به ذَرْعاً .

ومع هذا كله ، لم يزوجها زواجاً دون مستوى المزاوجات فى طبقة الفُرَّاغ . فقد كان زوجها كأىّ من أفراد تلك الطبقة ، العاطل أفرادها الا من موروث الالقاب ، ثم ما لبث هـذا الزوج ان صار محتملاً . ومن كل التذكارات التى أوحاها اليها الرماد الذى تطالعه على ضوء المصابيح المحجَّبة ، لم يكن اشد ضآلة فى مخيلتها من تذكار حياتهما الزوجية المشتركة التى كانت بعيدة عن نظائرها فى المجتمع . فرأت فى الرماد بعض حوادثها العرضية المتباعدة التى تجلت لها تجلياً مؤلماً ، كما رأت بعض صورها السخيفة ذات التأثير الغامض المضايق ، على أن عهدها بها لم يطل فسرعان ما مضي ولم يترك أثراً ما . . . .

والآن ، وقد مضت ست سنوات ، لم تكد تذكر كيف استردت حريتهـا . وكان فوزها سهلاً سريعاً على ذلك الزوج البارد السقيم الأنانى المؤدب . . . على ذلك الرجل المجتهد الطموح الخامل الذى عاد من انهماكه فى الاشغال والسياسة نحيـل البدن يابسه اصفر الوجه شاحبه .

ولم يكن حبه النساء الا تظاهراً ومباهاة ، فلم يحب زوجه قط . وكان انفصالها تاماً صريحاً ، ذاك الانفصال الذى جعل كلاً منهما

غريباً من صاحبه ، وجعلهما راضيين عن خلاصهما المتبادل. وكادت تعده صديقاً لولم تجده ماكراً مرائياً كثير الدهاء فى الحصول على إمضائها عند حاجته الى نقود يستخدمها فى أعمال قائمة على حب الظهور اكثر مما هى قائمة على الطمع . وفيما خلا ذلك لم يكن للرجل الذى يؤاكلها ويعاشرها ويسافر معها ويتحدث كل يوم اليها أى نصيب أو شأن فى حياتها .

وكانت مستغرقة فى أفكارها ، منقبضة فى مجلسها ، مسندة خدّها الى يدها ، وهى أمام النار الخامدة ، كراغبة فى استقصاء أمر ، أو مستعلمة تستنبىء عرّافة ساحرة .

وبينا كانت تعرض تلك السنين الموحشة ، سنى الوحدة ، رأت وجه « المركيز دى ريو » وبدا لها بوضوح ودقة أدهشاها ، وكان أبوها قد قدمه اليها ذات يوم فخوراً بهذا التعرف ، فرأت فى المركيز رجلاً طوال القامة فاتن المحيا ، تزينه انتصارات خاصة وأمجاد عامة أحرزها فى مدى ثلاثين عاماً ، فكلل النجاح هامته ، وجعلته حوادثه قبلة الانظار وعقلة الابصار ، وكان قد أغوى ثلاث ذريّات من النساء طبع على قلب كل من أحبها منهن ذكرى لا تمحى ! ومدّ حبلَ شبابه الى ما وراء الحد العادى ما أُوتيه من لطف رجولى وملاحة مصفّاة وحسن قبول . وقد ميّز بخاصة «الكونتس مارتن» الشابة ، وسرّها تقدير هذه الخبير لها ، والى هذه

اللحظة ما إن تزال ذكرى ذلك التقدير تَبْهَجُها ، وكانت له قدرة عجيبة على التحدث، ووجدت فيه «تريز» ملهاة وسلوى ، ولم تكتمه ذلك . فآلى على نفسه منـذ ذلك الحين ، وهو البطل الطائش المتهور ، أن يجعـل مسك ختام حياته البهيجة حظوته بتلك المرأة الشابة التي ظفرت اكثر من أية امرأة أخرى باعجابه ، والتي مالت اليه ميلاً واضح الدلالة . فلكي يوقعها فى شرك الغواية نصب لها كل فخاخ الدهاء والخديعة ، بيد أنها أفلتت منها بغير عناء .

وبعد عامين ، أصبحت خليلة « روبير لومنيل » الذى كان قد أصرَّ بكل ما فى شبابه من حرارة وكل ما في قلبه من بساطة على احرازها . فقالت لنفسها : « لقـد منحته نفسى لأنه منحنى قلبه » . وكان ذلك حقاً . وكان كذلك حقاً أن ميلاً طبعيًا قويًا خفيًا قـد حرَّضها ، فأطاعت قوى طبيعتها المبهمة . فتقبلت حبه اعتقاداً منها أنه عاطفة صادقة مستمدة من وحى الأخلاص الذى كانت تنشده دواماً . واستسلمت وسلمت حالما رأت أنه قد هام بها الى حد أن شغفته حبًا . ووهبت نفسها بسرعة وسهولة ، فزعم أنها وهبتها بطيش وخفة ، وكان مخطئًا . وشعرت «تريز» بالضعف يشملها والـكدر يغمرها أمام فعلتها التى يتعذر اصلاحها ، كما شعرت بذلك الخزى الذى يلحق بمن يُفاجأ بشيء يجب إخفاؤه ، وكان ما يتبادل أمامها من همس عن النساء المعشوقات يطن فى اذنيها

الملتهبتين طنينًا . . . لكنها ، فى كبرياء وصدق شعور وسلامة ذوق ، كانت حريصة على إخفاء قيمة النعمة التى انعمت بها ، وعلى الا تقول شيئًا يحتمل أن يدفع بحبيبها الى أبعد مما تحمله مشاعره ، فلم يشتبه قط فى ذلك الألم الادبى الذى على ذلك لم يلابس نفسها إلا بضعة أيام اعقبتها سكينة تامة ، وبعد مضى أعوام ثلاثة ، استصوبت تصرّفها وعدت سلوكها طبيعيًا بريئًا لا غبار عليه . . . ولم تشعر بأي أسف اذ كانت لم تسىء الى أحد ما ، فكانت مغتبطة راضية ، وكانت تلك العلاقة لا تزال نعمة حياتها الكبرى وصفقتها الرابحة ، أحبت وكانت محبوبة ، وفى الحق أنها لم تشعر قط بنشوة الوجد التى حلمت بها ، ولكن هل شعر بها أحد يومًا من الأيام ؟ !

وكانت خليلة شاب طيب القلب له عند النساء اكبر حظوة وهو معروف فى المجتمع محبوب من الناس الذين يعدونه متكبراً أنوفًا ، وقد أحبها فأخلص فى حبها ، وكانت اللذة التى تمنحه إياها ، والغبطة بأن تكون جميلة فى عينه ، هما الرابطتان اللتان ربطتاها به . . وإذا لم يكن قد جعل حياتها دائمة اللذة فائقتها فقد جعلها محتملة جداً ، مقبولة ، بل جعلها مستطابة . وكان ما لم تُحزره فى وحدتها برغم تحذير الهواجس المبهمة وتنبيه الكآبات التى لا سبب لها هو طبيعتها الداخلية ، مزاجها ، ميلها الحقيقى ، فكشف لها عنه ، فعرفت بمعرفته نفسها ، فأنشأ لها ذلك دهشًا تمازجه المسرة ، ولم

تكن عواطفهما المتبادلة صادرة عن العقل أو القلب ، وانما كانت تشعر نحوه بميل محدود عادى ، وفى تلك الآونة نفسها شعرت بارتياح لما عنّ لها من أنها ستلقاه فى الغداة بذلك المسكن الصغير ، مسكن شارع « سبونتينى » حيث تلقاه منذ ثلاث سنين . فاذا بها تحسُّ فى رأسها وعطفيها هِزَّةً عنيفة لم يكن يُنتظر صدورها من حسناء غيداء مثلها ، وكان ذلك منها وهى منفردة فى زاوية المصطلى ، أمام النار الخامدة ، إذ ناجت نفسها بقولها :

« هو ذا ! ان ما تظمأ اليه نفسي انما هو الحب ! »

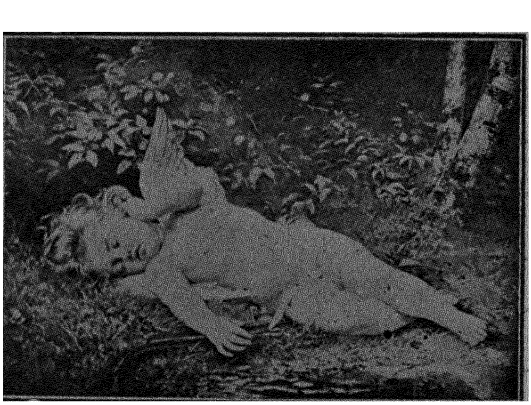

٢

كان النهار قد ولّى وذهب حينما خرجا من ذلك المسكن الصغير بشارع « سبونتيني » فاستوقف « روبير لومنيل » عربة مقفلة كانت مارة بهما ، ونظر بعين القلق الى السائق وحصانه ، ثم استقل وصاحبته العربة ، والتصق كل منهما بالآخر ، بينا كانت العربة تشق بهما عباب الظِّلال التى تقطعها الأنوار المفاجئة من المدينة ، ولم يكن يعلق بنفسيهما سوى تأثيرات حلوة أخذت الآن تمحى بسرعة الأضواء التى كانت تسطع على بلور نوافذ العربة المغطى بالبخار . وكان كل مافى الخارج يبدو لهما مضطربًا هاربًا . وكانا يشعران بالراحة العذبة المستطابة .

ووقفت العربة بقرب « پونت نيف » على رصيف « أوجستان » . فنزلا . وقد أنعشت برودةُ جافة جو شهر يناير المعتم . فجعلت « تريز » تستنشق بفرح ، من وراء نقابها الشفاف ، نفحات الرياح التى عبرت النهر وجرفت الى الارض الصلبة العثيرَ الذى هو كالملح حدة طعم ونقاء لون . ولقد لذَّها أن تسير طليقةً بين المشاهد الغريبة . وكانت تحب أن تحدق فى الأصقاع الحجرية التى يغشاها ضوء الجوّ المكفهرّ ، وتسير بخفة وثبات على مدى رصيف النهر حيث نشرت الأشجار على وجه الأفق نسيج أغصانها الأسود الرقيق الذى صبغه

دخان المدينة بالحمرة ، كما كانت تحب أن تستند الى السور ثم تشرف على خور نهر السين الضيق وهو يطوى مياهه الكَدِرة ، وتمتص كابة النهر بين ضفتيه المنخفضتين المجردتين من أشجار الصفصاف والزان .

وكانت الكواكب قد أخذت إذ ذاك تتألّق فى قبة السماء ، فقالت :

— يقولون انها تبدو كأنما الرياح على وشك أن تطفئها !

فقال انها تسطع ببهاء ، فلا يرى فى ذلك ما يؤذن بهطول المطر ، خلافاً لما يزعمه الفلاحون ، وعلى الضد من ذلك قد لاحظ فى تسع مرات من عشر أن تلألؤ النجوم بشرى بين يدى جو جميل .

وحين اقتربا من « پتى پون » وجدت الى يمينها محالّ بائعى الحديد العتيق (الخردة) . تضيئها مصابيح يتصاعد من ذبالاتها الدخان . فخفت اليها تحدق فى تراب المعروضات وصدأها وقد تنبه فيها ميلُها الفطرى الى الاستطلاع ، ودارت حول زاوية الطريق وتقدمت الى محل منها مائل السقف معلق على روافده القوية خرق قاتمة الالوان ووراءَ زجاج النوافذ القذر كانت تُرى على ضوء شمعة أوان وأوعية من خزف ، وصفارة ، واكليل عروس ، وغير ذلك

فلم يفهم معنى لتلذذها بالنظر الى تلك الأشياء وحذرها بقوله :

— ستغشاك الهوام والديدان ، فماذا عسى أن يَلذّكِ هنا ؟

٨٩١٣

فأجابته :

— يلذّ لى كل شىء ! انى أفكر فى العروس المسكينة التى هناك اكليلها ، فيخيـل إلىّ كأن مأدبة العرس كانت فى « پورت مايّو » وانه كان يسير فى موكبها أحد حراس الجمهورية الذين يكادون يوجدون دائمًا فى الأفراح التى يراها الانسان يوم السبت فى الغابة ، أفلا تعجب يا صديقى بتلك الخلائق الشقية المحقَّرة التى تندمج بدورها فى جلال القِدَم ! ؟

وعثرت بين الفناجين المشققة على مدية صغيرة ذات يد من عاج منقوش على شكل امرأة طويلة نحيلة معقوصة الشعر فاشترتها بثمن بخس ، وكان أخص ما أعجبها من هـذه المدية ان عندها « الشوكة » التى تماثلها ، فاعترف لومنيل انه لا يفهم لجمع التحف معنى بالرغم من ان عمته « السيدة دى لانوا » كانت خبيرة بها ، وكانت موضع أحاديث بائعى العاديات بمدينة « كان » . وقد رمّت وأثثت قصرها على الطراز القـديم . وكان أخوها قد جمع فيه كتبًا نادرة فأرادت العمة « دى لانوا » ان ترتبهـا ، بيد أنها وجدت بعضها زهيد القيمة وفيه صور مستهجنة فأحرقتها . . .

فقالت « تريز » :

— لا بد اذاً من أن تكون عمتك هذه مغفلة !

وكانت قد سئمت منذ بعيد حكاياته عن « مدام دى لانوا »

عمته تلك . وكانت لصاحبهـا أم وأخوات وعمات وأسرة كبيرة تقطن الريف تغتاظ منها وان كانت لا تعرفها ، وتعود هو أن يتحدث عن أسرته هـذه وكان ذلك مما يضجرها ويكدرها ، وكاد ينفد صبرها من تعـدد زياراته لأسرته التى كان يرجع من عندها — كما خيل اليها — ذا رائحـة عفنة وافكار ضيقة ومشاعر تجرّحها . وكان من جهته يدهش بسذاجة ويتألم من تلك الكراهية .

فلزم الصمت ، واذا به يرى حانة يشتعل زجاج نوافذها من خلال قضبانهـا ، فتذكر الشاعر « شولت » الذى يعد من أهل الكاس والطاس .

فسأل « تريز » بشىء من الموجدة ألا تزال تلقى « شولت » هذا الذى كان من عادته أن يزورها وهو ملتف بمعطفه «ذى الحرملة» وعلى أذنيه كوفته الحمراء ! ؟

فأثار غضبها كلامه عن الشاعر على طريقة الجنرال «لاريفيير» ولم تعترف له بأنهـا لم تره من الخريف ، فقد أهملها غير مبالٍ شأن الرجل الكثير الأعمال المتقلب الأهواء الذى ليس من بيئتها . فقالت :

— انه فطن غريب الطبـاع ، مبتكر حلو الفكاهة ، وتالله انه ليعجبني !

فلما لامها على أن يكون لها مثل هذا الذوق الشاذ ، ردت عليه محتدة قائلة :

— ليس لى ذوق وانما لى أذواق ! ولست تلومها أو تذمها كلها . . على ما أعتقد ! . . .

فقال ، انه ليس ثمة ملامة أو مذمة . وكل ما هنالك انه يخشى أن تسيء الى نفسها باستقبالها فى دارها نوريًا فى الخمسين من عمره ليست له منزلة فى أى بيت كريم .

فصاحت عجبًا :

— من تعنى ؟ اليست « لشولت » مكانة فى أى بيت كريم ؟ فأنت اذاً تجهل انه يمضى من كل عام شهراً فى ضيافة المركيزة « دى ريو » . . بلى ! المركيزة « دى ريو » الكاثوليكية الملكية ، او كما تدعو نفسها : « العجوز العضو فى حزب الملك » !

اما و « شولت » يهمك فاسمع آخر أنبائه . وسأرويها لك كما رواها لى « پول ڤانس » بنصّها ، فان فهمى لها يزيد فى هذا الشارع الذى توجد بنوافذه القمصان المنَشَّرَة وأصص الورد المرصَّصَة !

« فى ليلة ماطرة من ليالى هذا الشتاء ، دخل « شولت » حانة فى شارع غاب عنى اسمه ، وان كان لا بد أن يشبه هذا الشارع فى بؤسه . فلقى فتاة شقية يطاردها غلمان الحانة ، فهام بها حبًا ، لانكسارها ، وكانت تدعى « ماريا » ، وكانت من الفاقة بحيث لم تملك حتى اسمها ، فقد وجدته مكتوبًا على باب الغرفة التى سكنتها فى سطح بيت فتسمّت به ! فتأثر « شولت » من فقرها المدقع وعارها الفاضح ،

فدعاها أخته وجعل يقبل يديها ، ومنذ ذلك الحين لم يفارقها قط ، وكان يأخذها معه حاسرة ، وعلى كتفيها شال ، الى قهوات « الحى اللاتينى » حيث يطالع أغنياء الطلبة المجلات ، ويظل يناجيها بأرق الأحاديث وأعذبها ، ويبكى فتبكى ، ثم يشربان . . فاذا سكرا تشاجرا ، وهو يهواها ويدعوها : « الفضلى » ، ويقول انها صليبه وسلامه وخلاصه ، وكانت عارية القدمين فأعطاها شيئًا من الصوف الثخين وإبرة لتحيك لنفسها جوارب ، وأصلح بنفسه حذاء البنيَّة المسكينة بالمآبر الكبيرة ، وأخذ يعلمها الشعر الذى يسهل عليها تناوله ، وكان يخشى أن يشوه جمالها الأدبى بابعادها عن العار الذى تعيش فيه ببساطة تامة وفاقة جديرة بالاعجاب .

فهزَّ « لومنيل » كتفيه قائلاً :

— لكن «شولت» هذا رجل معتوه ، وانها لحكايات بديعة تلك التى يقصها عليك ذلك المسيو « پول ڤانس » ! نعم انى لست من المحافظين او المتنسكين ، ولكن هناك بذاءات أعافها وأشمئز منها .

وكانا يسيران اعتسافًا . وهى مستغرقة فى تأملاتها ، فقالت :

— اجل ! انى أعرف الخُلق والواجب . ولكن ما أصعب تَعَرُّفَ ماهية الواجب ! وأؤكد لك اننى فى الغالب لا أعرف أين الواجب حقًا . فهو مثل قُنْفُذ مربيتنا الانكليزية فى «جوانفيل» .

كنا نمضى سواد المساء فى البحث عنه تحت الاثاث ، فاذا ظفرنا به كان وقت النوم قد حان ! . .

وكان يرى فى هذا القول من الصواب اكثر مما ترى ، وطالما فكر فى ذلك على حدة ، فقال لها :

— ولهذا أتأسف أحيانًا على أن غادرت الجيش . اننى اعي ما تريدين أن تقولى . تريدين أن تقولى أن الانسان ينحط فى الجندية ، وهذا لا شك فيه ، ولكنه يعرف ما يجب عليه عمله ، وهذا كثير فى الحياة .

ثم طفق يحدثها عن عمه الجنرال « لابريش » ، وعن مجده وشرفه ، ورفاهية عيشه و . . . و . .

فكفت عن الاصغاء له ، وتوجهت ببصرها الى زاوية شارع « جالون » حيث كانت امرأة تبيع بطاطسًا مقليًا وهى معتزلة وراء لوح من الزجاج ، وقد أحيط وجهها بالظل وسطع عليه وهج النار ، وكانت تغمس مغرفتها فيما تقليه وتخرج مما تعدّه مثل الأهلة الذهبية تملأ بها قرطاسًا من ورق أصفر ، على حين كانت فتاة خمرية اللون ترقبها عن كثب بانتباه ، وقد مدت لها يدها الحمراء بقطعة من النقد . فلما انصرفت الفتاة حاملة قرطاسها تحركت شهية « تريز » وشعرت بالجوع وأصرت على أن تتذوق البطاطس المقلى ، فاعترض بادئًا بقوله :

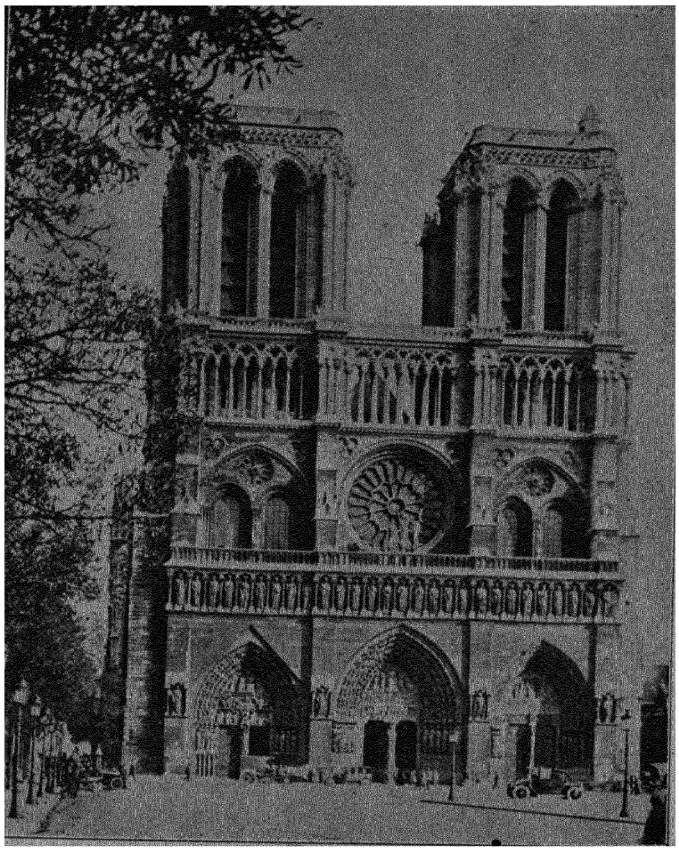

(كنيسة نوتردام دي باري)

— إنا لا نعرف بماذا يُقلى .

لكنه التزم آخراً أن يطلب من البائعة قرطاساً و يسألها ان تَذُرَّ عليه من الملح شيئًا . وجعل يسير بها فى الأزقة المهملة المظلمة وهى تأكل الأهلة الصفراء رافعةً نقابها ، حتى ألفيا نفسيهما مرة ثانية على الرصيف ، ورأيا كتلة « الكتدرائية » السوداء قائمة وراء ساعد النهر الضيق . وكان القمر عاليًا فوق الكنيسة ، وقد غمر سقفها المائل باشعته الفضية ، فقالت :

— «نوتردام» ! انظر اليها ! انها ثقيلة كالفيل، دقيقة كالدويبة ! تنسلق اشعةُ القمر عليها ناظرة بخبائة النسناس اليها ! تلك الاشعة التى ليست كأشعة القمر الريفية بجوانفيل . وإن لى فى «جوانفيل» طريق المنبسط الممهود الذى تقع اشعة القمر على نهايته . وهى ليست هناك كل مساء . لكنها تعود باخلاص ومودة واستئناس ومحبة ، وقد زهت وأبدرت واحمرت وتعسجدت . انها جارة ريفية وسيدة من سيدات الناحية ! وانى لأذهب للقائها متأدبة متهيّبة شاعرة بالصداقة . لكنى لا أريد التعرف بهذه الأشعة القمرية الباريسية ولا مخالطتها ولا الاختلاف اليها ، فليست بالتى تليق صحبتها أو تشرّف مودتها . تُرى . . ماذا عساها رأت فى كل هذا الزمن الذى كانت تحتكُّ فيه بالسطوح وتُشْرِفُ على ما تحت السقوف ! . .

فابتسم ابتسامة رقيقة ، وقال :

– آهٍ لذلك الممشى الصغير ، ممشاك الذى اعتدت السير فيه وحدك ، والذى قلت انك تحبينه ، انى أراه الآن كما لو كنتُ هناك...

وكان أبوها « مونتسوى » قد دعاه الى الصيد فى قصر «چوانفيل» ، فرآها إذ ذاك لاول مرة فأحبها لأول نظرة ، ومالبث ان تشهاها . . وكان ذلك فى ذات مساء ، فى طرف الغابة الصغيرة ، فقد باح لها بهواه ، فصغت اليه ساكنة صامتة ، حزينة البسمة ، حائرة النظرة . . .

وقد أثرت فيه وهاجته ذكرى ذلك الممشى الصغير الذى كان من عادتها السير فيه وحدها ، فى تلك الليالى ، ليالى الخريف . . وأعاد الى ذهنه خيال الساعات الخلاّبة الساحرة ، ساعات النزعات الجزِعة والرغبات الباكرة ، فبحث عن يدها فى فراء يدها ، وضغط من تحت الفراء على رسغها الرقيق . .

ثم التقيا وفتاة تبيع زهر البنفسج على سل مغطًّى بأغصان الصنوبر الورِقة ، وكأن هذه البنيَّة أدركت انها منهما بإزاء عاشقين ، فقدمت اليهما أزهارها ، فاشترى طاقة وقدمها الى « تريز » وكانت تسير متجهة الى « الكاتدرائية » تنظر اليها وتقول فى نفسها :

– لعمرى انها كأسد غضنفر ، كحيوان جبار ، كوحش رؤيا يوحنا . . .

وعلى الطرف الآخر من الجسر قابلتهما بائعة زهور أخرى ، وكانت متغضّنة ملتحية شمطاء قذرة ، فتبعتهما بسلتها الممتلئة بالمستحية وورد « نيس » . وكانت « تريز » فى تلك اللحظة ممسكة بيدها بنفسجاتها تحاول تثبيتها فى خصرها ، فأجابت العجوز ببشر :

— شكراً لك ، حسبى ما معى !

فردت عليها العجوز بشراسة ، وهى تتحول عنها ، قائلة :

— حسبك مامعك !؟ انك لتبدين غضة الاهاب ، نضرة الشباب!

ففطنت « تريز » فى الحال الى مقصدها ، ومرّت بسمة خفيفة بشفتيها وعينيها ، ومضيا فى ظلام ساحة «الكتدرائية » أمام التماثيل الحجرية المصفوفة فى الكوى ، وعلى رءوسها التيجان ، وفى يد كل منها صولجان ، فقالت :

— لندخل !

ولم يكن يرغب فى ذلك ، اذ كان يحس وهو يدخل معها الكنائس ضيقاً شديداً لا يعرف مأتاه ، وكان يستشعر الخوف أحياناً ، فقال انها موصدة . وانما حسب ذلك وود لو صح حسبانه ، فدفعت الباب وانسلت الى صحن الكنيسة المهول ، وكانت أخيلة الشموع تتحرك فى أواخره أمام أشباح الرهبان ، وآهات الأرغن الأخيرة تذهب متماحية .

فارتجفت فى ذلك السكون الموحش وقالت :

— ان كآبة الكنائس فى الليل تهيج مشاعرى وتثير ثائرتى دائمًا ، انها تُشعرنى روْعة الفناء وجلال العدم !

فأجاب :

— على أننا ينبغى لنا أن نؤمن بشىء ما . فاذا لم يكن إلهٌ ، وكانت أرواحنا غير خالدة ، فلشد ما يكون هذا أمراً محزنًا كئيبًا !

فلبثت هنيهة ساكنة تحت سدول الظلام التى ارخاها القبو ، ثم قالت :

— أى صديقى المسكين ! انَّا لا ندرى كيف نفعل بهذه الحياة القصيرة ، أفتريد أنت حياة أخرى خالدة ؟ !

« ولقد زعمت لنا معاداً ثانيا ما كان أغنانا عن الحالين ! [1] »

* * *

استقلاَّ عربة إلى البيت . وبينا كانت العربة تسير بهما قال لها منشرحًا انه قد استمتع بيوم هنىء ، ثم قبلها راضيًا عنها وعن نفسه ! بيد أنها لم تشاركه فى بشاشته ، وكان ذٰلك بينهما أمراً عاديًا . فكانت اللحظات الأخيرة التى يمضيانها معًا عَكِرَة لأنها كانت تتسلّف الشعور بأنه لن يودعها بكلمة مناسبة ، فكان تركه إياها

---

(١) لابى العلاء المعرّى غفر الله له !

عادةً مباغتًا مبتوراً ، كأن كل شيء من جهته قد انقضى . وفى كل مرة يفترقان فيها كانت تشعر شعوراً مبهماً بأنه فراق لا لقاء بعده . وكانت تتألم من ذلك سلفًا وتضيق نفسًا .

فتناول يدها وقبلها قبلات متكررة قصيرة ، وقال :

— أليس يندر وجود حب كحبنا « يا تريز » ؟

— يندر ؟ لست أدرى ! . . لكننى أعتقد أنك تحبنى

— وأنت ؟

— أيضًا أحبك . .

— وهل تثبتين على حبى ؟

— من يدرى !

ولما رأت أن قد أظلت وجه صاحبها سحابة قالت :

— أتكون أسعد حالاً وأهنأ بالاً مع امرأة تقسم على ألاّ تحب مدى الحياة سواك ؟

فلبث قلقًا تجلله الهموم . ففطنت ، وتلطفت ، وطمأنته بقولها :

— تعرف ياصديقى اننى لست بالمرأة النزقة . لست بالطائشة كالأميرة « سنيافين »

ثم ودعها وودعته . وكان قد استبقى العربة لتوصله الى شارع « رويّال » ليتغدي في النادى ثم يذهب الى الملعب .

ورجعت « تريز » الى البيت راجلة ، وإذ رأت تل

« تروكاديرو » قائمًا متلألئًا كحلى من الماس ، ذكرت بائعة الزهر عند « پتى پونت » وقولها : « انك لتبدين غضة الاهاب نضرة الشباب ! » فان تلك الكلمات التى أُلقيت فى عصف الهواء وسواد الظلماء عادت الآن الى ذاكرتها ، لكنها لم تعد مداعبة ساخرة أو مباكتة فاجرة ، بل عادت قلقًا وحزنًا ونذيراً ... « انك لتبدين غضة الاهاب نضرة الشباب ! »

اجل ! انها كانت فتيّة ، وكانت محبوبة .. ولكنها على ذلك كانت تشعر بسآمة وضجر ، وكانت تغشاها الهموم الطوارق !

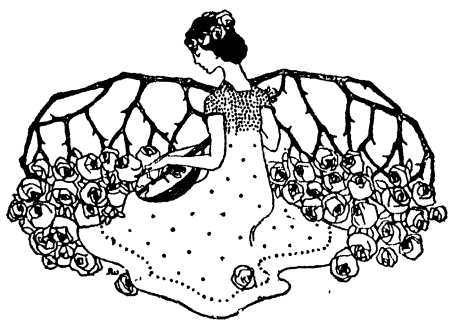

٣

فى وسط المائدة سلة ملأى بالزهر ، على حافتهـا بين اشكال النجوم والنحل بسطت نسور اجنحتها تحت مقابض من القرون الذهبية . وعلى جوانب السلة تسند هذه النسور — شعارُ الفوز — اغصانَ الثريات المنيرة . وهذا الوعاء الامبراطورى الفاخر كان قد أهداه نابليون فى عام ١٨١٢ الى الـكونت « مارتن دى لين » ، جد الـكونت « مارتن بليم » الحالى .

وكان «مارتن دى لين» هذا من اعضاء الجمعية التشريعية فعين فى السنة التالية عضواً فى اللجنـة المالية التى كانت مهمتها السرية الشاقة توافق طبيعته الحذرة المجدة . وقد حاز باجتهاده وامانته ، تلك الامانة التى كانت من التبصر بحيث لا تكون عقبة كؤودا ، اعجاب الامبراطور وان كان باصله وميله من حزب الاحرار ، فظلت المنن والنعم تتوالى عليه عامين . وفى عام ١٨١٣ كان عضواً فى تلك الاكثرية البرلمانية للتى اقرت — بعد فوات الاوان — تقرير المسيو « لانيبه » الذى وعظ الامبراطورية المزعزعة وعاب عليها ما ترتطم فيه من أخطاء .

وفى اول يناير من عام ١٨١٤ صحب زملاءه الى قصر التويلرى.

وهناك استقبلهم الامبراطور شر استقبال ، وتلقاهم بقذائف من الشتائم وهو محتد مكتئب ؛ فغمرهم باللعنات والاهانات بكل ما فى قوته الراهنة وسقوطه القريب الوقوع من غضب رائع .

وجعل يروح و يغدو بين وزرائه الأذلة ، ثم امسك — وكأنما وقع ذلك منه بدون تفكير — الكونت مارتن من كتفيه وهزّه وجرّه على الارض صائحًا : «عرش ؟ ما العرش ؟ أهو أربع قطع من الخشب مكسوة بالمخمل ؟ كلا ! العرش هو رجل ، وانا ذلكم الرجل ! أردتم ان ترمونى بالوحل ، فهل هذه هى اللحظة التى توجه فيها النصائح الىّ وتساق فيها الاعتراضات علىّ بينما مائتا الف من القوزاق يجتازون حدود البلاد ؟ ان صاحبكم هذا المسيو «لينيه» شخص خبيث . فالمرء يغسل ملابسه القذرة فى بيته لا على رءوس الاشهاد »

وفيما هو يبرق و يرعد و يزبد كانت يده تعبث بالطوق الموشّى الذى يدور حول عنق نائب ايالة « الاين »

ثم قال :

— ان الناس يعرفوننى ولا يعرفونكم . فانا مختار الأمة . وما أنتم إلا محض مندوبين مجهولين عن بعض الايالات

وصحب رنين مهماز يه ضوضاء صوته. فارتعد «الكونت مارتن» واصيب بالتلعثم بقية حياته. وعبثًا حاولت حكومتا يوليو والامبراطورية

الثانية تغطية صدره الخافق المضطرب بالاوسمة والنياشين . وعلى انه رفع الى اعلا الدرجات وغمر باسنى الهبات والقاب الشرف من ثلاثة ملوك وامبراطور ، لبث يحس يد الكورسيكى ثقيلة الوطأة على كتفه . . ! ومات وهو عضو فى مجلس الشيوخ على عهد نابليون الثالث تاركاً ابناً ورث عنه تلك الرعدة . . .

وقد تزوّج هذا الابن الآنسة « بليم » ، ابنة اول رئيس لبلاط « بورج » واحرز بزواجه بها مجداً سياسيًا كان لاسرة نبغ منها ثلاثة وزراء . وولد له منها « شارل مارتن بليم » ، الذى لم يجد صعوبة تذكر فى الحصول على مقعد بمجلس النواب . ثم ما لبث ان اقترن بالآنسة « تريز مونتسوى » (بطلة هذه القصة) التى كفلت له بائتها وسائل التقدم فى حلبة السياسة .

* * *

جعل الكونت « مارتن بليم » يحيي المدعوين على مائدته فى قاعة الطعام بشىء من اللطف الحزين والادب المكتئب ، وكان من حين الى حين يلتفت يمنة فيفضى بملاحظات تافهة الى « السيدة جران » زوج حافظ الاختام السابق ، ثم يلتفت يسرة الى الاميرة « سينافين » التى كانت مثقلة بالجوهر والماس مثلما هى مثقلة بالضجر وضيق الانفاس !

وجلست قبالته قرينته « الكونتيس مارتن » ، والى يمينها

« الجنرال لاريفيير » ، والى يسارها مسيو « شمل » عضو المجمع الأثرى . وكانت تروّح ترويحًا هيّنًا على كتفيها المسبوكين الناعمين الناصعين . . .

وعلى جانبى المائدة كان يجلس مسيو « مونتسوى » ابوها يتخايل بقوته وفتوته وزرقة عينيه وحمرة بشرته ؛ والمصور « دوفيكيه » ومسيو « دانيال سالمون » ، و « پول ڤانس » ، والنائب « جرين » . . ثم « دى شارتر » (بطل هذه القصة) وكان يتعشى فى ذلك البيت للمرة الأولى .

وبدأ الحديث سطحيًا مقتضبًا ، ولكنه جعل ينشط ويزداد حتى صار لجبًا تسلط عليه صوت « جران » وهو يقول :

— كل فكرة زائغة خطرة . أن الخياليين يُحسبون مكفوفى الأذى ، وهذا خطأ ، لأنهم يرتكبون شراً كثيراً . فالخياليات التى هى فى الظاهر أقل ضرراً هى فى الواقع سيئة مؤذية تغرى المرء بأن يعاف الحقيقة . . .

فقال پول ڤانس :

— لكن ربما كانت الحقيقة البادية نفسها غير جميلة !

فاحتج المسيو « جران » حافظ الاختام السابق بأنه رجل الاصلاحات الممكنة جميعًا ، دون ان يذكر انه كان قد طلب فى عهد الامبراطورية الغاء الجيش النظامى ، وفى سنة ١٨٨٠ فَصْل الكنيسة

عن الحكومة. وأعلن انه مخلص لبرنامجه فان يزال خادم الديموقراطية المتفانى . ويدعى ان شعاره : « النظام والترقى » ويخيل اليه انه استكشفه .

فأجابه « مونتسوى » باسلوب وخز الأبر :

— هلم يامسيو « جران » كن مخلصاً فاعترف انه لم يبق بعد من ضروب الاصلاح ما يمكن عمله إلاّ ان يكون ذلك تغيير ألوان طوابع البريد ! فالاشياء سواء أكانت جيدة أم رديئة هى كما يجب ان تكون .أجل ! أنها كما يجب ان تكون ! لكنها دائمةالتغير .ومنذ عام ١٨٧٠ وحالة المملكة من حيث صناعتها وماليتها قد مرت بار بعة أو خمسة انقلابات لم يسبق اليها نظر الاقتصاديين ولم يفهموها بعد ! فالتغييرات فى المجتمع ، كما فى الطبيعة ، تبدأ من الداخل .

وكان « مونتسوى » يعجب فى السياسة بما قل ودل . وكان لشدة تعلقه بالحاضر وقلة اهتمامه بالمستقبل لا يشعر بانزعاج من جهة الاشتراكيين . كان يستمتع بالطبيعة والثروة فى يومه من غير ان يتكلف عناء معرفة هل تبقيان الى الأبد أم يعفو من الوجود أثرهما ويذهب خبرهما . فكان من رأيه ان يترك المرء نفسه تدفعها يد القضاء والقدر فلا يقاوم التيار غير الأحمق ولا يسبقه غير المجنون ! . . .

لكن «الكونت مارتن» ، وكانت البكآبة من طبعه ، تسلّف

الشعور بالحزن فأشار بكلمات مبهمة الى قرب وقوع نكبات، فوصل حديث تطيّره الى مسامع «مسيو شمل» وأثّر فيه ، فبدأ يزمجر متأوهًا ويظن الظنون . . . وزعم ان الأمم المسيحية كانت فى ذاتها و بذاتها غير أهل للخلاص من الهمجية ، وانه لولا اليهود والعرب لكانت اوروبا اليوم لا تزال مغمورة فى لج من التعس والجهالة والظلم والقساوة كما كانت على عهد الحروب الصليبية

وقال :

— انه ليس فى غير دفاتر التاريخ ، التى تُعطى للصغار فى مدارسنا تضليلا لعقولهم ، القول بأن العصور الوسطى قد مضت وانقضت . ففى الواقع أن المتوحشين متوحشون دائمًا ابداً . وما كانت رسالة بنى اسرائيل الاّ لتهذيب الشعوب . فبنو اسرائيل هم الذين قد ادخلوا حكمة آسيا الى اوروبا فى القرون الوسطى ، وأرى الاشتراكية تزعجكم ، وما هى الا شراً مسيحيًا كالرهبنة سواء بسواء ! ثم الفوضى ؟ افلا تَرَوْنَ انها الجذام القديم الذى كان مصاباً به أهل « بجوا » و « ثودوا » ؟ ! وعندى أن اليهود الذين هذبوا أوربا ومدينوها من قبل ، هم وحدهم الذين يستطيعون اليوم انقاذها من تلك الدعوة الانجيلية الضارة المنشبة اظفارها فيها . بيد أن اليهود قد اهملوا أداء واجبهم واصبحوا بين المسيحيين من اتباع المسيح، فأخذ الله يعاقبهم على ذلك ويقتص منهم ، واباح أن يُنهبوا ويُبعدوا

وأخذت الحركة القائمة ضد الساميين تنجح فى كل مكان نجاحا مخوفا . وأصبح أهل ملتى يُصطادون فى روسيا كما تصاد الوحوش المفترسة . وأوصدت الدوائر المدنية والحربية فى فرنسا ابوابها فى وجوههم ؛ ولم يعد يُسمح لهم بغشيان مجتمعات الارستوقراطيين ، واليكم مثل ابن اخى الصغير « اسحاق كو بلنتز » فقد ارغم على التخلى عن وظيفة سياسية بعد ما اجتاز امتحاناته بنجاح باهر . وحين تزور زوجتى قرينات زملائى ينشرن على عينها وهن متباهيات الصحف التى تطعن فى أولاد سام . وهل تصدقون لو قلت لكم أن وزير المعارف أبى منحى وسام « اللجيون دونير » الذى سألته اياه ؟ ذلكم الجحود ! ذلكم الضلال ! فعليكم أن تدركوا أن فى مقاومة السامية فناء الحضارة الأوربية .

وكان فى المتكلم ، ذلك الرجل الضئيل ، حيوية ممتازة . كان عجيبًا رائعا فغمر المائدة بفيض اخلاصه وصراحته واثّر فى المدعوين كافة . ووجدت فيه « الكونتس مارتن » محدثا أطربها فأقبلت تثنى عليه قائلة :

— انك على الأقل تذب عن أهل ملتك ، فلست يامسيو « شمل » كاسرائيلية حسناء من صاحباتى قرأت مرة فى أحدى الصحف أنها تستقبل صفوة طائفتها فى دارها فراحت تشكو فى كل مكان من ان تلك مسبّة أُهينت بها !

— انى ياسيدتى على ثقة أنك غير مطلعة على سمو الآداب اليهودية وتفوقها على غيرها من الآداب كافة . أتعرفين مَثَلَ الخواتم الثلاثة ؟

فضاع هذا السؤال فى ضجة الحوار المختلف والأحاديث عن السياسة الخارجية ومعارض الصور والفضائح المستظرفة والخطب العلميـــة المقعّرة . واتجه الحوار الى آخر رواية ظهرت كما اتجه الى الرواية التمثيلية التى كانت على وشك الظهور .وكانت مهزلة فيها دور يمثل نابليون

فدار الحديث حول نابليون .وكان قد مثل مراراً على المسرح. وجُعل آخراً موضع الدرس فى مؤلفات واسعة الانتشار ، إذ كان يبدو موضوعًا شاذاً يثير الفضول ، وخلقًا عاديًا فلم يعد بطل الجماهير ولا المحارب الذى الّهه وطنه نصف تأليه . لقد أصبح عند الناس شخصية خلاّبة ونوعًا مسليًا بحياتهِ الخاصة الداخلية ، تلك الشخصية التى يعجب الفنانون بأسلوبها ، و ينجذب المغفلون بحركاتها . . .

فحكم « جران » الذى أسس رأس ماله السياسى على كراهية الامبراطورية ان رد الفعل هذا فى الذوق الوطنى ليس إلاّ محض افتتان سخيف . وقال انه لا يُعْتَدُّ بخطره ولا خوف منه .

وفى هدوء وقسوةٍ ، لم ير فى نابليون اكثر من قائد جنود

مأجورة رفس العالم « ڤولنى » فى بطنه ، كما صوّره المؤرخ «تين» !!

فأراد كل مدعو الجهر برأيه فى حقيقة نابليون . فتكلم «الكونت مارتن» كلاماً لائقاً وهو جالس قبالة ذلك الوعاء الامبراطورى الذى يزين المائدة بالنسور المجنَّحة ، واصفاً نابليون بأنه منظم بارع ومدير حازم ، وقدره تقديراً عالياً باعتباره رئيساً للحكومة التى كلامه النور على مسائل غامضة فتبددت بكلامه الظلمات .

فاكد « جران » انه فى أثناء تلك الجلسات المشهورة كان نابليون يقول انه فى حاجة الى شىء من السعوط ، ويطلب من أعضاء المجلس علبهم الذهبية المرصّعة المحلاَّة بالميناء الحمراء ، فلا يرونها بعد ذلك قط ! وانتهى الأمر بهم الى ألاّ يحضروا المجلس إلاّ باكياس من الجلد ! وهذه الحكاية أخبره بها ابن « مونبيه » الكاتب السياسى الفرنسى نفسه .

أما ما كان يعجب « مونتسوى » فى نابليون فروح النظام التى كانت فيه ، قال

— كان يحب الشغل المحكم أداؤه . وهذا ذوق قل ان نجد له اليوم أثراً .

وكان المصور «دوڤيكيه»، وأفكاره أفكار مصور، شديد الحيرة والارتباك إذ تعذر عليه ان يجد ملامح ذلك الوجه القوى الجميل

المرسوم على المسكوكات والتماثيل النصفية ، فى ذلك القالب الذى اخذوا به وجه نابليون وهو مسجى على فراش الموت فى « سانت هيلانه » وعنده انه ما دام الوجه النابليونى ليس وجه « نابليون » ، فكذلك الروح النابليونية ليست روحه ! فلعلها كانت روح حضرى طيب القلب من الصالحين ! هذا ما زعمه بعضهم فاضطر ان يكون فى صفهم . وفضلاً عن ذلك «فان دوڤيكيه» — وكان يفخر بأنه مصور رجال العصر — يعرف عن تجربة ان مشهورى الرجال يختلفون اختلافاً بيناً عن فكرة الناس عنهم وتصورهم لهم

فلاحظ المسيو « دانيال سالمون » ان القناع الذى ذكره « دوڤيكيه » وهو القالب الذى أُخذت به تقاطيع وجه الامبراطور بعد موته واحضره الى أوربا الدكتور « انتوماركى » قد صنع اولاً من البرنز وعرض على الجمهور فى عهد « لويس فيليب » عام ١٨٣٣ ، فأثار الدهشة والأنكار . لأن هذا الايطالى « انتوماركى » لم يكن اكثر من عطّار دجّال ثرثار راغب فى الشهرة . فانّهم بالضحك من الجمهور واللعب بهِ بشعوذته .

فقالت الأميرة « سيناڤين » :

— حقيقة ان نابليون شهير كل الشهرة بشيئين : رفسته للعالم « ڤولنى » فى بطنه ، وسرقته علب النشوق المرصعة . وهو ما اخبرنا به الآن المسيو « جران » !

فقالت « الكونتيس مارتن » :

— وهل نحن موقنون انه رفس تلك الرفسة ؟

فاستطردت الأميرة فى قولها مبتهجة :

— إن كل شىء يُعرف على مضى الأيام . و« نابليون » لم يفعل شيئًا ، لم يرفس « ڤولنى » فى بطنه ، ولكن كان له رأس أبله ! !

فشعر الجنرال «لاريفيير» انه وجب ان يطلق هو أيضًا رصاصة فقال :

— لقد كانت حملة «نابليون» فى عام ١٨١٣ موضع انتقاد كثيرين

وكأن فكرة الجنرال صادفت هوى من نفس « جران » ولم تكن له فكرة سواها . فما لبث ان حاول بشىء من الجهد افراغها فى قالب حكم عام

فقال :

— لقد ارتكب « نابليون » أخطاء ، وما كان له وهو فى ذلك الأوج ان يرتكب أى خطأ !

ثم توقف فجأة وقد تضرّج وجهه بحمرة الخجل ، فسألت « الكونتس مارتن » :

— وما رأيك أنت يامسيو « ڤانس» فى « نابليون » ؟

فأجابها بقوله :

— أننى ياسيدتى لا أسيغ طعم السماجه المسلحة . وأقول لك بكل بساطة وصدق ان المحاربين فى رأيي مجانين خطرون . ومع هذا فشخصية الامبراطور تهمنى بقدر ما تهم الجمهور . ولقد الفيته على خلق كريم . وما من شعر أو قصة ذات حوادث ومخاطر تسوّى و « مذكراته » التى كتبها ، وان كان قد كتبها بطريقة مضحكة . أما وقد أردتم معرفة رأيي فى « نابليون » فاليكموه : أراه خلق للمجد وقد بدا فى البساطة الزاهية التى يبدو فيها أولئك الابطال الذين تُروى سيرهم فى الأشعار الحماسية . فالبطل يجب ان يكون إنسانًا ، وكان للانسانية من « نابليون » نصيب.

فقوبلت هذه الملاحظات بصيحات التعجب .

بيد أن « پول ڤانس » استطرد فى الكلام فقال :

— وكان حاد الطبع ، خفيفه ، انسانا الى حد بعيد . أعنى انه كان كسواه من الناس . فاشتهى التمتع بقوة لا حدَّ لها ، وهو ما يعتز به ويرغب فيه عامة الناس . وكان هو نفسه نهب أوهام وتخيلات تملكته فنفثها فى روع الجمهور . وهذه الاوهام هى التى

كوّنت قوته كما كوّنت ضعفه ، وكانت جماله وزينته ، فآمن بالمجد ، وكانت آراؤه فى الناس والحياة التمتع كآراء أيّ من رجاله ذوى القامات الطويلة رماة القذائف ! ! فظل محتفظا بتلك الرزانة الصبيانية التى كانت تفرح بصليل السيوف ودوي الطبول ، ذلك النوع من السذاجة الذى يصطنع الجنود الصالحين ويكوّنهم . وكان شديد الاجلال للقوة . وكان رجل الرجال وواحد الآحاد ! ولم يعن له قط خاطر الاّ وضعه موضع التنفيذ ، فكان التعبير عن الفكر عنده هو الفعل ، وما تحرك ذهنه حركة امرع من حركة يده ، تلك اليد الجميلة الصغيرة التى طحنت العالم ، وما اكترث ابد الدهر بشيء عجز عن تحقيقه .

— فأنت لا تراه اذاً بالغاً غاية الفطنة والزكانة ، وأراك وايای فى ذلك على وفاق !

فعاد « پول ڤانس » يقول :

— يقيناً ان له الزكانة التى لا بد منها للقيام بحركات بديعة فى ملعبى العالم المدنى والحربى ، بَيْدَ انه محروم مزية التصور ودقة التأمل . فتلك عبقرية أخرى . ولدينا مجموعة كتاباته وخطبه واقواله ، فأسلوبه رشيق ووصفى ، وما من اشارة واحدة فى مجموعة آرائه وخواطره الى أىّ غرام بالبحث الفلسفى أوافتتان بالتنقيب العلمى أو اهتمام

بالمجهول الخفى . كما انه ليس فيهـا أى تلميح الى أن الشغف بالـكشف عن سر القضاء والقدر يتملك فؤاده ، أو يشغل باله . ونراه حين يتكلم فى «سانت هيلانه» عن الله أوالروح يبدو كتلميذ صغير السن طيب القلب فى الرابعة عشرة من عمره ، وقد اندمج فى الـكيان العالمى متقبلا كل ما فيه ، وما من ذرة واحدة من ذرات روحه ضاعت فى المحيط اللانهائى . كان « نابليون » شاعراً لا يعرف من الشعر إلا الفعل ، فترامى خياله الى حد السيطرة على الارض . وفى حداثته الفاجعة آمن بأن الانسان قد تتاح له العظمة والسلطان ، فلم يستطع لا الزمان ولا طوارىء الحدثان ولا النوائب ولا المصائب ان تجرده من هـذا الوهم أو تسلبه ذلك الخيال . واستدام شبابه ، و بعبارة أخرى فتوّته السامية الى النهاية ، لأن كل أيام حياته كانت عاجزة عن ان تبلغه أشده نضوجًا واستواء ، قاصرة عن ان توصله الى سن الرشد دراية وادراكاً ، ومثل هذه هى الحال الشاذة التى عليها كل الرجال العمليين فهم يعيشون بكليتهم لزمنهم ، منحصرى القرائح فى فكرة واحدة ، متجددين على الدوام ، فى غير ماتقدم الى الامام . وليست ساعات حياتهم متصلة الواحدة منها بالأخرى بسلسلة من التبصر الرزين المنزّه عن الهوى . وكل ما فى الأمر ان حالة فيهم تعقب حالة فى حلقات من الاعمال والتصرّفات . وهكذا لا ترى لهم حياة داخلية ، وهذا الحرمان من الحياة الداخلية يلاحظ

بخاصة فى « نابليون » لما كان عليه من النزق ، ذلك النزق الذى مكنه من النهوض بعبء ارزائه واخطائه . وكانت روحه الجديدة أبداً تولد مع مطلع كل صباح . وكان ذا قدرة عجيبة على تسلية نفسه وادخال السرور عليها . وفى أول مرة وقعت عيناه على الشمس على صخرة « سانت هيلانه » الكئيبة المظلمة وثب من فراشه وهو يصفر لحناً . فكان ذلك برهان ان هدوء النفس وراحة البال مقدمان عنده على كل شىء ، كما كان ذلك دليلاً أشد نهوضاً على خفة عقل مسرع الى التجدد . لقد عاش «نابليون» آخذاً بالظواهر .

أما « جران » الذى لم يرتح كثيراً الى تلك الدورة الفكرية الحاذقة فقد أراد ان يختم الحوار و يستخرج مفاده ، فقال :

— وصفوة القول ان فى الرجل مَشَابِهَ من الغول ! . . .

فأجابه « بول ڤانس » :

— إن غيلان الإنس لا وجود لها ، و إذا فرضنا وجودها فيكفى ذلك فى ان تكون مبعثاً للرعب و « نابليون » كان محبوب أمة قائمة برأسها ، وكان منشأ قوته فى إشعال المحبة فى قلوب الرجال أينما حلّ وسار ، وكانت مسرة جنوده فى ان يبذلوا له المُهَجَ و يموتوا فداءه . . .

وودت « الكونتس مارتن » لو يبدى « دى شارتر » رأيه ، بيد انه بدا يتهيّب الكلام ، على حين ان « شمل » كان لا يزال

يتساءل أفى الحاضرين من يعرف مثَل الخواتم الثلاثة ؟؟ ذلك الوحى السامى الذى أُوحى الى يهودى برتغالى ؟!

وطَفِقَ « جران » يهنىء « پول ڤانس » بأحاجيه البديعة ، ويأسف على انه باسم الخُلُق والانصاف يلعب بالألباب هذا اللعب فقال :

— هناك مبدأ ثابت مقرر وهو ان أقدار الناس تقدر بأفعالهم .

فسألته الأميرة « سينافين » :

— وماذا عندك عن النساء ؟ أتقدرهن أيضًا بافعالهن ؟ وأنَّى لك ان تعرف ما يأتين وما يذرن ؟!

واختلطت الأصوات برنين الاطباق الذى كان كرنين الأجراس ، وسَخُن جو الغرفة وتشبَّع بالبخار . ونثرت الورود المتساقطة أوراقها على غطاء المائدة . وتضاربت الأفكار فى رؤوس هؤلاء المجتمعين .

وسبح « الجنرال لاريڤيير » فى أفق من أحلام المستقبل ، وحدّث جاره عنها فقال :

— عند ما تتحقق ، اذهب فاعيش فى مدينة « تور » حيث أغرس الزهور . . .

وحدث عن نفسه متخايلاً انه بستانى ماهر ، وقد سميت وردة باسمه ، وهو بذلك فخور .

وكان «شمل» لا يزال يسأل أيعرف أحد مَثَل الخواتم الثلاثة ؟ وكانت الأميرة « سنيافين » فى تلك الاثناء تكايد النائب « جران » بقولها :

— ألا تعرف يامسيو « جران » ان الناس يعملون ما يعملون لاسباب متغايرة كل التغاير ؟

فقال « مونتسوى » أنها على تمام الصواب :

— هو ياسيدتى ما تقولين . وهذه الفكرة تدهش الانسان وبخاصة فى طور من أطوار حياة « دون چوان » ، ذلك الطور الذى يبين كيف ان الفاتن الكبير أضاع وقته مع ثلاث نساء ، كانت أحداهن حضرية تحب زوجها ، والثانية راهبة أبت النكث بعهدها ، والثالثة امرأة قضت حياة طويلة فى الأثم فتشوّهت وأصبحت خادماً فى نُزُل وبعد العيشة التى عاشتها وبعد ما رأته أصبح الحب عندها نافلة . وكان هؤلاء النسوة الثلاث سواسية فى مسلكهن وإن كان ذلك لأسباب مختلفة . فعمل واحد من أعمال المرء قد لا يدل على شىء ، ولكن جماع الاعمال ووزنها هو الذى يكوّن قدر انسان .

فقالت « الكونتس مارتن » :

— ما أشبه بعض فعالنا بنا ، فانها تكاد تماثلنا فى هيئاتنا وسحننا ، وتبلغ ان تكون من بناتنا ، كما ان من أعمالنا ما لا شبه بيننا وبينه .

ونهضت فأخذت بذراع الجنرال . وسار « جران » بالأميرة الى الصالون ، وهى تقول :

— ان « تريز » على حق . إن فِعالاً من فعالنا لا شبه بينها وبيننا ، فهى كزنجيات صغيرات نحمل بهن ونلدهن أثناء نومنا !

وكانت بنات الغاب المصوّرات على طنافس الجدران ، ذوات الحسن الذابل ، يلقين البسمات على المدعوين الذين مروا بهن بلا انتباه . . .

وصبَّت « الكونتس مارتن » القهوة ، وأثنت على « پول ڤانس » وهنأته بحديثه على المائدة ، فقالت :

— لقد حدّثت عن « نابليون » بصراحة وحرية فكر نادرين بيننا . وكثيراً ما لاحظت ان « نابليون » فى مساء معركة « ووترلو » يشبه ان يكون طفلاً غريراً عابساً ! ولقدجعلتنى أشعر بأقوى اسباب هذا التشابه .

ثم بدا لها فالتفتت الى « دى شارتر » . وقالت :

— وأنت ، أفتحب « نابليون » ؟

— إننى ياسيدتى لا أحب الثورة ، و « نابليون » هو الثورة المدجّجة بالسلاح .

— ولِمَ لَمْ تقل ذلك على المائدة يامسيو «دى شارتر ؟» أنني أراك تأبى ان تعلن للناس حذاقتك ، وهم لا يكادون يرونها إلا لماماً ..

سار « الكونت مارتن بليم » بالمدعوين الى قاعة التدخين وبقى « پول ڤانس » وحده مع السيدات. فسألته الأميرة « سينافين » هل أتم روايته وما موضوعها ؟ فقال أنها بحث ومحاولة للوقوف على الحقيقة بايراد سلسلة منطقية من الظواهر تنتهى الى حجة بيّنة :

— وبمثل هذه الطريقة تكتسب القصة قوة أدبية لا يمكن تفاصيل التاريخ التافهة الثقيلة الجامدة ان تؤديها قط .

فسألته :

— أتصنع كتابك هذا للنساء ؟

فأجاب سلبًا . فقالت :

— انك تخطىء يامسيو « ڤانس » إذ لا تكتب للنساء ، وذلك كل ما يستطيع نابه مثلك ان يصنعه من أجلهن !

ولما أراد ان يعرف كيف عنت لها هذه الفكرة ، قالت :

— لأننى لاحظت ان الذكيات من النساء يتزوجن من أغبياء الرجال ! . .

— الذين يضايقونهن ؟

— بكل تأكيد ! لكن النابهين كذلك يضايقونهن اكثر !

— لأنهم أقدر !

— ولكن حدّثنى عن قصتك !

— أأنت مصرّة على ذلك ؟

— لا أعرف الإصرار !

— لا بأس ! هاك موضوع قصتى : إنه حكاية أخلاق الطبقة الدنيا وطباعها ، بطلها عامل شاب ، قانع بالكفاف ، طاهر الذيل ، حيى كأنه عذراء ، نقاش متقن صناعته ، يدرس ليلاً فى البيت مع أمه وهو شديد التعلق بها ، يقرأ الكتب فتثبت الآراء فى ذهنه الساذج كما يثبت النقش فى الحجر ، وهو قليل الرغبات إذ لا تربطه بالحياة الصلات التى تربطنا بها من عواطف ونقائص . يعيش فى عزلة تقية وقد وهب فضائل عظيمة يفخر بها . يعيش بين الاشقياء والبؤساء ، فيراهم يألمون ، فيترفّق بهم ويشفق عليهم ، إذ كان شفيقاً رفيقاً وان كان لا يكون انساناً لانه لم يكن شهوانياً قط

— آه ! أفلا بد ان يكون الانسان شهوانياً ؟

— يقيناً ياسيدتى ! ان الانسانية كامنة فى صميم قلب الانسان ، ولكن الرفق يبدو على جوارحه وهو الى الحركة اسرع والى الظهور أقرب . وهذا الشاب ليس من التميز بحيث يشكّ ، فسرعان ما يصدق ما يُلقى اليه لأنه ساذج غر ، يصدق مايقرأه بلا مناقشة ، وقد قرأ ان السعادة العامة تقوم بأبادة المجتمع ، فأصبح يظمأ للاستشهاد . وفى ذات صباح ، يعانق أمه ويخرج ، ويبقى متربصاً للعضو الاشتراكى الذى يقطن حيه ، فاذا رآه انقضّ عليه واغمد فى بطنه الآلة التى ينقش بها ، صائحاً : « لتحيا الفوضوية ! » فيقبض

عليه ، ويقاس طوله وعرضه ، وتنقل صورته ، ويسأل ، ويحاكم ، ويساق الى الموت ، ويقطع عنقه . تلك روايتى !

فقالت الأميرة :

— فى رأيى أنها لن تكون لذيذة جداً ، لكن ليس الذنب ذنبك ، فان فوضو بيك خجلون معتدلون كغيرهم من الفرنسيين ، أما أهل روسيا فاذا مضوا فى الفوضوية كانوا أشدجسارة واحرزوا قصب السبق !

عند ذلك أقبلت « الكونتس مارتن » تسأل « بول ڤانس » هل يعرف ذلك السيداللطيف الذى لم ينبس ببنت شفة وكان ينظر اليه أثناء حديثه حائراً حيرة الكلب الضال ، فان زوجها قد دعاه وهى لا تعرف من أمره شيئاً .

فقال « بول ڤانس » ان كل ما يعرفه عنه انه عضو مجلس الشيوخ ، وقد رآه مرة فى «لوكسمبورج» فى قاعة الصور ، ثم قال :

— وكنت إذ ذاك واقفاً أنظر الى القبة المرسومة بريشة « دى لاكروا » بما فيها من أبطال القدماء وحكمائهم ، وكان الرجل متدثراً بشكل يبعث الاشفاق ، ومن قبله تنبعث رائحة كالتى تنبعث من الثياب المبللة . وكان يتحدث الى بعض زملائه الشيوخ قائلا وهو يفرك يديه : « عندى ان ما يدل على ان الجمهورية خير أنواع الحكومات هو أنها فى عام ١٨٧١ وفى اسبوع

واحد قد قتلت رميًا بالرصاص ستين الفًا من المتمردين من غير ان تثير استياء الناس منها . ومثل هذه الشدة كانت قمينة بتدمير أية حكومة عداها »

فقالت « الكونتس » :

— إذن هو رجل من الخبـاثة بمكان على حين أنى كنت أرثى له لحيائه وجبانته .

وكانت السيدة « جران » قد القت ذقنها برفق على صدرها ونامت هانئة . وكانت روحها الوديعة تحلم بحديقة مطبخها على شاطىء نهر اللوار حيث اعتادت جمعيات المرتلين المجيء لتقديم فروض الاحترام لها .

وخرج من قاعة التدخين « جوزيف شمل » و « الجنرال لاريفيير » ، وما زالا مرتاحين الى الموضوعات غير الأدبية التى كانا يتحاوران فى صددها ، وجلس الجنرال بجانب الأميرة « سينافين » و « الكونتس مارتن » ، وقال :

— قابلت في هذا الصباح « البارونه واربورج » فى الغابة ، وكانت ممتطية صهوة جواد كريم ، فسألتنى انَّى لى ان احصل على مثل هذه الخيل الأصيلة ، فأجبتها : «لكيما يملك المرء خيلا كريمة ياسيدتى إما ان يكون طائل الغنى ، وإما ان يكون واسع الحيلة »

وكان الجنرال مسروراً بهـذا الرد المفحم الى حد انه كرره

مرتين ، فى طرفة عين . وجاء « پول ڤانس » الى الكونتس يقول:

— عرفت اسم عضو مجلس الأعيان ، انه يدعى « لوييه » وكان رئيساً سابقاً لأحدى الجماعات ، وهو مؤلف كتاب فى الدعاية اسمه « جناية ثانى ديسمبر » .

واسترسل الجنرال قائلا :

— لقد كان يوماً عصيباً مضيت فيه الى مخبأ حيث لقيت « لومنيل » وكان الجو رديئاً . فرأيته يضحك منى لأعتقاده انه لأنى جنرال ينبغى لى ان أحب البَرْد والبَرَد والهواء والأنواء ، لكن هذه سخافة . وقد قال لى انه لا تهمه رداءة الجو فهو مسافر فى الاسبوع القادم للصيد والقنص مع جماعة من صحبه .

وساد سكوت . وعاد الجنرال يقول :

—أتمنى ان يمتع نفسه ، على أننى لا أغبطه ، فليس صيد الثعلب بالشىء الذى يسر .

فقال « مونتسوى » :

— بيد انه شىء ينفع .

فهز الجنرال كتفيه قائلاً :

— ان الثعلب لا يزعج حظيرة الدجاج إلا فى الربيع وهو يغذى جِرَاءه .

فأجاب « مونتسوى » :

— إن الثعلب يؤثر مطاردة الأرنب على مهاجمة حظيرة الطيور ، وهو سرّاق صيد ، يؤذى القنّاص اكثر مما يؤذى الفلاح .

وبدا على « تريز » أنها مشرّدة اللب . . ولم تكن صاغية الى الأميرة عند ما وجهت اليها الكلام . إذ كانت مستغرقة فى تأملاتها تقول فى نفسها :

— انه لم يخبرنى حتى بأنه مسافر . . .

فسألتها الأميرة :

— فيم تفكرين ياعزيزتى ؟

فأجابت :

— فيما لا يهم !

٤

كانت الغرفة الصغيرة مظلمة ساكنة ، وقد غصّت بالسجوف والستائر والوسائد وفراء الدببة والطنافس الشرقية التى أخفتت كل صوت . وكان ضوء النار ينعكس على صفحات السيوف فتتألّق على ورق الجدران . وهناك ، فوق مشجب مصنوع من خشب الورد ، كأس فضية جائزة من أحد أندية الرياضة البدنية . وعلى المنضدة الصغيرة المصنوعة من الصينى الملون وُضع إناء من بلّورى على شكل قرن وقد ملىء زنبقًا ابيض . وكانت الأضواء البرّاقة الساطعة فى كل مكان تخفق فى قلب الظلام الحار . وهناك « تريز » و « روبير » وقد الفت عيونهما الظلمة فأخذا يتنقلان بسهولة فى ذلك المحيط المألوف ، وأشعل سيكاراً بينما كانت تصلح شعرها وهى واقفة مستدبرة المصطلى أمام المرآة التى كانت لا تكاد تستطيع ان ترى نفسها فيها إلاّ بجهد. لكنها كانت تؤثر الاّ يكون ثمّ مصباح أو شمع. ولثلاث سنوات خلت تعودت ان تتناول دبابيس شعرها من الكأس الصغيرة المصنوعة من بلور « بوهيميا » الموضوعة على المنضدة فى متناول يدها .

فراقبها وهى تتخلل بأصابعها الخفيفة كالتور شعرَها الذى تساقط

غدائرَ من الذهب الوهّاج . وبدت على محياها الذى كسبه الظلُ صلابةً وسمرةً ، دلالةُ غامضة مبهمة كادت تكون مخيفة منذرة .

وظلت صامتة . فقال لها :

— لقد زال غضبك ، أليس كذلك ياحبيبتى ؟

ولما استعجلها الرد ، وأرادها على ان تقول شيئًا ما ، قالت :

— وماذا تريدنى على ان أقول أيها العزيز ؟ أننى لا استطيع غير ترديد ما أخبرتك به ساعة وصلت . إنى اعجب من ان تصل الىّ أنباء تدابيرك على لسان الجنرال « لاريفيير » .

وكان يعرف جيداً أنها لا تزال واجدة عليه ، وأنها صُلْبة الرأى لا تلين لها قناة ، وليس فيها اليوم شىء من ذلك الخضوع الذى يجعلها عادة موفورة الملاحة .. لكنه تظاهر بأن سحابة كدرها كادت تقشّع ، فقال :

— لقد فرغت ياعزيزتى من ايضاح الأمر لك ، فأقول واكرر أننى حين قابلت «لاريفيير » كنت تلقيت لساعتى رسالة من صديق « كومون » يذكرنى فيها بوعدى بصيد الثعلب فى الغاب ، فأجبت عنها برجع البريد ، وكنت معتزمًا اخبارك اليوم بذلك ، وإنى آسف لأن « الجنرال لاريفيير » سبقنى ، لكن في الحقيقة انْ ليس لهذا شأن ما .

فالتفتت اليه و يداها مشتبكتان على رأسها ونظرت اليه نظرة بتمعّن وهدوء لم يفهمها ، وقالت :

— اذاً فأنت مسافر ؟

— نعم ، يوم الثلاثاء أو الاربعاء من الاسبوع القادم ، لأتغيّب عشرة أيام على الاكثر .

فقالت وهى تلبس قبعتها المصنوعة من الفرو المزدانة بغصن من النبات :

— أراها مسألة لا تقبل تأخيراً ؟!

— لا ! ففراء الثعلب لن تساوى بعد شهر شيئًا . فضلاً عن ان صديقى « كومون » قد دعا الى الصيد معنا بعض اصحابنا الذين يبلغ منهم غيابى .

فزوت ما بين عينيها ، وهى تغمد دبوساً فى قبعتها ، وقالت :

— وهل تعد رحلتك للصيد هذه شائقة جداً ؟

— اكثر مما تقدرين ! لأن الثعلب رَوّاغ يأتى من الحيل بألوان شتّى ، كلها يجب ان تُقاوم . وذكاء هذا الحيوان خارق . وكم راقبت الثعالب تتصيد الأرانب ليلاً وقد نظمت خطوط هجومها تنظيماً عجيباً ! وأؤكد لك انْ ليس من السهل إخراج ثعلب من جحره . وما أبهج الصيد والقنص ! وما أشهى خمر « كومون » ! على أننى لا أميل الى هذه الخمر التى يقدر الناس لها

قدراً . أتتصورين ان أحد الزراع عند هذا الصديق أخبرنى انه تعلم من ساحر كيف يروض الثعلب بسحره وشعوذته ؟ ! بيد أنى لن أعمد الى هذه الوسيلة ، إنما أعدك ان أحضر لك معى اثنى عشر جلداً من الجلود البديعة .

— وما تريد ان اصنع بها ؟

— أنها تصلح لتكون طنافس أنيقة .

— أتسلخ الاسبوع كله فى الصيد ؟

— سأقضى شطراً منه فى الصيد ، وسأكون على مقربة من « سيمانقيل » فامضى عند عمتى « دى لانوا » يومين،لانها تنتظرنى. وكان يزورها فى مثل هـذه الفترة من السنة الماضية ابنتاها و بنات اختها الثلاث وأزواجهنّ ، وكنّ خمس فتيـات لطيفات مرِحات فاتنات ، وفى أوائل الشهر التالى سأجدهن كلهن دون ريب مجتمعات يحتفلن بعيد ميلاد عمتى ، فأقضى فى سيمانقيل يومين .

— ابق ما شئت أيها العزيز فسيشتد أسفى اذا قطعت صفاء مثل هذه الزيارة من أجلى.

— وكيف تكونين فى تلك الأثناء ياتريز ؟

— أنا ؟ أُوه ! سأكون بخير !

أخذت النـار تخمد ، والظلال تزداد كثافة ، فقالت بنغمة من تحلم بأمر :

— حقيقة انه ليس من أصالة الرأى أن تُترك المرأة وحدها . . فاقترب منها محاولاً ان يحدق فيها والظلام مخيم . وأخذ يدها قائلاً :

— أو بينني ؟

— أؤكد لك أنى لا أحب سواك ، ولكن . .

— ماذا تعنين ؟

— لا شيء . أنى أفكر ، أفكر فى أننا نفترق طوال الصيف وأنك تقضى نصف فصل الشتاء مع أسرتك وصحبك . فاذا كان لقاؤنا لا يتسنّى إلاّ فى الندرة فماذا عسى ان تكون قيمته ؟

وأشعل الشموع ، فبدا وجهها على الضوء صلباً متجهماً ، فنظر اليها نظرة واثقة ، نظرة ليس فيها من الصلف المعروف فى العاشقين مثلما فيها من الحاجة الى الشعور بالكرامة الثابتة ، وتلك الثقة بها كانت بحكم تقاليد تربيته القويمة و بساطة ذكائه ، وقال :

— تريز ! أنى أحبك وأعرف أنك تحبيننى فلم تعذبيننى ؟ ان قسوتك وتكتمك كلاهما يؤلمنى كثيراً أحياناً .

فاهتز رأسها الصغير فجأة هزة عنيفة وقالت :

— ليس لى فى ذلك حيلة ، فأننى صارمة عنيدة ، وهذا فى دمى ، وقد ورثته عن أبى ، وأنت تعرف «چوانفيل» ورأيت قصرنا فيها ، وسقوفه المنقوشة ، وصوره الموشّاة ، و بصرت بحدائقه الغناء ،

وقلت إنه ليس في فرنسا أبدع منـه . لكنك لم ترَ مشغل أبي ولا منضدته الخشبية البيضاء ولا مكتبتهُ الحمراء . فمن هذه المجموعة ابتُدع يا صديقي كل شيء . فعلى تلك المنضدة ووراء تلك المكتبة اشتغل أبي حاسبًا مدى أربعين عامًا . وكان أولَ أمره في غرفة صغيرة بساحة «الباستيل» . ثم في مسكن بشارع «موبيج» وفيه ولدتُ . ولم نكن موفوري الثراء في ذلك الحين . وقـد رأيت غرفة الأضياف الصغيرة المصنوع فراشها من الدمقس حيث كان أبي يصفي حساب البيت . وكانت أُميمتي تحبها كثيراً . انني ابنة رجل عصامي ، وان شئت فقل ابنة فاتح غازٍ ، لأن الكلمتين تؤديان معنى واحداً . انّا قوم ماديون ، وقد صحت عزيمة أبي على أن يثري ويملك ويقتني كل ما يُملك أو يُقتنى ، أعني كل شيء ، وقد صحت عزيمتي مثله على أن أربح وأصون . ماذا ؟ لا أدري !.. ألّذي أملكه هو السعادة أم شيء لم أملكه بعد ؟ وانني على هذه الشاكلة شرهة طموح ، جدُّ نزّاعة الى الاحلام والخيالات والاوهام . . أعلم علم اليقين انها لا تستحق المجهود الذي يُبذل في سبيل الحظوة بها ، لكن لهذا المجهود مع ذلك قيمته ، وهذا المجهود هو أنا ، هو حياتي . انني أميل الى التمتع بما أحب ، وبما يخيل إلي انى احب . وفي عزمي الاّ افقده . انني مثل أُبَيَّ : اطالب بحقي . . وعندئذ . . .

ثم خفضت من صوتها :

— وعندئذ .. لى كما لغيرى حواس ... أرى أيها العزيز اننى بهذا أضايقك ، وليس لى فيه حيلة ، وما كان لى قط أن أستسلم اليك .

هذه الحدة فى طباعها ، على كونه قد اعتادها ، كانت تضيع عليه سروره ، دون أن تزعجه . ولشدة تأثره بكل فعالها ، لم يكن يعنى بما تقول ، ولا يلقى ببال الى الالفاظ ، وبخاصة من سيدة ... يبعد عليه تصور ان الالفاظ تصيرأفعالاً ، لانه كان طويل الصمت.

وهو ولو أنه أحبها ، أو لأنه أحبها حبًا قويًا صادقًا ، كان يرى أن من واجبه مقاومة الاوهام التى يعدها مستحيلة.متلطفًا معها فى كل حال بحيث لا يغضبها ومن أجل ذلك كانت تسمح له باتخاذ مظهر السيادة والسلطان عليها ، فيتخذه دائمًا من حيث لا يظنُّ ... قال:

— تعرفين حق المعرفة « يا تريز » انى لا اريد إلاّ رضاك فى كل شىء ، فلا تكونى قُلَّبًا كثيرة البَدَوَات والأهواء .

— ولِمَ لا اكون معك كذلك ؟ وقد أنلتك منى أربا أو وهبتك نفسى ، فلم يكن ذلك العمل صوابًا أو واجب الاداء ، وانما كان بداة وهوى من الاهواء ..

فنظر اليها مشدوهًا محزونًا فقالت :

— أيجرحك اللفظ يا عزيزى ؟فلنسلم بأنه قد كان ذلك حبًا.

ونعم ان مأتاه كان من نحو قلبى . ذلك اذ عرفت انك أحببتنى ، لكنما ينبغى أن يكون الحب مسرّة ، ولو لم أجد انه شفى منى غلة ، وما هى فى الحقيقة الا أمنيتى وحياتى وصميم قلبى — لاجتويته ونبذته نبذ النواة ! يا لك من رجل غريب الاطوار ! أهوائى ! ؟ هل الحياة كلها الاّ بَدَوَات ونزوات وأهواء ؟ ! أليس ذهابك لصيد الثعلب بداة وهوى من الاهواء ؟ ؟

فاجاب وحق ما قال :

— أقسم « يا تريز » لولا سَبْق وعد منى لضحيت مسروراً بتلك اللذة الهيّنة إكرامًا لك .

وكانت تعرف ان ما قاله حق ، وتعرف دقّة محافظته على كلمته حتى فى توافه الامور ، ورأت انها اذا أصرّت لم يذهب ، لكن كان السحر قد بَطَلَ وسبق السيف العذَل . ولم تعد ترغب فى هذا الوصال ولا تبحث الا عن اللذة القاسية التى تنشأ من الخسران فى هـذا المجال . وهو سبب بدا لها تافهًا ولـكنها تظاهرت بانها تراه خليقًا بالاعتبار ، فقالت :

— صحيح ! إذاً فقد وعدت !

وتصنّعت الاذعان بدهاء . .

فعجب بادئًا ثم ما لبث ان هنّأ نفسه فى سريرته على أن ردّ

اليها رُشـدها . وشكر لها أنها لم تمض فى عنادها ، فطوّقها بذراعيه وقبلها باخلاص ومودة فى عينيها ونحرها ، مكافأة لها !

وأظهر متحمساً رغبته فى وقف أيامه الباقيـة له فى باريس عليها وقال :

— نستطيع أن نلتقى ثلاث مرات أو أربعاً قبيـل سفرى يا حبيبتى ، واكثر من ذلك اذا شئت ،فستجدينى هنا طوع يدك ، فى أى وقت تريدين . فهل ترين أن يكون ذلك غداً ؟

فمنحت نفسها مسرة أن تقول انها لا تستطيع العودة فى الغد ولا فيما يليه من الايام . وأوضحت فى رقة فائقة الاسباب التى تعتاقها عن المجىء . وبدت الموانع بادىء بدء تافهـة : زيارات تُقضى ، وثياب تُقاس ، وأسواق خيرية تُقصد ، ومعارض تُجتلى ، وطنافس للحيطان تُقتنى ، ثم ما لبثت هذه الصعاب عند سبرها ، ان زادت وتشعّبت ، فالزيارات لا يمكن تأجيلها ، والاسواق ثلاثة لا أقل ، والمعارض على وشك اقفال ابوابها ، والطنافس سترسل الى أمريكا ، وقصارى القول انه يتعذّر عليها أن تزوره قبل سفره . وكان يقدر مثل هذه الاسباب قدرها ، فلم ير انها متكلفة ، وان «تريز» آخر من يبديها .ووقف مرتبكاً حائراً امام مشكلة الفروض الاجتماعية هذه ، فلم يمانع ، وانما لبث صامتاً مغموماً .

رفعت ذراعها اليسرى على رأسها ، وحسرت ستر الباب ،

وأدارت بيدها اليمنى المفتاح فى القفل . . وهناك ، بين ثنايا الستر الشرقى المختلف ألوانًا ، لفتت رأسها نحو صاحبها الذى تغادره ، وقالت بنغمة فيها من السخرية والكآبة :

— وداعًا « ياروبير » ! ولتكن سعيداً ! ليست زياراتى ولا رحلاتك الاّ أموراً تافهات ، لكن قسمة الانسان على الحقيقة منوطة بمثل هذه التافهات . استودعك السلامة !

*

* *

خرجت ، وودّ لو صحبها ، لكنه عاد فرأى مَغَبَّة مرافقته إيّاها فى طريق عام ، على حين انها لم تلح عليه فى ذلك .

ولما احتواها الطريق ، أخذتها هزّة لشعورها الباغت بأنها وحيدة ، وحيدة فى الدنيا ، بغير أفراح ولا أحزان . فرجعت أدراجها الى البيت ماشية كعادتها . وكان الوقت ليلاً والجو مثلجًا صافيًا ساكنًا . . . لكن الشوارع المظلمة التى سارت فيها كانت تتكسر هنا وهناك فيها الأضواء ، فدثّرتها بذلك الدفء الفاتر الذى يصدر عن المدن وينفذ حتى من خلال برد الشتاء .

سارت بين صفوف الاكواخ والخصاص والبيوت ذوات السطوح المائلة الباقية من عهد « اوتاى » ، وقد تخللتها بيوت عالية ذوات طبقات لها طنف من الحجارة تبدو فى عزلة موحشة . ولم تكن تلك الحوانيتُ الصغيرة والنوافذ المتشابهة لتعنيها ، لولا أن

« روبيرلومنيل » وتربز « كونتس مارتن بليم »

ما يحيط بها لاح لها من طرف خفيّ كأنه يتودد اليها ، كما خيّل اليها أن حجارة الطريق وأبواب البيوت والأنوار العالية المنبعثة من النوافذ تعطف وتحدب عليها فى وحدتها . وارتضت هذه الوحدة لنفسها . هذه الخطوات التي تقطعها ، كعادتها ، بين ذينك الصفين من المساكن ، هذه الخطوات التى قطعتها مواراً عديدة قد بدا لها

اليوم كأنها تقطعها لآخر مرة وتسيرها بلا رجعة . فما علة ذلك ؟ ما الذى جاءها به النهار ؟ لم يجئها بخير ولا بشر . على أنها أحسّت فى نهارها احساسًا غريبًا شاذاً لن يزال عالقًا بذلك النهار أبد الدهر . فماذا حدث ؟ لا شيء ! وهذا اللاشيء محا كل شيء . شعرت بضرب من الاقتناع الغامض ، الاقتناع بانها لن تعود فتدخل تلك الحجرة التى كادت تكون منذ قليل أعزّ ما فى حياتها وأدعاه الى الحرص . كانت علاقتها جدية . وقد وهبت نفسها برصانة لتحقق فرحًا كان لازمًا لها . انها خلقت للحب ، وهى راجحة العقل ، فلم تفقد — إذ تبذل ذاتها — ميلها الفطرى الى التبصر والتفكير ولا حاجتها الى الطمأنينة والصفاء ، زينك الميل والحاجة اللذين كانا فيها قويين جداً . على انها لم تختر ، فقلما يتاح لاحد أن يختار . وكذلك لم تدع نفسها تؤخذ مصادفة واتفاقًا ، أو بتأثير دهش وخبل . لقد فعلت ما رغبت فى فعله بقدر مايتاح للانسان فى مثل هذه الشؤون . ولم يكن لها أن تأسف ، فقد كان صاحبها معها كما ينبغى ، ومسلكه إزاءها لا غبار عليه . ويجب عدلاً ان تسلم بذلك فيما يتعلق برجل نابه فى المجتمع والنساء طوع بنانه . وعلى هذا كله شعرت ان ما كان بينهما قد انتهى ، وان نهايته طبيعية جداً ، وكانت تقول فى نفسها بكآبة بالغة : « ثلاث سنين قضيتها

من حياتى مع رجل مستقيم يحبنى ، وكنت أحبه ، أجل والاّ لما أسلمت نفسى اليه ، ولست امرأة سوء » .

على انها لم تستطع بعد أن تجد عواطف تلك الأيام ، مغريات نفسها ومحرّضات جسمها ، شوقها الذى كان له فى قلبها ركضات ، وحبها الذى كان له فى مفاصلها رَفَضَات ...

وذكرت بعض التفاصيل التفهة كالأزهار المرسومة على ورق الجـدران ، والصور التى تزين الغرفة ، وكانت غرفة نُزُل . وذكرت الـكلمات التى قالها لها والتى كانت الى حد ما مضحكة ، وان كادت تكون مؤثرة . ولـكنما بدا لها كأن هذه الحادثة خاصة بامرأة أخرى ، امرأة غريبة عنها لا تحبها كثيراً ولا تفهمها كثيراً ولا قليلا . أما ما حدث الآن لها ، من تلك الملاطفات والمعانقات وما ماثل .. مما تلقته منذ قليل ، وما زالت تحمل آثاره معها .. فقد تقلص ظله وعفا أثره كله .

وكذلك المضجع ، والزنبق فى وعائه البلورى ، وكأس الزجاج البوهيمى الصغيرة وفيها دبابيس شعرها — كل هذا رأته كأنما تَشْخَص ببصرها الى الغرفة من قارعة الطريق ..

ولم تشعر بمرارة أو حزن . وليس ثمة ما تغتفره وتعفو عنه . فوا أسفا ! ... ان ذلك الغياب لاسبوع لم يكن نكثًا للعهد ، ولم يكن اساءة ، بل انه لم يكن شيئًا ولـكنه كان كل شىء !

كان الخاتمة وفصل الخطاب .

عرفت ذلك ، ورغبت فى القطيعة ، وارادتها ارادة كانت مدفوعة إليها . وكان ذلك منها طاعة لشعورها الخفى و إحساسها الطبعى . وقالت لنفسها : « لا أرى داعيًا يدعو الى أن اقلل من حبه . أوَعدت لا أحبه ؟ وهل أحببته يومًا ؟ » . لم تعرف ، ولم تعن بأن تعرف . ثلاث سنين كانت فى خلالها تسلمه ذاتها فى الاسبوع مرتين ، واحيانا اربع مرات ... ومرت شهور أربعة كانا يلتقيان فى كل يوم منها . أفلم يكن ذلك شيئا ؟ ؟ ألا إن الحياة ليست أمراً جليل الخطر عظيم الأثر ، فما نعلقه عليها فانما هو تَفَهٌ قليل .

و بعد ، فليس لديها سبب للشكوى ، لـكن الأوْلى أن تضع لها حداً . وانتهت بها تفكيراتها الى هذا الرأى ، ولم يكن تصميماً ، فالتصميمات قد تتغير . انه كان أشد خطراً ، كان حلة عقلية ونفسانية.

ولما وصلت الى الميدان القائم فى وسطه حوض ، وعلى أحد جانبيه كنيسة على الطراز الريفى ، يبدو ناقوسها من قوس مصوب الى السماء ، ذكرت طاقة البنفسج التى شراها صاحبها وقدمها اليها ذات مساء عند «الپتى پون» بقرب « نُتْردام» . وكان غرامهما فى ذلك اليوم متبادلا ، وقد حنت عليه واستسلمت اليه فى عطف ودلال ، فألانت قلبها تلك الذكرى ، فالتمست الطاقة فى معطفها ، فلم تجدها ،

ففى ذاكرتها وحـدها حيَّث الطاقة الصغيرة ، ذلك الهيكل الضئيل من الزهر . .

و بينما كانت تسير ضاربة في بيداء أحلامها ، تبعها بعض المارة مخدوعين ببساطة ملبسها ، ودعاها أحدهم الى مطعم لتناول العشاء في حجرة خاصة على ان يذهبا بعدئذٍ الى التياترو ! فتفكّهت بهذه المقترحات ، ولم تحدث الشدة التى كانت سائرة بها أي ضعف أو تراخٍ في أعصابها ، وكانت تتساءل متعجبة : « ترى ما تفعل الأخريات من النساء ؟ وأنا التى هنأت نفسي على انى لا أضيع حياتي عبثًا . . ! ومع ذلك فما قيمة الحياة ؟ »

ولما صارت بمشهد من المصباح الأغر بقي العَلَم على « متحف الأديان »، وجدت الارض مقلوبة عاليها سافلها من شغل في باطنها. وهناك، فوق أخدود عميق بين تلين من التربة السوداء، و بين اكوام من الحصى وحجارة الرصف ، وُضع لوح لين ضيق من الخشب بدأت تجتازه فاذا بهـا ترى أمامها على طرفه الآخر رجلاً وقف ينتظر مرورها . فعرفها ورفع قبعته لها .

وكان الرجل « دي شارتر » .

و إذ كانت تتقدم منه ، بدا لها أنه سر بلقائها ، فشكرت له ذلك بابتسامة . وسألها أن يماشيها بعض الطريق . ودخلا معًا الميدان الفسيح حيث كان الهواء أشد عَصْفًا والبيوت المرتفعة أكثر

تباعداً بعضها عن بعض . وكان يمكن رؤية جزء من صفحة السماء . فقال لها انه قد عرفها على بعدها من اتزان شكلها وحركاتها :

— ان الحركات الرشيقة هي موسيقى العينين .

فأجابت أنها تحب المشي كثيراً ، وانه يسرها ويجدّد قواها .

فقال انه أيضاً يحب المشي إلى مدى في المدن الآهلة أو الريف الجميل . يُغريه سِرُّ الطرقات الخفيّ بالسير فيها ... ويحب السفر . وحتى فى هذه الأيام التى أصبح السفر فيها شائقاً سهلاً لا يزال يشوقه . وقد رأى أياما ذهبية وليالي زهيّة في بلاد اليونان ومصر وعلى البوسفور . ولكنه كان دائماً يعود الى ايطاليا كأنما يعود الى موطنه الروحي ، ثم قال :

— اني ذاهب الى هناك في الاسبوع القادم ، أريد أن أرى مدينة «رافنّا» مرة أخرى ، نائمة بين أشجار الصنوبر القائمة على ذلك الشاطىء القاحل . هل ذهبت الى « رافنّا » ياسيدتي ؟ إنها جَدَثٌ ساحر تقوم منه اشباح مدهشات ! هنـاك سحر الموت ، وصور القديسين تحوطهم ملائكة على رءوسهم هالات نورانية تذكر الرائى برفاهيات الشرق المهولة . ان قبر « جلاّ بلاتشيديا » (Galla Placidia) وقد سُلب الآن ألواحه الفضية يبدو بسردابه المظلم النورانى ذا منظر مرعب وكان يخيّل الى من ينظر من خـلال ثُلْمَة في الناووس انه يرى ابنة « تودوسيوس »

على مقعدها الذهبي ، ممشوقة القد ، في ثوبها المرصّع بالجوهر ، المطرّز بمشاهد من التوراة ، وقد اكتسب وجهها القاسى الجميل خشونة وسواداً من الأعطار التى استخدمت فى تحنيط الجثـة ، ويداها الشبيهتان بالأبنوس ملقاتان على ركبتيها بغير حراك . وبقيت في جلالها الجنائزىّ هذا ثلاثة عشر جيلاً حتى مرّ بها طفل حاملاً شمعة بقرب ثُلْمَة القبر فأحرق الجثة والحُلّة معًا .

فسألته « الـكونتس مارتن بليم » عن سيرة صاحبة هذه الجثة الممعنة فى كبريائها هذا الإمعان .

فقال « دى شارتر » :

— كانت جارية مرتين ، فعادت ملـكة مرتين !!

فقالت « الـكونتس » :

— أنها كانت جميلة بلا مراء ، ووصفك لها وهى في قبرها يمثلها حتى لأخافها ! أفلا تذهب الى «البندقية» يامسيو «دى شارتر» ؟ أم أنك قد سئمت الزوارق الطويلة ، والقنوات المزدانة جوانبها بالقصور ، وحَمَامَ ساحة « سان مارك » ؟ اعترف انى وقد زرت « البندقية » مرات ما زلت أحبها .

فوافقها . فهو يحب « عروس الأدرياتيك » كما تحبها . وكلما ذهب اليها تبدّل من مثّال الى رسّام ، لـكنه جوّها الذى كان بوده لو يرسمه !

وقال :

— فى كل مكان غيرها ، حتى فى « فلورنسا » ، نجد السماء عالية ، قاصية ، نائية . أما فى « البندقية » فهى فى كل مكان . هى تحنو على الارض حنوّها على الماء . وتحجب القباب القاتمة والواجهات المرمرية ، وتسكب لآلئهـا و بلّورها فى الفضاء الملوّن بألوان قوس قزح . ان جمـال البندقية فى سمائها ونسائها . تبارك الله ما أجمل نساء البندقية ! انهن ذوات أجسام منبسقة ،ونظرات غاية فى الجرأة والصفاء . وما أبدع هيف القدّ الميّاس تحت الشال الاسود ! ووالله لو انه لم يبق من بدن امرأة منهن سوى عظْمة واحدة لأنبأت هذه العظْمة بجمال شكلها الفائق ! . . . وفى أيام الآحاد ، يجتمعن فى الكنيسة أسرابا ، ضاحكات ، مهتزّات ، فتجدين القامات الهيفاء، والنحور الجميلة ، والبسمات الرقيقة ، والنظرات المتوقدة ، وتنحنى جماعتهن بلين أعطاف الظّباء إذا مرَّ بها قسيس غليظ العنق متدلية لحيته على مرأته ، وفى يده كأس القربان ، ويتقدمه الغلامان المرتّلان .

سار « دى شارتر » غير مُتَّزِن الخطا ، مدفوعًا بفيض افكاره. وكانت خطاها اكثر انتظامًا وأسرع من خطاه قليلاً . فنظر اليهـا نظرة جانبية فرأى الخطا الموزونة والتخطّر اللدْن الثابت الذى

يهواه ولاحظ الحركة الصغيرة التى يهز بها رأسها الثابت ، ما بين فترة وفترة ، ذلك الغصن الذى يزين قبعتها .

وكان « دى شارتر » متأثراً بجمال الصحبة ، التى ارتفعت الكلفة منها ، مع غادة لم يكد يعرفها .

ووصلا الى المكان الذى يبدى فيه الشارع الفسيح صفوفه الأربعة من الأشجار . وكانا يتبعان ذلك السد الحجرى القائم عليه سياج يُخفى ، لحسن الحظ ، بشاعة الابنية الحربية التى على جانب الميناء . ووراءه ، كان النهر يعلوه ذلك الضباب الخفيف المتشبع به الجو والذى يكون على سطح المياه حتى فى الأيام المُضْحية. وكانت السماء صافية الأديم ، فامتزجت أضواء المدينة بأنوار الكواكب . فقال :

— كنت فى « البندقية » فى العام الماضى أرى عند خروجى من البيت كل صباح صبيةً قسيمة وسيمة ، ذات رأس صغير ، ونحر قوى مستدير ، وقوام عادل ، جالسة عند بابى على قيد ثلاث خطا من القناة . . هناك رأيتها مرة فى نور الشمس ، بين الحشرات والهوام،نقيّة كأنية العطر ، شهية كالزهرة . تبسمت .. فيا لثغرها !.. إنه كان أغلى الدرر فى أبهى الضياء ! وما لبثت ان تبينت ان تلك الابتسامة كان مقصوداً بها صبىٌّ قَصَّاب(جزّار) حالاً ورائى ،وعلى رأسه سلاله !

* * *

وعند زاوية الشارع القصير المنحدر حتى الميناء بين صفين من البساتين الصغيرة ، تمهلت الكونتس فى سيرها ، وقالت :

— حقًا ان نساء البندقية جميلات .

— يكدن يكنَّ كلهنَّ جميلات ياسيدتى ! وانى أعنى بكلامى بنات الشعب ، عاملات السجاير وصانعات الزجاج . . أما الأُخريات فهن فى كل مكان سواء . . .

— أتعنى بالأخريات النساء النابهات ؟ فهؤلاء لا تحبهن ؟

— النساء النابهات ! أُوه ! ان بعضهن فاتنات ، أما الوقوع فى أشراك هواهن فأمر ذو خطر !

— أوَ تظن ذلك ؟

ومدت اليه يدها ، واختفت بغتةً فى منعطف الطريق .

*

٥

فى ذلك المساء ، كانت « تريز » وزوجها يتناولان العشاء منفردين . ولم تكن ثمة زينات على المائدة التى رُدَّت الى حجمها العادى . وكانت ثريّات الأضياف مطفأة . فأخذ يتكلم عن شؤون اليوم وهى منصرفة الى هواجسها غارقة فى أحلامها الحزينة . وخُيِّل اليها أنها تسير فى ضباب وقد ضلت و بعدت عن كل شىء . ورأت ، بطريقة مبهمة ، كأنها تنظر فى الظلمات وترى من خلال الضباب غرفة شارع « سبونتينى » الصغيرة يحملها الزبانيةُ الى احدى قمم جبال هيمالايا وقد زلزلت الارض زلزالها وأخرجت الارض أثقالها كأنه يوم الحساب . واذا بعشيقها قد اختفى بسكون وهو يضع قفازيه فى يديه . فجسَّت نبضها لترى أهى تعانى الحمّى . ونبهها بغتة رنين فضيّات المائدة ، فسمعت زوجها يقول :

— اليوم ياصاحبتى العزيزة ألقى « جاڤو » فى المجلس خطبة بديعة فى مسألة المعاشات . وانه لخارق للعادة ان أفكاره أصبحت الى هذا الحد نيّرة ، فصار الآن يرمى عن قوس الصواب . وكان نجاحه باهراً .

فلم تقدر على اخفاء ابتسامها ، وقالت :

— لكن «جاڤو» ياصاحبي مخلوق مسكين ، فهو لم يفكر قط فى شىء وراء النهوض من طائفة الطَّغام وجماعة الجياع وشق الطريق لنفسه بينهم . فأفكاره كلها فى ذراعيه وبهما يزحم الناس . أصحيح أنهم أصبحوا يجعلون « لجاڤو » هذا فى عالم السياسة شأناً ؟ ! ثق انه لم يخدع امرأة واحدة ، حتى ولا زوجته ! ومع ذلك فمثل هذا الضرب من الخديعة سهل وليس أمراً جللاً .. كما أؤكد لك !

وعقّبت على ذلك بغتة بقولها :

— تعرف ان « مس بل » دعتنى الى تمضية شهر عندها فى « فيزول » . وقد قبلت دعوتها . فانا مسافرة .

فسألها ، ودهشه أقلّ من استيائه ، عمّن تسافر معه . وكان الجواب حاضراً فألقته من فورها :

— مع « مدام مارميه » .

فلم يجد ما يقوله . لأن « مدام مارميه » كانت رفيقة ذات مكانة شريفة ، وهى تصلح بخاصة لرحلة الى ايطاليا حيث قام المرحوم زوجها « مارميه الاتيروسكى » بالاستكشافات والحفر فى سراديب المقابر . فلم يقل إلاّ :

— وهل اخبرتها ؟ ومتى تسافرين ؟

— فى الاسبوع القادم .

فكان من الفطانة بحيث لا يبدى إذ ذاك اعتراضاً ، لعلمه ان المعارضة لا تأتى إلا بتثبيت ما حسبه ميْلاً عارضاً ، وخشي تكوين هذه الفكرة الخرقاء فى نفسها ، فقال برقة :

— ان السفر بالتأكيد سارّ للغاية . وكنت أفكر فى قيامنا برحلة فى الربيع الى « القوقاز » و « التركستان » وما وراء بحر « قزوين » . فذلك اقليم بهيج وغير معروف كثيراً ، وهنـاك « الجنرال اننكوف » يضع تحت تصرفنا عربات وقُطُراً بأكملها على سكك الحديد التى أنشأها ، وهو صديق لى ومن المعجبين بك ، وسوف يمدنا بحامية من القوزاق تقوم بحراستنا ، ومثل هذه « التجريدة » حقيقة بأن تغرينا وتستهوينا ! . .

ومضى يلحّ فى التأثير فيها من ناحية متاع الغرور ، لأنه ما كان يتصور ان تكون لها نفس غير دنيوية كنفسه مندفعة بكليتها بالأنانية .

فأجابت غير مكترثة ، ربما كانت الرحلة بديعة . فأخذ يُطرى جبـال « القوفاز » والمدن القديمة واسواق البيع والشراء وأنواع السلاح والأزياء ، وأضاف :

— وسنأخذ معنا بعض اصحابنا كالأميرة «سنيافين» والجنرال « لاريفيير » وربما أخذنا « ڤانس » أو « لومنيل » ...

فأجابت ضاحكة ضحكة صغيرة جافة ، ان الوقت لم يحن بعد لاختيار المدعوين ...

فأبدى انتباهًا اليها وعطفًا عليها بقوله :

— أراك لا تأكلين ! أنك تفقدين الشهية ...

ومع انه كان لا يصدق هذا السفر الفجائى ، فقد انزعج له . وكان كلاهما قد استعاد حريته ، لكنه لم يكن يحب ان يبقى وحده يومًا ، وكان لا يشعر بنفسه وراحتها إلاّ ومعه زوجه و بيته على أتمه ، وفوق ذلك كان معتزمًا اقامة مأدبتين أو ثلاث مآدب سياسية كبيرة أثناء انعقاد البرلمان ، إذ رأى حزبه ينمو وهذه هى اللحظة التى فيها يثبت نفوذه و يعلو صوته .

فقال متحفظًا :

— قد تأتى أزمة نحتاج فيها الى معونة أصدقائنا جميعًا . أفلم تتبعى تطوّر الحوادث « ياتريز » ؟

— لا ياصاحبي .

— يؤسفنى هذا ، لأنك ذات رأى صائب وفكر ثاقب ، ولو انك اهتممت بالسياسة وتتبعت مجرى الحوادث لدهشت من نمو الآراء المعتدلة فى انحاء البلاد وازديادها .فقد سئمت البلاد التطرف والمغالاة واصبحت لا تريد رجالاً مشبوهين يجمعون بين السياسة الراديكاليـة والاضطهاد الدينى . وسيأتى يوم تؤلف فيه وزارة

« كازيمير — پريه » أخرى ، أى من رجال جديدين ، وعندئذ ...

ثم وقف عن الكلام ، فقد كانت غير صاغية له ولا معنية به . وتاهت فى عالم الاحلام حزينة يائسة . وخيل اليهـا ان تلك المرأة الجميلة التى كانت هناك فى دفء الحجرة المغلقة وظلها ، واقفة حافية على سجادة سمراء مصنوعة من جلد الدب ، بينا عشيقها يقبّل قفاها وهى تعقص شعرها أمام المرآة ، خيل اليها ان تلك المرأة لم تكن هى بعينها ، ولم تكن امرأة تعرفها أو تحب ان تعرفها ، وانما هى سيدة أعمالها لا تهمها ...

وعندئذ سقط دبوس لم يكن مثبتًا جيداً ، دبوس من تلك الدبابيس التى كانت فى كأس الزجاج البوهيمية ، سقط من شعرها على عنقها فانتفضت .

قال « الكونت مارتن بليم » :

— نعم ، فعلينا ان نقيم ثلاث مآدب أو أربعًا للساسة أصدقائنا ، وسندعو خصومنا كما ندعو أنصارنا على السواء . وينبغى ان تكون هناك أيضًا بضع نساء مليحات ، وكذلك أرى ان ندعو « مدام دى لامال » التى مضى الآن عامان على ما دار حولها من القيل والقال ، فما رأيك ؟

— لكننى ياصاحبى مسافرة فى الاسبوع القادم .

فبُهت ، وخرجا معًا وكلاهما صامت عابس ، الى البهو الصغير

حيث كان «پول ڤانس» ينتظر، وكان يأتى عادة فى المساء بلا كلفة.
فصافحته قائلة :

— لشدّ ما تسرنى رؤيتك، وأريد أن أودعك الى حين، فباريس باردة الجو قاتمة الأديم، وجوها هـذا يتعبنى ويحزننى، فأنا ذاهبة الى « فلورنسا »، لتمضية بضعة أسابيع عند «مس بل».

فرفع الـكونت « مارتن بليم » حاجبيه.

فسألها «ڤانس» ألم تسافر مراراً الى ايطاليا. فأجابته :

— بلى، ثلاث مرات. بيد أنى لم أر شيئًا وقد اعتزمت هذه المرة على أن أرى، وان أغسل نفسى وأغطسها فيما حولى. وسأجول من « فلورنسا » جولات فى « تسكانيا » و « أمبريا » وانتهى بالذهاب الى « البندقية ».

— تحسنين صنعًا، فان « البندقية » تعد استراحة الأحد من اسبوع ايطاليا المبدع العظيم الالهى ...

— ان صديقك دى « شارتر » حـدثنى حديثًا خلاّبًا عن « البندقية» وجوها الشبيه باللآلىء.

— نعم، ان السماء فى البندقية مُصَوّرة، وهى فى فلورنسا روحية، وقال مؤلف قديم : « ان السماء الفلورنسية الخفيفة اللطيفة توحي بديع الفكر ». ولقد قضيت أياماً طيبة فى « تسكانيا »، و بودى لو أذهب اليها مرة أخرى.

— اذاً فهلم إلى ملاقاتى بها ...

فغمغم متنهداً :

— الصحف والمجلات ، والاشغال اليومية !

فقال الكونت « مارتن باليم » ان هذه اسباب وجيهة . فقراء المسيو « پول ڤانس » يتمتعون بكتبه ومقالاته الى غاية لا يرضون معها ان يبتعد عن عمله .

فقال « پول ڤانس » :

— أجل ! كتبي ! ... الا ان المرء لا يقول قط فى كتاب ما يريد فى الحقيقة ان يقوله . فمحال ان يفصح المرء عن فكره تمام الإفصاح . و إننى أعرف كيف اتكلم بقلمى كأى أحد غيرى ، لكن واحربا من الكلام ، من الكتابة ! اذا فكرنا فيها فما اتفه ما نجد تلك العلامات الصغيرة التى تؤلّف المقاطيع والالفاظ والجمل . ترى ماذا يجرى للفكرة ، للفكرة الجميلة ، بين مثل هذه الهيروغليفيات الخبيثة التى تعد شائعة وشاذة فى وقت واحد ؟! ماذا يفعل القارىء بصفحتى المكتوبة ؟ ... سلسلة من فهم خطأ ، وفهم معكوس ، وفهم معدوم. ان القراءة والفهم هما الترجمة ، وقد توجد ترجمات بديعة ، ولكن لا توجد ترجمات أمينة . فماذا يعنينى اذا كانوا يعجبون بكتبي ما داموا يضعون فيها دائمًا ما يعجبهم ؟! ان كل قارىء يحلّ خيالاته محل خيالاتنا ، وكل ما نفعله بكتاباتنا هو دغدغة مخيّلات

وزغزغتها !! .. فبئس ما يفعل المرء بتقديمه مادة لمثل هذا . قبحت من مهنة !

فقال « الكونت مارتن » :

— أنت تمزح !

فقالت « تريز » :

— ما أظن ! وانما هو يعترف بأن النفوس ممتنعة بعضها على بعض . وهو لذلك يألم . هو يشعر بنفسه وحيداً وهو يفكر ، ووحيداً وهو يكتب ومهما يفعل المرء فهو ابداً فى هـذه الدنيا وحيد . هذا ما يعنيه . وهو مصيب . فقـد يعبّر المرء عمّا فى ضميره ، وقد يبين عن ذات نفسه دائمًا ، على ان كنهه لا يُفهم أصلاً ولا يُدرك أبداً .

فقال « پول ڤانس » :

— لـكن هناك الحركات والاشارات ...

— ألا تراها يامسيو « ڤانس » نوعًا آخر من الهيروغليفيات !؟ لـكن ألا تقول لى أخبـار مسيو « شولت » ؟ فانى لم أعد أراه .

فأجاب « پول ڤانس » ان « شولت » مشغول فى هذه الأيام باعادة تشكيل الطبقة الثالثة من رهبنة القديس « فرنسوا » . وقال :

— وقد خطرت له فكرة هذا العمل ياسيدتى بطريقة عجيبة فى ذات يوم إذ كان يزور « ماريا » بمسكنها فى الشـارع الذى وراء « أوتيل ديو » . وهو شـارع دائم الرطوبة مائل البيوت .

وانت تعرفين ان « ماريا » هذه هى القديسة الشهيدة صاحبته التى تكفّر فى زعمه عن خطايا البشر ! ..

وشد « شولت » حبل الجرس الذى نال منه شدُّ الزائرين له مدى جيلين . وسواء أكانت الشهيدة « ماريا » عند تاجر النبيذ الذى اعتادت الترداد عليه أم كانت فى غرفتها فهى لم تفتح الباب . فاستمر « شولت » يشدّ ، ويشدّ بقوة ، الى حد ان الحبل ومقبضه طلعا فى يده . ولحذقه بفهم الكنايات ومعانى الاشياء الخافيات فطن لساعته الى ان الحبل لم يقطع دون إذن ما فوق الطبيعة من القوى الروحانية ، وأخذ يتمعّن فى هذا الحادث الجلل ويتأمّل . وكان الحبل القُنَّب اسود اللون لزجًا متوتراً من الأقذار تتمنطق به حزاماً للعفة ، وعرف انه اختير لاعادة الدرجة الثالثة من الرهبنة التى سنّها « القديس فرنسوا » الى حالة الطهارة الأولى . فنبذ جمال المرأة ، والتشبب والهوى ، ولذات القريض ، وجلال المجد ، وكرّس وقته لدرس حياة القديس المبارك وتعاليمه . وفى تلك الاثناء باع الى ناشر كتبه كتاباً اسمه « **المراعيات** » يحوى ، على قوله ،وصف أنواع الغرام . وهو مزهوٌّ بظهوره مظهر الآثم فى حذاقة ولباقة . على ان كتابه هذا لا يتدخّل فى مشاريعه الخفية أو يعارضها بحال . بل على الضد سيصلحه المؤلّف التالى فيبدو شريفًا فى الغاية

ومثالاً ينسج على منواله . وسيمكنه من الحج الى « اسيزى » [1] الذهبُ ، أو على حد قوله ، القطعُ الذهبيـة التى ما كانت لتكون وفيرة الى هذا الحد لو ان كتابه كان آدب وأحشم !

فطربت « الـكونتس مارتن » من الحكاية أشد الطرب ، وسألت « ڤانس » عن مبلغها من الصدق . فأجابها انه يجب ألاّ تسأل أو تحاول ان تعرف !

واعترف مواربة انه مثّل حكاية الشاعر وزوّقها . وان الوقائع التى رواها يجب ألاّ تؤوّل تأويلاً حرفيًا أو يهوديًا . . !! لـكنه ، على الأقل ، يؤكد ان « شولت » ينشر الآن كتاب (المراثيات) ويرغب فى زيارة صومعة وقبر « القديس فرنسوا » .

فصاحت « الـكونتس مارتن » :

— اذا كان الأمر كذلك أخـذته معى الى ايطاليا . فعليك يامسيو «ڤانس» ان تجده وتأتى به ، فأنى مسافرة فى الاسبوع القادم .

فخرج « الـكونت مارتن » معتذراً بأن عليه إتمام تقرير وتقديمه فى اليوم التالى فلا يستطيع إطالة المـكث معهما .

فقالت « الـكونتس مارتن » انه لا يوجـد من يدخل على نفسها الحبور اكثر من « شولت » .

---

(١) مسقط رأس القديس فرنسوا

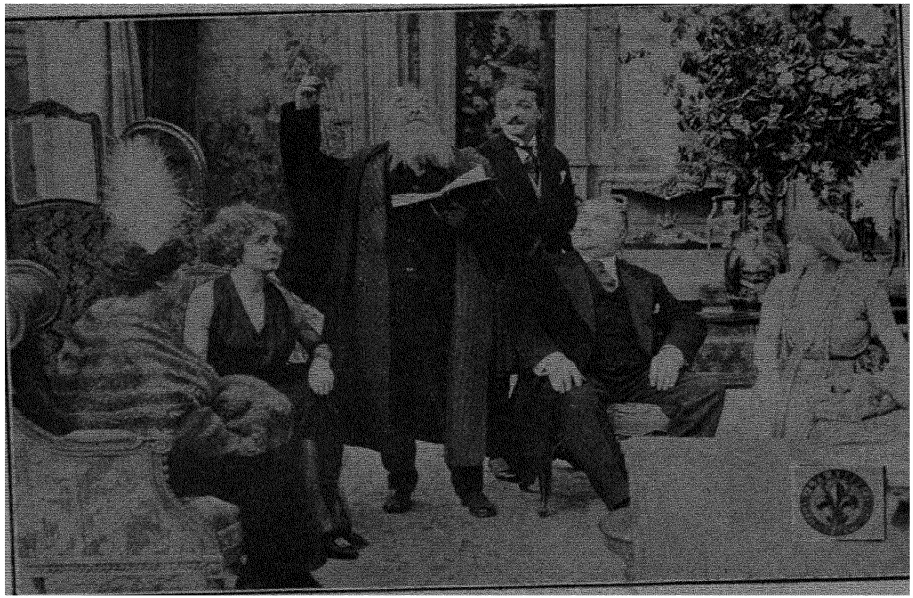

« شولت » يلقى قصيدة فى قصر « الكونتس مارتن بليم »

وعن يمينه « الكونتس » ، وعن يساره « فانس » و « مونتسوي » والأميرة « سينافين »

فقال « پول ڤانس » انه أيضًا يعدّه فذًّا فى انسانيته :

— انه يختلف كثيراً عن أولئك القديسين الذين نقرأ عن حياتهم الخارقة العادة . فهو مخلص مثلهم وله مشاعر رقيقة حساسة ، وله نفس عنيف تأثرها شديد انفعالها . واذا كان الكثير من أعماله يدهشنا ويحيرنا فذلك لأنه أضعف وأقل ضبطًا للنفس من القديسين والأولياء الصالحين ، أو ربما لأنه يُراقب عن كثب أكثر منهم ! وفوق ذلك قد انشق من القديسين ، كما انشق من الملائكة ، شياطين ! فلعل « شولت » قديس شيطان ، وكفى ! بيد ان أشعاره فى الحق روحية ، وهى أبدع بكثير مما وضعه من هذا القبيل أساقفة البلاط وشعراء التياترو فى القرن السابع عشر ...

فقاطعته قائلة :

— على فكرة ، أريد ان أهنئك بصديقك « دى شارتر » . انه روح جذّاب .

ثم أضافت :

— على أنى أظنه شديد التحرُّز . . اكثر مما يجب ...

فذكرها « ڤانس » انه طالما قال لها ان « دى شارتر » سيروقها :

— أنى أعرفه حق المعرفة قلبًاوقالبًا . فهو صديق منذ الطفولة .

— أتعرف أسرته ؟

— نعم ، أنه الابن الواحد لفيليب دى شارتر .

— المهندس ؟

— المهندس، الذى أعاد بناء عدة صروح وكنائس فى «تورين» و « اورليان » فى عهد نابليون الثالث . وكان رجلاً موفور الذوق والمعرفة ورقة الحاشية ، ولو انه كان يؤثر العزلة . وقد أخطأه التبصّر إذ طعن على « ڤيوليه ليدوك » المهندس المشهور الذى كان فى ذلك الحين فى أوج مجده . فنعى عليه رغبته فى تكميل المبانى وفاق مواصفاتها الأصلية . وكان «فيليب دى شارتر» على النضد يرى احترام كل ما أضافته الأجيال تدريجيًا على الكنائس والأديرة والقصور . وكان دائمًا يقول : « أنها لجناية ان نمحى ما طبعته أيادى اسلافنا وارواحهم على الحجر على مدى العصور ، فما الحجارة الجديدة المقطوعة على غرار قديم إلاّ شهود زور ! ! »

فكان من رأيه تحديد عمل المهندس بتقوية المبانى ودعمها وصلبها . وكان الحق فى جانبه . بيد أنهم سفّهوا رأيه . وأتم عليه السقوط موته فى مقتبل العمر على حين كان خصمه فى ذراه .. ومع ذلك ترك لأرملته وابنه ثروة كافية حلالاً . وتثقّف « چاك دى شارتر » على يدى أم كانت تعبده عبادة . وما كنت أحسب حب الأم يبلغ هذا المبلغ . ولعمري ان « چاك » فتى ظريف ، ولو أنه طفل مُدَالّ !

— ومع ذلك يبدو خَلِيّ البال ، لين العريكة ، ويلوح عليه أنه من الزاهدين ! . .

— لا تؤمنى له ! انه فى ذاته عقل قلق لا يهدأ ، ويسبب للغير عدم الهدوء . . أنه مخيلة مُعَذَّبة مُعَذِّبة .

— وهل يحب النساء ؟

— ولِمَ تسألين ؟

— أوه ! ليس لأعداد زوج له !

— نعم أنه يحب النساء . ولقد قلت لك أنه أنانى ، والأنانيون وحدهم هم الذين يحبون النساء حقًا . وبعد موت أمه قضي زمنًا غير قصير متصلاً بممثلة معروفة تُدعى « چان تانكريد » .

فقالت «الكونتس مارتن» انها تكاد تذكر « چان تانكريد » هذه ، فهى امرأة ليست موفورة الحسن وإن كانت حسنة قسامة الجسم ، وذات رقة واهنة نوعًا ما فى تمثيلها دور العاشقة .

— هى بعينها . وكان يعيشان معًا عيشًا متصل الاسباب ، فى بيت صغير بقرية اليـاسمين فى « أوتاى » وكنت لا أفتأ أزورهما فأجده تائهًا فى أحلامه ناسيًا ان يصور شكلاً جفَّ تحت غطائه . عاكفًا على ذاته غير معنى يسوى أفكاره ، غير قادر على الاصغاء لأى أحد . وتكون هى فى تلك الأثناء تستظهر أدوارها ، وخداها يشتعلان بالحمرة الصناعية ، وفى عينيها معانى الحنان والحب . وهى

تُعدُّ خلاّبة فى ذكائها وغيريتها . وكانت تشكو شرود لبّه وعبوسة وجهه وحدة خلقه وهياج طبعه . وقد أحبته حقاً . ولم تخدعه قط إلا لتقوم بدور تمثيلى ، فاذا خـدعته انتهت خديعتها وشيكاً ، فلا تفكر فيها بعد . امرأة رشيدة . بَيْدَ أنها أباحت أن يراها الناس بصحبة « چوزيف سبرنجر » الذى وثقت معه عرى المودة على أمل أن يدخلها مسرح « الكوميدى فرانسيز » فغضب « دى شارتر » وهجرها . وهى الآن ترى العيش مع مديرى الجوقات أصلح لها . و يؤثر « چاك » السياحة والسفر ...

— وهل يأسف عليها ؟

— ومن ذا الذى يعرف ما يكون من روح حائر وعقل قلق ، متعطش لاعطاء نفسه ، سريع الرغبـة فى استرداد عطيته ، أنانى ، ولوع ، يعشق نفسه عشقًا حاراً فى كل ما يجده مثلها جميلاً فى الوجود.

فغيّرت مجرى الحديث فجأة بقولها :

— وما تم فى روايتك يامسيو « ڤانس » ؟

— أنى اكتب فصلها الأخير ياسيدتى . فان نقاشى الصغير قد قطع عنقه ، فمات بلا مبالاة كالعـذارى القانتات غير ذوات الشهوات ، اللواتى لم يشعرن قط بأنفاس الحياة الحارة على شفاههن . ونزلت الصحف والناس على حكم القضاء والرضاء بما أنفذه . لـكن

صانعًا آخر يسكن حجرة فى سطح بيت يشتغل بالكيمياء و يعيش فى قناعة وأسى يقسم على ان يثأر لزميله .

ثم نهض واستأذن ، فأهابت به قائلة :

— مسيو « ڤانس » ! أنت تعرف ان المسألة جدية ، فهات لى « شولت » !

ولما صعدت الى غرفتها ، كان زوجها متربصًا لها وهو فى ثوب البيت المصنوع من المخمل ، وعلى رأسه قلنسوة أحاطت بوجهه الممتقع الغائر الخدين البادية عليه سيماء الرزانة . ووراءه ، من خلال باب حجرة مكتبه المفتوح ، ظهرت تحت مصباح ، مجموعة من الأضابير والوثائق وكتب الميزانية السنوية الزرقاء اللون وكلها مفتوحة على جلدتيها .

وقبلما تمكن من دخول حجرتها أشار اليها أنه يرغب فى مخاطبتها ، فقال :

— أننى لا أفهم قصدك ياصديقتى العزيزة . فان عواقب طيشك قد تكون وخيمة . أراك بلامسوّغ ، بل و بلا عذر ، تهجرين بيتك وتؤثرين السياحة فى أوربا . ومع من ؟ مع « شولت » ذلك الفجرى السكير ؟ !

فأجابت أنهـا مسافرة مع « مدام مارميـه » ، وليس فى هذا ما يشين .

— لـكنك تخبرين كل انسان بسفرك ، وما زلت تجهلين أتستطيع « مدام مارميه » مرافقتك أم لا تستطيع .

— أُوه ! ان « مدام مارميـه » اللطيفة تستطيع للحال ان تجهّز حقائبها ، فليس لديها ما يعوقها فى باريس إلاّ كلبها ، وسوف تتركه لك لتعتنى به !

— ووالدك ؟ أأنبأته بغرضك ؟

وكانت سُلْطة أبيها « مونتسوى » هى الملاذ الأخـير الذى يفزع اليه اذا ما تجوهلت سلطته . وكان يعرف ان زوجه تخشى أباها وتحسب له حساباً كبيراً وتتحاشى تكديره أو اعطاءه فكرة سيئة عنها ، فتمسك بهذا قائلاً :

— ان والدك عالى الفطنة ، بصير بحقائق الأمور ، ولَشَدَّما كنت سعيداً بأن وجدت نفسى وإياه على وفاق فيما وجهت اليك من نصح فى مختلف الظروف وعديدها ، وهو على رأيى فى ان سيدة فى مثل مكانتك لا يليق بها زيارة « مدام ملاّن » . فان وسطها مختلط ، عدا ما عُرف عنها من أنها امرأة دسّاسة ، وعلىّ ان اخبرك صراحة أنك تخطئين كثيراً باستهانتك بالرأى العام ، واكون خاطئاً اذا لم يجد والدك غرابة فى سفرك بهذا الطيش والاستهتار ، وسيكون رحيلك

ملحوظاً بخاصّة فى هذه الأيام ، واسمحى لى ان أذكرك ياصديقتى العزيزة بأن تطوّر الحوادث لفت الينا الأنظار فى دورة البرلمان الحالية ، وليس لأهليَّتى بالتأكيد دخل فى هـذا . فلو انك كنت على استعداد للاصغاء الىّ على المائدة لكنت أثبت لك ان الحزب السياسى الذى انتمى اليه يوشك ان يقبض على أزمّة الأمور ويفوز بالحكم ، وليس فى مثل هذه اللحظة تنسين واجبك باعتبار أنك سيدة هذه الدار ، وعليك ان تدركى ذلك من تلقاء نفسك .

فأجابت :

— انك تضايقنى !

ثم طوت عنه كشحًا ، وذهبت فأوصدت حجرتها عليها .

* * *

وفى ذلك المساء بعينه ، اضطجعت فى سريرها ، وفتحت كتاباً قبل النوم كعادتها ، وكان قصة . فقلّبت صفحاته عَرَضًا ، حتى لفتت نظرها هذه السطور :

« الحب كالتقوى : يأتى متأخراً . وقلما تكون المرأة عاشقة أو تقية فى سن العشرين ، ما لم تكن ذات استعداد خاص ، ذات نوع من القداسة الفطرية . وحتى المقدر عليهن ، المصطفيات انفسهن ،

يقاومن طويلاً نعمة الحب هذه لأنها أشد هولاً من الصاعقة التي تنقض على طريق « دمشق » . فالمرأة غالبًا لا تستسلم الى الغرام إلاّ فى السن التى لا تزعجها فيها الوحدة ، فما الغرام إلاّ صحراء قاحلة ، صحراء « طيبـــة » المحرقة . ان الغرام زهد دنيوى كالزهد الدينى في خشونته سواء بسواء . لذلك نرى الغرام العظيم نادراً فى النساء ندرة الزهد العظيم

« وأولئك الذين حلبوا شطرى الدهر، وسبروا غور الحياة والعالم، يعلمون ان النساء لا يلبسن عن طيبة خاطر ، فوق جسومهن الرقيقة ، قميص الحب الصادق المصنوع من الوبر . و يعلمون أنه ما من شىء أندر من التضحية الطويلة الأمد ، و يتأملون فى مبلغ ما على المرأة، امرأة العصر ، أن تضحى به – اذا ما أحبت – من حريتها وصفائها ومرح نفسها الطليقة ودلالها وملاهيها ومسراتها ، وقصارى القول : التضحية بكل شىء ، لأنها تخسر كل شىء .

« الغزل البرىء مسموح لها به ، فهو يتمشى وحاجات الحيـاة المترفة . أما العشق ، فلا . فالعشق هو أقل العواطف متاعًا دنيو يًا ، واكثرها مخالفة للعُرف ، وأشدها وحشية ، وأظهرها همجية ، لذلك يحكم عليه النـاس حكماً أقسى من حكمهم على الغزل البرىء وخفة الطبع . والناس مصيبون من وجهة واحدة .

«فالمرأة الباريسية العـاشقة تناقض طبيعتها وتقصر فى أداء وظيفتها التى تقضى عليها بأن تكون للجميع كطُرفة من طُرف الفن. أنها عمل فنى ، وأعجب ما أنتجه ابداً فن الانسان . هى استنباط مجيد ، ثمرة اتصال الفنون الآلية بكافة الفنون الحرة . فهى الصنيعة المشتركة ، وهى الخير العام ، وواجبها هو : الظهور » .

فاقفلت « تريز » الكتاب ، وقالت فى نفسها ، ان هذه هواجس القصصيين الذين لم يعرفوا الحياة . فهى تعلم علم اليقين انه فى الحقيقة لا يوجد جبل عواطف كجبل « الكرْمل » . كما أنه لا يوجد قميص حب من الوبر ، ولا تعلّق جميـل مهول يقاومه المصطفيات المقدر عليهن مقاومة لا نفع منها .

كانت تعرف ان الحب ما هو إلاّ نشوة قصـيرة اذا مضت تركت صاحبها محزونًا نوعًا ما ، ومع ذلك كله ، فآه ، ليتها كانت تكون غير عارفة كل شىء ! فيكون هنـاك حب تهوى فيه المرأة قريرة العين !

* * *

أطفأت مصباحها . فعادت اليهـا من أقصاء الماضى أحلامُ رَوْق شبابها .

٦

وكان اليوم يوما مطيرا .

فرأت « الكونتس مارتن » ، من وراء نوافذ عربتها التى غشيها الماء ، عددا وفيرا من المظلات يسير تحت مطر السماء كأنه سلاحف سوداء .

وطفقت تفكر ، فجاءت خواطرها قاتمة غامضة كمنظر الشوارع والساحات الذى حجبته واخفته الامطار . .

فلم تعد تعرف كيف خطر لها أن تسلخ شهرا عند «مس بل» . ولم تستطع أن تتبيَّن سبب نشوء هذا العزم فى نفسها ، وقد كان أوَّل امره كينبوع تُظِلُّه اوراقُ النيلوفر ، فاستحال الآن سيلاً جارفاً .

وذكرت ما قالته يوم الثلاثاء على العشاء من أنها تريد السفر ، لكنها لم تستطع أن تتقرَّى منشأ رغبتها تلك . ولم يكن بودِّها معاملة « روبير لومنيل » بمثلما عاملها به ، واحدةً بواحدةٍ والبادىء أظلم ، فلا مراء أنها ارتأت أن خيراً لها وأَوْلى بها ان تذهب للتنزه على حين يشتغل صاحبها بصيد الثعلب . وكان ذلك أمرا سارا موافقا . اذ أن « روبير » الذى يبتهج عادةً كثيرا بلقائها بعد طول البعاد ، لن يجدها اذا عادَ ، ولقد بدا لها أن تكتم هذه المعاكسة ، وأن

تخيّب فيه رجاءه . لكنها لم تكن فكرت فى هذا من قبل ، وقلما فكرت فيه من بعد . ولم يكن باعث سفرها فى الواقع الرغبة فى التلذذ بإيلامه ، أو المجون أو المؤاخذة ، لانها لم تشعر من نحوه شعور نكاية ولكن شعورها كان مكيناً دفيناً ، وكل ما فى الامر انها كانت لا تريد رؤيته وشيكاً ، فأصبح صاحبها غريبا عنها دون أن ينقطع ما بينهما ، و بدا لها رجلا ككل رجل ، وان كان احسن من كثير ، لما هو عليه من وسامة واستقامة . انها لم تكن تنفر منه لكنه لم يكن يشغل بالها كثيرا . لقد خرج فجأة من حياتها ، و إن لم تشعر بارتياح كلما ذكرت إلى أى حد مازجها ، أما أن تعود فتكون له ، فقد صدمتها هذه الفكرة ورأتها معرّة . واما اجتماعهما مرة اخرى فى مسكن شارع « سپونتينى » الصغير فكان من الإيلام لها بحيث أبعدته للحال عن مصوّرتها ، وودت لو ان حائلا يحول دون عود اتصالها وجمع شملهما ، كوقوع حادث غير منظور لكن لا مَنْدُوحة عنه ، كفناء الدنيا ، مثلا ! و لِمَ لا ؟ فقد سمعت ليلة امس فى دار «مدام دى لورين » « مسيو لجرانج » عضو المجمع العلمى يتحدث عن مذنب زعم أنه ربما زلَّ عن كبد السماء فالتقى بكوكبه السيَّار فاشتعل الارضَ ذنبُه الملتهب وأحرقها بناره ونفث فى حيوانها ونباتها سموما مجهولة تقضي على الناس كافة من ضحك جنونى أو بله كئيب ! . .

فيجب أن يحدث شيء من هذا أو من مثله ، قبل حلول

الشهر القادم ، لهذا لم تكن رغبتها فى الرحيل بلا تأويل . لكن . . ترى لماذا يداخل رغبتها فى السفر فرح غامض ؟ ولماذا تشعر بأنها قد اصبحت تحت تأثير ما هى ذاهبة لتراه . . ؟

هذا ما استغلق عليها .

وأنزلتها العربة عند ركن شارع «دى لاشير» الضيق. وهناك، على سطح بيت مرتفع ذى شرفة طويلة تطل منهـا خمس نوافذ تدفئها الشمس فى الصباح ، كانت « مدام مارميه » تقطن مذ مات زوجها فى مسكن صغير نظيف ، وكانت « الكونتس مارتن » قد جاءت تزورها فى يوم زيارتهـا ، فوجدت « المسيو لاجرانج » فى البهو المصقول اثاثه البسيط ، نائمًا على مقعد كبير حذاء السيدة الرقيقة الوادعة المستكنَّة تحت تاج مفرقها الابيض ، ولقد ظل هذا الشيخ العالم الدنيوى مخلصًا وفيًا لها ، فأتى غداة وفاة زوجها يتلو عليها مرثاة مؤثرة ظنًّا منه أنها تتعزى بها ، فاذا بالحزن والاسى قـد برَّحا بها فسقطت بين ذراعيه مغشيًا عليها . . . !

وعرفت فيه «مدام مرميه» رجلا يعوزه التمييز ، فاتخذته خدنا تذهب و إياه لتناول الطعام على موائد الاغنياء .

وجاءت « الكونتس مارتن » بجمالها الساحر وقوامها المائس ، وهى متدثِّرة بفرائها السمُّورية القاتمة ، فأرسلت من بريق عينيها

النجلاوين على ذلك الشيخ الصالح الحسّاس السريع التأثر بجمال النساء ، فأيقظته ..!

وكان قد تحدث فى سهرة الامس على مائدة « مدام مورلين » عن فناء العالم . فسألها هل خافت إذ استحضرت مخيلتها ليلاً تلك الصورة التى تمثل الكائنات وقد التهمتها النار أو ماتت بردا فصارت بيضاء ناصعة كالقمر ؟ ؟

وبينا هو يحدّثها فى رقة متصنّعة ، جعلت تنظر الى خزانة الكتب المصنوعة من خشب « لأكاجو » ، والتى تشغل فراغ حائط البهو المقابل للنوافذ ، ولم يكن باقيا بها الاّ القليل ، وهناك ، على قاعدة واطئة ، تمثال جندى شاكى السلاح . فاعجب لوجود فارس على رأسه خوذة من البرنز الصدىء وعلى صدره المفكك درعه الصدئة فى بيت السيدة الصالحة الطيبة القلب « مدام مارميه » ! !

أما الكتب فقد باعتها فى ازمة ترملهـا ، ولم تحتفظ من كل التحف التى جمعها زوجها العالم الأثرى الاّ بهذا الجندى « الاتروسكى » ! وحاول أصدقاؤها أن يحملوها على الخلاص منه ، ووجد له رفقاء زوجها القدماء صفقة ، وأغرى « پول ڤانس » ادارة متحف « اللوڤر » بشرائه ، فأبت الارملة الصالحة واستكبرت أن تبيعه وتفترق عنه ! وجرى فى زعمها أنها اذا تخلت عن هذا الفارس ذى الخوذة البرنزية الخضراء المتوّجة بأكليل من ورق الشجر المموّه بالذهب ، وضعت

من قدر الاسم الذى تحمله معتزَّة به ، فلا تعود أرملة « لويس مارميه » عضو مجمع الآثار ! . .

وعاد الشيخ « لاجرانج » يخاطب « الكونتس » بقوله :

— كونى مطمئنة يا سيدتى ، فان تصاب الارض بنكبة من مذنَّب بعد ، فوقوع مثل هذا الحادث بعيد الاحتمال . .

فأجابت « الكونتس مارتن » انها لا ترى كبير ضيْر فى خراب الدنيا وفناء البشرية العاجلين .

فاحتج الشيخ « لاجرانج » محتـدًّا ، إذ كان يرغب من كل قلبه أن يؤجل وقوع النكبة .

فنظرت اليه ، فرأت أنه مازال فى رأسه الاصلع بضع خُصَل من شعر مصبوغة بالسواد ، ورأت جفونه متدليَّة كقطع من الخِرَق على عينيه اللتين ما فتئتا ترأرآن . . وكان وجهه الغَضِن أصفر واقعًا لونه ، يخال للناظر اليه أن فى برديه جثمانا يابسًا متكمّشًا .

فقالت فى نفسها : « انه متعلّقٌ بالحياة ! »

وكذلك لم ترغب « مدام مارميه » فى أن يكون قريبا ما يوعدون . فقالت « الكونتس » .

— ألست تعيش يا مسيو « لاجرانج » فى بيت صغير بديع تطل نوافذه على « حُديقة النبات » ؟ فيظهر أن من متع الحياة العيش

فى تلك الحديقة التى تذكرنى سفائن نوح التى كنت أصنعها طفلة ، كما تذكرنى جنة عدن التى وُعد بها المتقُّون . . .

أمَّا « مسيو لاجرانج » فكان لا يجد البيت جميلا بل صغيرا ردىء البنيان مصابا بالجرذان

فأدركت « تريزا » أنما الحياة كلها تعب ، وأن فى كل مكان جرذانا ، إمَّا على الحقيقة ، و إمَّا على المجاز . . وهى كتائب من خلائق صغيرة عاكفة على تعذيبنا . . .

و بعد ما انصرف ، أطلعت « الكونتس مارتن » السيدة « مارميه » على ماتريده منها ، فقالت :

— إنى مسافرة فى الاسبوع القادم الى «افيزول» عند «مس بل » فأنت مسافرة معى ! . . .

فسكتت « مدام مارميه » الصالحة قليلا ، وجسَّت بعينيها البرَّاقتين تحت جبينها الهادىء . .

ثم رفضت بتراخٍ . . .

فتُوُسِّل اليها . . .

و بعد لأْي رضيت ! . . .

٧

وقف قطار « مرسيليا » السريع ، على أهبة السفر ، إلى جنب رصيف المحطة حيث كان الحمالون يركضون وهم يدفعون عربات اليد ، فى الجو ذى الدخان والجلبة ، تحت ضوء النور الكابى الساقط من وراء بلور السقوف . وكان المسافرون فى معاطفهم الطويلة يروحون و يغدون أمام ابواب العربات المفتوحة .

وهناك « الكونتس مارتن » و « مدام مارميه » الصالحة قد سبقتا فأخذتا مكانهما من العربة تحت رف ممتلىء بالحقائب . ووُضعت الصحُف على الوسائد بقربة منهما .

أما « شولت » فلم يأتِ ، وأما « الكونتس مارتن » فلم تعد تنتظره ، وألقت حبله على غاربه . ومع ذلك كان قد وعدها أن تجده فى المحطة . وأخذ نفسه بالسفر معها . وقبض من الناشر ثمن كتابه « **المراعبات** » . وكان « پول ڤانس » قد أتى به ذات مساء الى « كى دو بلى » فألفته « الكونتس » رقيقًا مهذبًا موفور مسرات الروح . . .

فجعلت مذ ذاك تمنّى النفس مغتبطة بسفرها مع رجل عبقرى مثله ، ناشز الطبع فاتن القبح فكه الجنون ، وها هى ذى قد رأت

أنه غير آت فغلّقت الأبواب ، وأدركت أنها أخطأت باتكالها على شخص نزق جوّاب أفاق ، وفى اللحظة التى بدأت القاطرة تدفع انفاسها المبحوحة ، أطلّت «مدام مارميه» من النافذة وقالت بهدوء :

— أظن هذا هو المسيو « شولت » !

وكان « شولت » مقبلاً على الرصيف يظلع باحدى فخذيه ، واضعاً قبعته على مؤخّر رأسه ذى النتوء ، أشعث اللحية ، يجر سجادة فى كيس عتيق . وكانت هيئته تكاد تكون مروّعة ، ومع ذلك بدت عليه علائم الفُتُوَّة وقد ناهز الخمسين ، وكان لعينيه الزرقاوين اللامعتين لألاء ورأراء ، وعلى وجهه الشاحب الغَضِن صلابة البساطة وجرأة السذاجة ، فان بين جنبي هذا الشيخ كانت تسرى الفتوّة الخالدة ، فتوّة الشاعر والفنان ، ولا تزال بادية عليه .

فأسفت « تريز » وهى تنظر اليه على اختيارها رفيقا لسفرها بمثل هذه الغرابة والشذوذ . وبينا كان « شولت » يخترق القطار أخذ يلقى على كل عربة نظرة سريعة صارت شيئاً فشيئاً مرتابة محاذرة. لكنه لما وصل الى عربة السيدتين ، وعرف « الكونتس مارتن » تبسّم عن رقة فائقة ، وصبّحها بالخير بصوت بلغ من النعومة مبلغاً لم يُبْقِ على شىء من ذلك المتشرد المتوحش الذى كان تائها على رصيف المحطة منذ قليل ، باستثناء كيس السجادة العتيق البالى الذى كان يجره من أذنيه المكسورتين . . ووضعه بعناية بالغة على الرف بين

الحقائب الوجيهة المكسوّة بالتيل الرمادى ، فجعلها منظر كيس سجادته ذات زخرفة مبتذلة لا أثر فيها لذوق . و بدت للعيان أزهار السجادة الصفراء الفاقعة على أرضها الحمراء بلون الدماء . .

ولما استوى على مقعده ، هنّأ « الكونتس مارتن » مثنيًا على « حرملة » معطفها ، وعقّب قائلا :

— أى سيدتى ! أرجوكما المعذرة ! فانى أخشى أن أكون قد تأخرت ، فقد ذهبت فى الساعة السادسة لحضور القدّاس فى « سان سفران » بكنيسة « العذراء » الصغيرة ، تحت تلك الاعمدة الجميلة النحيلة كمزمار الغاب ، المتجهة صوْب السماء كأنها تتعبد مثلنا ، نحن المساكين الخاطئين . .

فقالت « الكونتس » :

— اذاً أنت اليوم تقىّ ؟ !

وسألته أأتى معه بزنّار طبقة الرهبنة التى ينشئها ،فوجم ، وقال:

— أخشى ياسيدتى أن يكون مسيو «پول ڤانس» أفضى اليك بتُرّهات مضحكة فى هذا السبيل . فقد سمعتُ أنه يتقوّل علىّ أن زنّارى زنّار جرس، وأى جرس ! إى وربى ! إن الاسف ليبلغ منى لو ان أيًّا كان يصدق تخرُّصاته ! ان زنّارى رمز يا سيدتى فى شكل خيط بسيط يعلّق تحت الثياب فيما يلى البدن ، بعدما يلمسه شخص فقير إشارة الى أن الفقر مقدس ، والى انه سوف ينجي العالم . نعم ،

فالخير مستحيل بغير الفقر . ومذ اخذت ثمن كتابى « **المراعبات** » شعرتُ بأنى صرتُ فظًّا طاغيًا (ان الانسانَ ليطغى أنْ رآه استغنى) ولدىَّ هنا فى حقيبتى بعض هذه الزنَّارات الرمزية لتبصرتى وتذكرتى فذلك خيرٌ وأوْلى .

ثم أشار الى كيس السجادة البشع المنظر الاحمر لونه كالدم ، وقال :

— وفيه أيضًا قربان أعطانيه قسٌّ طالح غير صالح ، وفيه كتب « مسيو دى ميستر » وأقصة ، وأشياء أخر . .

فرفعت « الكونتس مارتن » عينيها فى شىء من الفزع ، أمَّا « مدام مارميه » فظلت محتفظة بهدوئها .

وبينا كان القطار ينتهب الارض انتهابا ، ويشق الضواحى ، تلك الاطراف السوداء الكئيبة التى تحيط بالمدينة ، أخرج « شولت » من جيبه محفظة أوراقه وأخذ يقلِّب ما فيها ، وكشف الكاتب المتنكر فى ثوب جواب الآفاق عن نفسه ، وكان « شولت » من غواة جمع قصاصات الورق ، وان كان لا يحب أن يُعرف عنه ذلك . وكان يطمئن نفسه بأنه لم يفقد شيئًا منها حتى ولا القصاصات التى يدوّن فيها خواطره الشعرية على نُضُد القهوات ، لا ولا الاثنى عشر خطاب تقريظ ، القذرة التى علقت بها البقع وبصمات الاصابع ، حتى بليت

كافة ثناياها وهو يحملها دائمـا تأهُّبًا لتلاوتها ، على ضوء مصابيح الغاز ، على من يتفق أن يلقاه من عارفيه . . .

فلما رأى أنها موجودة برمتها ، أخذ من محفظته خطابًا مفضوضًا ، وقلَّبه بين يديه طويلاً ، ثم ناوله « الـكونتس مارتن » وكان خطاب تقدمة معطى له من « المركيزة دى ريو » الى أمـيرة من أميرات البيت الفرنسى المالك ، ولما استمتع « شولت » بالتأثير الذى ظن أن الـكتاب لابد محدثه ، قال أنه قد يزور الاميرة فهى تقية صالحة ، وأضاف :

— انها سيدة بديعة حقا ، لا تبدى للناس جلالها فى ثياب وقبعات ، فترتدى ملابسها الداخلية ست أسابيع سويًا ، وأكثر من ذلك أحيانا ! وقد رآها النبلاء أهل طبقتها مرتدية جوربا أبيض قذراً جدًّا متدليًا على حذائها .. وهى مجددة فضائل ملـكات الاندلس العظيمات . . . فيخ يخ يا أيها الجورب القذر ! . . يا لك من دليل على مجد غير مكذوب ! ! !

ثم استرد الخطاب ، وأعاده الى محفظته ، وأخرج مبراة مصنوعة من القرن ، وطفق يحفر صورة كاد يتم نصفها ، على مقبض عصاه ، وهو فى تلك الاثناء يصوغ لنفسه قلائد الثناء :

— أنا ماهر فى فنون الشحاثين والمتشردين كافة أعرف كيف أفتح الاقفال بمسمار ، وكيف أحفر الخشب بمدية رخيصة مثلومة !

و بدأت ملامحُ الصورة تتجلّى ، وكانت تمثّل وجهًا نحيفًا لامرأة باكية العينين . . ورمى « شولت » بذلك الى وصف الشقاء الانسانى وصفًا غير ما كان عند من سبقونا ، فقد كان هذا على بساطته مؤثراً ، بل رمى الى تصوير شقاء الانسانية فى شكله البشع وعلى حاله من القبح المرذول التى أنزله فيها أحرارُ الفكر من أوساط النـاس ، والوطنيون المتشيعون للعسكرية ثمرة الثورة الفرنسية .

فعنده ان الحكم الحالى لايمثل سوى اثنين : المراءاة والوحشية . وكان يروع فؤاده مذهب سيادة الجندية ، ومبدأ الحق للقوة ، فقال :

— ان ثكنات الجند بدعة منكرة من بدع العصور الحديثة . ولم تُنشأ إلاّ فى القرن السابع عشر ، على حين لم يكن يوجـد قديمًا غير بيوت الحرس حيث كان الجند القدماء يلعبون الورق و يقصون القصص ، ولو ان « لويس الرابع عشر » كان بالوفاق بشيراً ، و بونابرت نذيراً ، فان الشرَّ لم يستطر إلاّ منذ تأسس معهد الخدمة العسكرية الوحشى ، وعندى أن إكراه النـاس على قتل بعضهم بعضًا عارٌ على القياصرة والجمهوريات وهو جناية الجنايات . ففى العصور التى توصف بأنها همجية كان الدفاع عن الأمارات والمدائن موكولاً الى المسترزقة والأُجراء من الجنود الذين يقيمون الحرب بفطنة وحذر ، ولم تكن بعض المعارك الـكبيرة تتكشَّف أحيانًا إلاّ

عن خمسة ستة من القتلى ، ولم يكن الفرسان حين يذهبون الى الحرب يُرغمون على خوض غمارها إرغاماً ، فاذا قُتلوا كان قتلهم بمحض رغبتهم و بطيبة خاطرهم ، وما كانوا بلا مراء يصلحون لغير ذلك . وفى عهد « سان لويس » لم يكن يحلم أحد بارسال عالم أو رشيد الى ميدان القتال . ولم يكن الحارث ليؤخذ و يُجَرَّ من وراء محراثه ليجنَّد كرهاً ، أما الآن فيعد من واجب الفلاح المسكين أن يكون جندياً. الآن يُنفى من كوخه الذى يتصاعد الدخان من سطحه فى سكون المساء الذهبى ، و يُبعد من المراعى التى ترعاها ثيرانه ، ومن حقوله وغابات اسلافه ، و يُساق سوق النعاج الى فناء ثكنة من الثكنات المشؤومة حيث يُدَرَّبُ على قتل الناس قتلا نظامياً ! . . وهناك يُنهر و يُشتم و يُسجن ، و يُقال له : « هذا شرف » ! . . . و إذا لم يرغب فى مثل هذا الشرف رُمى بالرصاص ، فيخفض جناح الذل طائعاً لأن الخوف مركَّب فى فطرته ، وهو يعد من الحيوانات الأليفة ان لم يكن أشدها وداعة وسهولة انقياد !

ونحن ، فى فرنسا ، حر بيون كما نحن مدنيون ، فتمديننا مسوغ آخر للكبرياء ، ومعناه عندنا أن يعول الفقراء الاغنياء و يحافظوا عليهم بما لهؤلاء الأغنياء من سلطان وما هم عليه من بطالة ! و بهذا يُلزمون العمل أمام جلالة المساواة فى القانون . . تلك المساواة التى تحظر على الأغنياء والفقراء — على السواء — النومَ تحت الجسور ،

التسوُّل فى الشوارع وسرقة الخبز !!... وهـذه المساواة هى إحدى مزايا الثورة ونعمها علينا ! كأنما هذه الثورة قامت من مجانين وبُله لمنفعة غانى الثروة الأهلية ، ولم تكن فى نتيجتها إلاّ مموّلة لخبثاء المزارعين والمرابين ، ومقيمةً باسم « المساواة » دولة رأس المال ، ومُسْلِمةً بلادنا الى الموسرين الذين يلتهمونها لجيـل لقمةً سائغة ، وهم فيها الآن السادة الكبراء ...

وهذه التى تسمى حكومة ، هذه المؤلَّفة من خلائق شقية بئيسة صعلوكة منحوسة محرومة ، هى رهينة الممولين ، ومنذ مائة عام وكل من يحب الفقراء ويُعنى بشأنهم فى هـذه البلاد الموبوءة يُعَدُّ خائنًا للمجتمع ، كما يُعد خطراً من يقول ان ثَمَّ بؤساء يعانون الفاقة والشقاء ، ولقد بلغ الأمر بهم الى حدّ أنهم سنُّوا لوائح واقية من السخط والشفقة ، على ان ما أقوله الآن لا يمكن طبعه ونشره ! ...

وكان « شولت » يزداد حماسةً ويدير مبراته فى يده ، فى حين كانت تمر تحت شمس الشتاء البـاردة الحقولُ ذات التربة السوداء ، والأدغالُ التى جرّد الشتاء رؤوسَ أشجارها القرمزية من أوراقها ، وأفنانُ أشجار الحور الباسقة على ضفاف الأنهر الفضيّة.

فنظر فى حنان الى الوجه المحفور على عصاه ، وقال :

— هذه أنت ، أيتها الانسانية الشقية ، هزيلة الجسم باكية

العين ، بلهاء من المعرَّة والبلاء ، على نحو ما اصطنعك سيداك : الجندى والسرى .

فأحدثت الحملة الشديدة التى حملها « شولت » على الجيش صدمة فى نفس « مدام مارميه » الصالحة ، إذ كان لها ابن أخت بوظيفة « كابتن » فى المدفعية ، وهو شاب جميل شديد التعلّق بهنته

أما « الكونتس مارتن » فعدّتها دعابة من « شولت » فلم تزعجها آراؤه ، وما كانت تخاف شيئًا ، لكنها عدّت آراءه سخيفة نوعًا ما . فلم تكن ترى ان الماضى كان يمكن ان يكون بحال خيراً من الحاضر ، فقالت :

— أعتقدُ يا مسيو « شولت » أن الناس كانوا فيما مضى كما هم اليوم أنانيةً وشراسةً وشراهةً وقلوبًا غاضت الرحمةُ منها ، ففي رأيي أن الشرائع والعادات كانت دائمًا فظَّة قاسية على الفقراء .

* * *

وفيما بين محطتي « لاروش » و « ديجون » تناولوا الغداء فى عربة الطعام ، وبعده تركت السيدتان « شولت » فيها وحده ، فلم يكن معه الاّ غليونه وكأسه ونفسه الهائجة . .

ولما عادتا الى عربتهما تحدثت « مدام مارميه » عن زوجها فى شوق وهدوء . فقالت ان زواجهما كان عن طريق الغرام ، وانه كتب اليها قصائد جميلة احتفظت بها ولم تطلع أحداً عليها ، وكان

المرحوم رجلاً نشطاً بشوشاً ، ولم يكن يدور بخلد انسان أن يسقط وَهْناً تحت نِير العمل ويرزح ضَعْفاً من ثقل الداء ، فقد ظلَّ يعمل الى النفس الأخير . وكان يشكو من تضخّم فى القلب ، فلم يكن يتذوّق طعم الرقاد ، بل كان يمضى ليله على مقعده الكبير وكتبه الى جانبه على المنضدة ، وبذل قبيل وفاته بساعتين اثنتين جهده ليستمر فى المطالعة ، وكان شفيقاً طيب القلب ، واحتفظ بدماثة خلقه مع ما كان يعانيه من آلام . .

فلم تجد « الكونتس » أحسن من أن تقول :

— انك مازلت حافظة على ذكرى أعوام طويلة قضيتها سعيدة هانئة ، فهذا أيضاً يُعَدُّ حظّاً من السعد فى هذا الوجود .

لكن « مدام مارميه » تنهدت ، ومرّت بجبينها سحابة من الغم ، وقالت :

— نعم ، كان « لويس » خير الرجال وأحسن الأزواج ، وقد جعلنى على ذلك شقية تعسة ، إذ كانت له نقيصة واحدة ، بيد أنى عانيت منها الأمرين ، عانيت الغيرة ، فهذا الذى كان طيباً ما بلغت الطيبة ، حانياً جهد الحنو ، حليماً الى غير حد ، قد جعلته هذه العاطفة المنكرة مجحفاً بى قاسياً على ظالماً إياى ! وأؤكد لك أن سلوكى لم يكن يدع محلا لريبة ، فلم أكن غندورة ، غير انى كنت

فتنة الناظرين . وكان ذلك يكفى عنده ليحول بينى و بين الخروج وحدى ، أو مقابلة الزائرين فى غيبته . فأذا ذهبنا مرة الى المرقص ارتجفُ سلفاً لما يشجر بيننا من خلاف فى العربة ونحن عائدان آخر السهرة الى البيت .

وأضافت « مدام مارميه » الصالحة وهى تتنهد :

— حقيقة اننى شغفتُ بالرقص ، لكننى تركته على رَغْم أننى ، فلشدَّ ما كان يؤلمه ! . . .

فلم تُخْفِ « الكونتس مارتن » دهشتها ، إذ كانت تتصور « المسيو مارميه » شيخًا فاضلاً خجولا مشغولاً بموقف ادعى الى السخر وهو بين زوجه الرقيقة الطبع السمينة التى اشتمل رأسها شيباً ، وذلك التمثال تمثال فارسه « الاتروسكى » ذى الخوذة النحاسية المذهبة . . .

لكن الارملة الفاضلة أسرَّت اليها ان قرينها « لويس » كان لا يزال وهو فى الخامسة والخمسين غيوراً عليها كعهدها به ليلة بنائه بها . .

فتذكرت « تريز » ان «رو بير لومنيل» لم يضايقها قط بغيرة . وفكّرت فى هل كان ذلك دليل لباقته وحسن ذوقه ، أم انه لم يكن يحبهـا الى حدّ أن يغار عليها فيؤلمها ؟ فلم تحر جواباً ، ولم تجد من نفسها شجاعة على التقرّى والاستقصاء . فقد كان عليها أن تفتش

فى حنايا وخبايا قلبها عن ذلك ، ولـكنها اعتزمت الاّ تفتحها وآلت أن تسدل عليها حجب النسيان .

فغمغمت هذه الجملة ، وكانت منها فلتة :

— انّا نرغب فى أن نكون محبوبات ، فاذا ما أُحببنا ، عذبنا الحبُّ أو ضقنا به ذَرْعًا . . .

* * *

قَصَّرا نهارهما بالمطالعات والتأملات ، ولم يعد «شولت» الى لظهور . وكان الليل قـد جعل يرخى سدوله الرَّمادية على أشجار التوت ، فاستغرقت « مدام مارميه » فى النوم وادعة ، وأمالت رأسها على صدرها وكأنما تميله على عدة وسائد . .

فنظرت « تريز » اليها وقالت فى نفسها :

— انها سعيدة حقاً ما دامت تلذها ذكرى الماضى .

وحلّت كآبةُ الليل صميمَ فؤادها ، ولما طلع القمرُ على حقول الزيتون ، وبدت — فى خطوط رقيقة — تلك المناظرُ البديعة التى تمر بهـا القاطرة من سهول ووهاد وظلال مسرعة زائلة ، ورأتها « تريز » تحيط بها أصقاع يتحدث كل ما فيها عن السلام والنسيان ، وليس فيها ما يحدثها عن نفسها ، شعرت بالحنين الى نهر « السين » و « قوس النصر » وطرق باريس الزاهية بالنور ، المغروس على

جانبيها الشجر ، ومماشي « غاب بولونيا » . . حيث تعرفها على الاقل الاشجارُ والاحجار . . .

وعلى غرّة منها القى « شولت » بنفسه داخل العربة بفظاظة متصنّعة ، وقد تسلّح بعصاه المقدّدة ، ولفّ حول رأسه فراءً خشنة ولفاعًا أحمر ، فأزعجها وكاد يرعبها .

وكان ذلك ما أراد . فهيئته المنكرة ومنظره الوحشى كلاهما كان كذبًا . وكانت لديه توافه غريبة يستخدمها ليكون مخيفًا فيقرّ عينًا ، إذ يسره ان يسبب لغيره الخوف ، ذلك ان كان هو نفسه رجلاً هلوعًا جزوعًا « إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً » ! . .

وكان قبيل ذلك بدقائق معدودة جالسًا وحده يدخن غليونه فى آخر الممشى ، فأذا به يرى القمر وراء السحب الجارية فوق «دلتا لا كامارج»، فاصيبت نفسه الخيالية الخفيفة ببعض تلك المخاوف الصبيانية التى لا سبب لها

فأتى يهدىء من روعه بقرب « الكنتس مارتن » فقال :

— آرل ! أتعرفين آرل ! انها الجمال الخالص ! . . ولقد رأيت فى دير « سان تروفيموس » الحمام حاطًّا على اكتاف التماثيل و « السحالي » الصغيرة الرَّمادية تصطلي الشمس فوق الأجداث المصفوفة على جانبي الطريق المؤدى الى الكنيسة ، والتى يأوى اليها السائلون ليلاً يتخذون منها أسرة للنوم .

وفى ذات مساء ، بينما كنت أتنزه مع صديق « پول ارين » ؛ رأينا امرأة لطيفة علت بهـا السنّ تضع العشب اليابس على قبر عذراء ماتت بالأمس فى يوم عرسها ، فتمنينا لها مساء سعيداً فقالت :

— اللهم سَمْعاً ! على أن النحس أراد فتح هذا الناووس لريح الشمال ، ولو انه فتح للناحية الاخرى ، لرقدت كالملكة « حنّه » !

فلم تجب « تريز » ، إذْ غلب عليها النعاس ، فارتجف « شولت » فى برد الليل حَذَرَ الموت ، واستطاره الهلع ، واستفزَّه الجزع

« وهل جَزَعٌ مُنْجِيكَ مما تحاذرُ »

?

٨

أخذت «مس بل» كلاً من « كونتس مارتن بايم » و « مدام مارميه» فى عربتها الانكليزية،وساقتها بنفسها على منحدرات التل من محطة فلورنسا الى بيتها بفييزول الذى كان مطلياً بلون الورد تحيط به شرفة كبرى و يطلّ على المدنية التى ليس لها نظير.

وتبعتهن الوصيفة بالحقائب . أما « شولت » فقد أنزلته « مس بل » عند أرملة شمّاس تسكن بيتاً تُشرف عليه كتدرائية فييزول ، ولم يكن يحضر إلاّ ساعة تناول الطعام . وكانت الشاعرة المضيفة من رقة الشمائل ودماثة الخلق على جانب ، وكانت الى هذا على جمال قليل ولها ردف غير ثقيل ، قصيرة الشعر ترتدى قميص رجل على مثل صدر طفل .

فجعلت ترحب بضيفتيها الفرنسيتين فى دارها التى كانت تتجلّى فيها آيات لطفها المصفّى وذوقها السليم .

وعلقت على جُدُر البهو صور العذارى والملائكة والأولياء . وكان تمثال « المجدلية » على نصب من المرمر . وفي كل مكان كان شعار « مس بل » وهو تلك الأجراس الكبيرة والصغيرة ، وكان اكبرها مصنوعاً من البرنز موضوعاً فى زوايا القاعة ، وقد

اتسقت من الأجراس الأخرى سلسلة حول سفل الحيطان وزيّنت صغراها الأفريز . وكانت هنـاك اجراس على المصطلى والمشاجب والصـناديق . وكانت الخزُن البلورية ملأى بالاجراس الفضية والذهبية ، وثمَّ اجراس كبيرة من البرنز منقوش عليها شعار مدينة فلورنسا وهو « الـزنبقة الحمراء » وأخرى يرجع عهدها الى القرن السادس عشر صغيرة الحجم مصنوعة فى شكل نساء مرتديات (ملـكوفات) كالقباب . وكانت هناك أجراس الخيائز المزينـة بصور الدموع والهيا كل العظيمة المغطاة بأوراق الاشجار والحيوانات الرمزية ، وأجراس الموائد فى القرن السابع عشر وقد صُنعت مقابضها تماثيل صغيرة . وهناك أجراس صغيرة مسطحة رنّانة خاصة بالابقار التى كانت ترعى فى أودية « روتلى » وأخرى هندية وهى من أحكام الصنعة بحيث تدق دقاً ناعماً رخياً وقد صُنعت مقابضها من قرون الوعول . وأخيراً ، كانت هناك أجراس صينية اسطوانية الشكل . فهذه الاجراس المختلفة اقبلت من كل انحاء المعمورة ومن كل الأزمنة والعصور ملبية النداء السحرى الذى نادته هذه الصغيرة « مس بل » !

قالت تخاطب « الـكونتس مارتن » مشيرة الى الأجراس :

— ها أنت ذى تنظرين الى ضروب شعارى الناطقة ، وفى ظنى أن كل هؤلاء الأوانس اللواتى يحملن اسم «بل» (اى جرس)

سعيدات هنـــا . ولن تعتريني شديد دهشة إذا سمعتها وقد رفعت عقائرها بالغناء جميعًا ! لـكن عليك الاّ تعجبي بها كلّها على حـــد سواء ، فَضنّي بثنائك الأجمل على هذا . .

ونقرت بأصبعها على جرس قاتم اللون فتعالى له صوت جهير ، واستطردت تقول :

— كان هذا الجرس لقديسة فلاحة من أهل القرن الخامس ، وهو مصنوع من معدن نادر ، ولن ألبث أن أعرض عليك الى جانبه جرسًا فلورنسيًا اليه تنتهي الرقبة ، وهو مليك هذه الاجراس ، على أنني أضايقك بهذه اللعب ياعزيزة ! كما اضايق « مدام مارميه » السيدة الصالحة ! وهذه شقاوة مني !

وأخذتهما الى حجرتيهما . و بعد ساعة ، استراحت « الكونتس مارتن » وتجددت قواها فنزلت ، في ثوب من الحرير الموشّى ، الى الشُرفة حيث كانت « مس بل » في الانتظار .

وكانت الشمس لا تزال واهنة فاترة ، على انها منتشرة ساطعة . وكان الهواء الرطب عابق بشذى الربيع . .

فاستندت «تريز» الى سور الشُرفة وكحلت عينيها بالنور . .

وهنـــا ، عند قدميها ، ذهب شجر السرو صُعُداً رافعًا هاماته السوداء ، وقد اشتبكت أشجار الزيتون فوق المنحدرات . وهناك ، في جوف الوادي ، نهدت فلورنسا بقبابها و بروجها وسقوفها الوفيرة

الحمراء ينساب بينها نهر « الارنو » متموجًا . . ووراء ذلك كله ، كانت تنهض الروابى الزرقاء . . .

فحاولت ان تستكشف حدائق « بوبولى » التى تنزَّهت فيها مرة فى إحدى زياراتها السابقة ، فاجتذبها اتساع صفحة السماء الجميلة اتساعًا لا يُحَدُّ ، فأجالت نظرها فى السحب وهى تتشكل متقشعة . . . وبعد صمت طويل ، مدت « ڤيڤيان بل » يدها نحو الافق وقالت :

— لا أستطيع يا عزيزة ان اعبر عن ذات نفسى ، ولا أعرف كيف أقول ! انظرى ياعزيزة انظرى ثانية ، واشهدى ان ماترينه لهو من مناظرالدنيا النادرة الفريدة . فليس فى أى مكان،عدا هذا ، طبيعة بمثل هـذه الدقة والرقة واللباقة ! وأحسب ان الاله الذى أبدع فلورنسا كان فنّانًا . نعم ! كان جوهريًا وصانع اوسمة ، كما كان مثّالاً ومن المصوّرين ، وقد كان فلورنسيا ! وأحسبه ياعزيزة لم يخلق شيئًا كائنًا ما كان غير هذا . اما الثانى فصُنْع يد أقل رقة ولذلك جاء عملها أقل كمالاً . إذ كيف يمكن أن يكون هـذا التل البنفسجى « سان ميناسو » الناهض هذا النهوض الثابت الصافى من صنع صانع « الجبل الابيض » ؟ ! ليس هذا جائزاً ، فهذا المنظر الخلوى ياعزيزة نرى فيه كل الجمال الذى نراه فى وسام قديم ورسم قيم ثمين . فى الحق انه طُرفة كاملة التناسق . وثمة شىء غير هذا لا أستطيع تبيانه لأننى لا أستطيع إدراكه ، مع أنه واقع . ذلك اننى

أشعر ، وستشعرين شعورى ياعزيزة ، أن هذه البلاد نهب بين الحياة والموت يتقسَّمانها ، على حالها المتناهيه فى النبالة والكآبة والملاحة . فانظرى ، وتمعَّنى ، تتكشَّف لك أحزان هذه الروابى المحيطة بفلورنسا إحاطة السوار بالمعصم ، وتشهدى حزنًا لذيذاً صاعداً من أرضى الموتى...

وكانت الشمس تنحدر الى الافق ، فأخذت قمم التلال تنطفىء واحدة واحدة ، على حين ان السحب كانت كأنها تتلهَّب فى كبد السماء تلهُّبًا . . .

وعطست « مدام ماريه » . فأمرت « مس بل » بأحضار الملاحف ، وحذرت ضيفتيها الفرنسيتين برد الليل ؛ ثم قالت فجأة :

— عزيزة ! أتعرفين مسيو «چاك دى شارتر» ؟ إذن فاعلمى أنه كتب إلىّ أنه سيكون بفلورنسا فى الاسبوع القادم . ولشد ما يبهجنى أن يكون مسيو « چاك دى شارتر » فى مدينتنا وأنت فيها . وسيصحبنا الى الكنائس والمتاحف فيكون نعم المرشد الدليل . فهو يفهم الاشياء الجميلة ، لأنه يحبها . وهومثَّال ممتاز تقدر تماثيله فى انجلترا بأعظم مما تقدر فى فلورنسا . وآفرحتاه باجتماع مسيو « چاك دى شارتر » و إياك فى فلورنسا ! . . .

٩

فى اليوم التالى ، بينا كانتا خارجتين من « سانتا ماريا نوڤلاّ » تعبران الساحة المنتصبة فيهامسلتان من المرمر ، قالت « مدام مارميه » تخاطب « الكونتس مارتن » :

— أظن هذا هو المسيو « شولت » !

وكان جالساً عند إسكاف ، وفى يده غليونه ، وهو يشير اشارات متوازنة ، كأنه يلقى قصيدة .

وكان الخصّاف الفلورنسى يشتغل بمخرزه مصغياً ، رقيق البسمات ، وكان رجلاً ضئيل الجسم أصلع الرأس كأنه أحد الاشكال التى نعرفها فى صور المصورين الهولنديين . وكانت أمامه على المنضدة أصص ريحان بين القوالب الخشبية والمسامير وقطع الجلد وكرات الشمع . كما كان هناك عصفور ذو رجل صناعية متّخذة من عود ثقاب ، وهو يقفز برجله الواحدة من كتف صاحبه الهرم الى رأسه .

فسرت « الكونتس » بهذا المنظر ، ووقفت على باب الدكان ونادت « شولت » الذى كان يلقى القصيدة بصوت غنائى ناعم ، وسألته كيف لم يصحبها فى زيارة « معبد الاسبان » فنهض مجيباً :

— انك ياسيدتى مشغولة بالأوهام العقيمة ، وأنا معنيٌّ بالحقيقة والحياة ! . . .

ثم صافح الخصَّاف وتبع السيدتين ، قائلاً :

— لقد رأيت فى طريق الى « سانت ماريا نوڤلا » هـذا الشيخ مُكباً على عمله ، ممسكاً بين ركبتيه بالقالب وكأنه بينهما فى مكْبس ، وهو يرتق الأحذية الضخمة ، فشعرت بأنه رجل ساذج ، وتوسَّمت فيه الصلاح . فقلت له بالايطالية : « ألك يا أبى فى شرب كأس من نبيذ الـكيانتى معى ؟ » ، فأظهر حسن القبول . وذهب ليأتى بزجاجة وكأسين ، وجلست أحرس حانوته .

ثم أشـار « شولت » الى كأسين وزجاجة على الموقد ، واستطرد قائلاً :

— ولما عاد شربنا معاً ، وألقيت على مسمعه كلمات طيبـات ذات معان مبهمات ، طابت له نغمتها وراقته لهجتها . وسأعود الى حانوته ، وأقسمت لأتعلمنَّ منه وآخذنَّ عنه رمَّ الأحـذية وأعيش قنوعاً متجرِّداً من الشهوات ، فلن أشعر بعد بالكآبة التي لا منشأ لها غير الشهوة والفراغ .

فابتسمت « الـكونتس » وقالت :

— اننى يامسيو « شولت » لا أشتهى شيئاً ، ومع ذلك لا أجدنى فرحة منشرحة ، أيجب ان أتعلم أيضاً رمَّ الأحذية ؟ ؟

فأجاب « شولت » برزانة :

— لم يؤن الأوان بعد . . .

*

* *

ولما وصلوا الى حدائق «اورتشلاَّرى» سقطت « مدام مارميه» إعياءً على مقعد .

وفى « سانتا ماريا نوڤلاَّ » قامت تفحص صور الدير البديعة بعناية واهتمام إكرامًا لذكرى المرحوم زوجها الذى يؤثر عنه أنه أحب الفن الايطالى . فأصابها من ذلك ما أصابها من تعب ونَصَب، فجلست وجلس « شولت » الى جانبها وقال :

— أحقًا ياسيدتى أن البابا يصنع ثيابه عند « ويرث » ؟

فقالت « مدام مارميه » أنهـا لا تظن . فأكَّد « شولت » أنه سمع بهذا فى القهوات . فأبدت « الكونتس مارتن » دهشتها من أن « شولت » يتكلم باحترام قليل الى هذا الحد عن « البابا » صديق الجمهورية ، مع أنه كاثوليكى اشتراكى . بيد أن « شولت » لم يكن يميل الى « البابا ليو الثالث عشر » فقال :

— فى زعم « ليو الثالث عشر » ومراده أن يتمَّ خلاص الكنيسة على يد الجمهورية الايطالية ، لكن خلاص الكنيسة لن

يتم بالطريقة التي ينتظرها ذلك « الميكيا ڤيلى » التقيّ . . لأن الثورة ستجرّد « البابا » من النذور التى يستولى عليها ظلماً وافتئاتاً كما تجرّده من بقية سلطته الزمنية الباقية ، فاذا تجرد البابا من سيادته الزمنية وافتقر عاد قوياً وهزّ العالم هزّاً ، وظهر في شخصه أشخاصُ اسلافه الباباوات الخمسة الأوائل الأذلة الجهلاء قديسى العهد القديم الذين غيرّوا معالم الغبراء ، فاذا حدث غداً مثل هذا الأمر المستحيل ، وجلس فى كرسى الباباوية أسقف حقيقى مسيحى صادق ، ذهبتُ اليه وقلت له : « يا صاح ! لا تكن رجلا متهدماً مدفوناً حياً فى قبر من ذهب ! . . فاترك خزَنتك البخلاء وحرسك النبلاء وكهنتك الوجهاء واهجر بلاطك نابذاً مظاهر السلطان فهى هباء ! . . وهلمّ ضع يداً على كتفى وامدد الأخرى مستعطياً خبزك من الشعوب . وستكون وأنت مريض محتضر تذرع الطرقات وتقطعها طولاً وعرضاً فى أسمالك البالية وفقتك المتناهية ، ستكون موسوما بميسم السيد المسيح . قل : « اننى أستعطى خبزى لكيما يُعَيِّرُ الأغنياء » . هيا أدخل المدن واصرخ صادعاً من باب الى باب فى حماقة سامية : « أيها الناس ! كونوا وُضعاء ودعاء ، وكونوا فقراء بؤساء ! » . حيّ على السلام ، وادعُ الى البر والأحسان فى المدائن الحالكة الظلام ، وفى ثُكنات الجند ، وفى الأكواخ الحقيرة . فتُمتهن وترمى بالحجارة . ويجرُّك الحراس الى غيابة السجن . ويتّخذك الكبيرُ والصغير

والغنى والفقير جميعًا ضحكة وهُزُؤاً ، وموضع الاشمئزاز والاشفاق . ويخلعك كهنتك ويعينون مكانك « بابا » معارضًا لك وحربًا عليك ويقول الناس طُرًّا عنك أنك مجنون . ويجب أن يكون حقًا ما يقولون . فعليك أن تجن حقًا فان المجانين هم الذين أنقذوا العالم ! .. سوف يتوّجك الناس بأكليل من الشوك ، ويضعون فى يدك صولجانا من القاب ، ثم يبصقون فى وجهك . . وبهذه الشارات يعرفون فيك الملك الحق ، المسيح المنتظر . . . وبمثل هذه الوسائل تقوم الاشتراكية المسيحية ، ظل الله على الارض . . . »

وضرب « شولت » على هذه النغمة ، وأشعل سيكاراً ايطاليًا طويلاً مثقوبًا من وسطه بعود من القش . ثم نفخ بضعة أنفاس من الدخان الفاسد ، واستطرد قائلا في هدوء :

— وسيكون هذا يسيراً عملياً . وفى الامكان تجريدى من كل الصفات الاّ من دقة النظر وبُعده . وأنت يا « مدام مارميه » ! إنك لن تعرفى على الحقيقة الى أى حد تمت الأعمال العظيمة فى هذا العالم على أيدى المجانين . أفتظنين أيتها « الكونتس مارتن » أنه لو كان « القديس فرنسوا داسّيز » عاقلا ينضح وجه الأرض بماء الرحمة فينعش الناس ؟

فأجابت الكونتس :

— والله ما أدرى ! علي أننى أجد العقلاء دائمًا ثقلاء . . ولست

أتردد فى أن أفضى بذلك إليك أنت بخاصّة، يامسيو «شولت»! . . .

وعادوا الى « فيبزول » فى الترام الذى يسير صُعُدًا عن طريق التّل. وكان المطر ينهمل . فاستغرقت « مدام مارميه » فى النوم . وهبّ « شولت » يزمجر وينوح. فى دفعة واحدة حلّت به المصائب وانهالت عليه النوائب . فأحدثت رطوبة الجو فى ركبته ألمًا لم يستطع معه أن يثنيها . وفقد كيس سجادته بين المحطة « وفيبزول » ولم يعثر له على أثر فى الطريق ، وناهيك بخسارة مثل هذا الكيس العتيق ، الأثرى العريق ! . . فتلك مصيبة لا يمكن تلافيها ، وفجيعة لا ينفع العزاء فيها ! . . أما ثالثة الأثافى فمجلة باريسية نشرت له فى ذلك اليوم النحس قصيدة من شعره مشحونة بغلطات مطبعية فاحشة ، كبيرة كأحواض الماء المقدس ، واسعة كالمحارة التى قيل أن « أفروديت » ولدت فيها ثم انشقت عنها وخرجت منها !

واتّهم الناس والكائنات جميعًا بالعمل على كيده ونكايته ، وبأنها عدوة له وشؤم عليه !

فزهقت نفس « الكونتس » من « شولت » ومن المطر معًا، وخيل اليها كأن صعود الترام التلّ لا ينتهى . . .

ولما وصلت إلى منزل الأجراس ، ألفت « مس بل » فى بهو الأضياف تنسخ بحبر ذهبى على رق أشعاراً نظمتها ليلاً .

فلما دخلت عليها صاحبتها رفعت رأسها الصغير الذى يضىء ويشتعل بعينيها النجلاوين ، وقالت :

— اقدم اليك يا عزيزة الأمير « البرتنلى »

وكان الأمير واقفاً على مقربة من المصطلى يبدى للناظرين جماله الفاتن الذى تهذبه لحية كثة سوداء ، فحياها بقوله :

— ستودع السيدة أفئدتنا محبة فرنسا ، مالم تكن هذه العاطفة سبقت فحلت فى قلوبنا .

وسألت « الكونتس » صديقتها الشاعرة أن تتلو عليهم أشعارها التى تنسخها . فاعتذرت بأجنبيتها عن اسماعها لهم أوزانها غير المتقنة ، ثم ألقت قصيدتها بصوتها الرخيم الشبيه بزقزقة العصفور .

فقال شولت :

— بخ بخ زه زه ما أبدع وماأروع ! . . كأنى بهذا الكلام يسفر عن « ايطاليا » المحجّبة بالضباب والغمام ! . .

فقالت الكونتس مارتن :

— نعم ، هذا بديع . لكن ياعزيزتى ڤيڤيان لِمَ يريد طفلاك الجميلان المذكوران فى قصيدتك أن يموتا ؟

— ذلك أنهما يا عزيزة شعراً بالقدر الممكن من السعادة ، فعادا لا يريدان شيئًا . ولم يبق لهما ما يؤملان أو يتمنيان فقطعا حبل الأمل . كيف لا تفهمين ذلك ؟

— إذاً فى اعتقادك اننا إذا كنا نعيش فذلك لأننا ما زلنا على أمل ؟

— نعم يا عزيزة ، إنَّا نعيش فى انتظار ما يأتى به الغد ، الغد ملك أرض الخيال ، وسلطان الأحلام ، المدثّر بدثار اسود أو أزرق موشّى بالزهور والنجوم والدموع . . .

فواهاً لك أيها الغد !

ارتدوا ثيابهم ليتناولوا طعام العشاء ، وكانت « مس بل » مشتغلة فى الصالون برسم صور وحوش تقليداً « لليوناردو دافنشى » . وكانت ترسمها لترى ما تقول لها تلك الوحوش بعد إذ يتم تكوينها ، زعماً منها أنها ستتكلم وتعبر بالمعجب المطرب عن نادر الفِكر . وعندئذ تصغى لها . وعلى هذه الطريقة كانت تبتدع أشعارها غالباً .

وكان الأمير « البرتنلّى » آخذاً فى الترنم بالأغنيـة الصقلية المشهورة « يالولا ! » ، وأنامله تلمس أصابع البيانو لمساً ناعماً .

وهناك « شولت » تزداد خشونته عن عادته ، يطلب إبرة وخيطاً ليرتق فتوق ثيابه ، وهو يتنهد حسرة على ما أضاعه من أدوات الخياطة البسيطة التى كان يملكها وظل يحملها فى جيبه زهاء ثلاثين عاماً ، تلك الأدوات التى جعلها عزيزة عليه ما كانت تبعثه فى نفسه من حلو التذكارات وما توحيه اليه من نصح وارشادات . وكان يحسب أنه فقدها فى أحدى حجرات قصر « بيتى » ، وهو لذلك ناقم على أسرة « مديتشى » والرسامين الطليان ويحمّل الجميع تبعة تلك الخسارة الفادحة . .

فنظر الى « مس بل » شزراً وقال :

ــ أما أنا فأنظم اشعارى أثناء اشتغالى بترقيع ثيابى ، وألتذّ

بالعمل اليدوى ، واغنّى نفسى أغانىّ وأنا أكنس غرفتى ، ولهذا تؤثّر أغانىّ فى الناس وتصل الى قلوبهم كأغانى الزرّاع والصنّاع القديمة التى هى وإن فاقت أغانىّ جمالاً لم تفقها طبيعية . وإنى فخور بأنى لا أرضى لنفسى خادمًا سواها . فقد حدث أن أرملة شمّاس الكنيسة التى أسكن عندها سألتنى أن ترتق فتوق أطمارى فأبيت عليها أن تفعل . فبئس إذلال الغير بتسخيرهم فى أعمال يمكننا أداؤها بأنفسنا ، دون ان يضع ذلك من قدرنا أو يجرح عزّتنا . . .

وكان الأمير لا يزال يعزف بتراخ ألحان الموسيقى البطيئة . وجعلت « تريز » تتذكر ما حدث لها فى مرافقاتها « لمدام مارميه » أثناء زيارة الكنائس والمتاحف وما نالها من سآمة وضجر فى تلك الزيارات بسبب ما كانت تبديه تلك السيدة ، بلا انقطاع ، من مقارنة صور قدماء الرسامين بأشخاص من صحبها وعارفيها ، مع إصرارها على إيجاد أوجه مشابهة بين هؤلاء وهؤلاء . وكان من رأى تريز : (ان هذه الصالحة « مدام مارميه » مبالغة فى التعقّل . . أنها تضايق !) . وأخذت تفكر فى أن تغادرها بفيزول وتذهب وحدها الى زيارة الكنائس ، مرددة فى نفسها كلمة أخذتها عن « لومنيل » وهى : « سأوزّع مدام مارميه ! »

ودخل القاعة شيخ رشيق ، وكان شاربه المشمّع الملمّع قد كسبه هيئة الضابط الهرم ، وبدت من تحت عوينات نظراته الخائنة

ترسلها عيناه اللتان أضعفهما وزادهما الدرس والأفراط فى الملذات ، وهنًا على وهن . . وكان الرجل من أهل « فلورنسا » وصديقا للمس بل والأمير « البرتنلّى » ، ويدعى الاستاذ « الرّيغى » . وكان فى صباه محطَّ أنظار النساء . أما اليوم فهو ذائع الصيت فى « تسكانيا » و « ميليا » بمباحثه الزراعيه . وسرعان ما راق « السكونتس » وأعجبها. على أن آراءها لم تكن فى جانب ما هى عليه حالة الريف الايطالى ، فاستفهمت من الاستاذ عن وسائله والنتائج التى توصل اليها . فأجاب بأن قاعدته هى الشروع فى العمل بعزم وتدقيق ، واستطرد قائلا :

— ان الارض كالمرأة ، تريد الرجل معها غير خَجِل ولاحَشِن

وكانت أجواز السماء تتجاوب برنين « السلام عليك يامريم » الذى يدق فى برج الكنيسة ويجعل من الفضاء أرغولا دينيًا عازفًا . فقالت « مس بل » :

— هلاَّ فطنت ياعزيزة الى أن دق النواقيس فى المساء يجعل جو فلورنسا ذا جلجلة ورنين فضي ؟

فهبَّ « شولت » يقول :

— ياللغرابة ! . . إنّا ليبدو علينا سيما الانتظار !

فأجابت « ڤيڤيان بل » أنهم فى الواقع ينتظرون « مسيو دى شارتر » الذى تأخر قليلاً ، وتخشى ان يكون قد فاته القطار .

فاقترب « شولت » من « مدام مارميه » ، وقال بصوت رصين رزين :

— أيتها السيدة مارميه ! أيمكنك ان تنظرى مرة الى باب ، الى باب بسيط من خشب مدهون ، مثل بابك أو بابى أو هذا الباب أو أىّ غيره من الأبواب دون أن ترتعد فرائصك فَرَقًا ورعبًا من تصوّر الزائر الذى يُحتمل قدومه فى كل لحظة ؟؟ إن باب مسكننا يا « مدام مارميه » مفتوح على مصراعيه إلى اللانهاية ... فهل فكرت مرة فى ذلك ؟ أنعرف حقيقة اسم الذى أو التى فى شكل بشرى ووجه مألوف وثياب عادية يدخل أو تدخل بيتنا ؟

وقال « شولت » أنه ، من جهته ، ما كان يستطيع وهو منفرد وغرفته موصدة عليه أن ينظر الى بابها دون أن يقفّ شعر رأسه خوفًا . .

لكن « مدام مارميه » قالت أنها تستطيع أن تنظر الى أبواب صالونها تُفتح بغير أن يعتريها اضطراب . لأنها تعرف أن كل من يأتون اليها يوصفون بأنهم « أُناس ظرفاء »

فنظر اليها « شولت » مغتمًّا ، وهزّ رأسه قائلا :

— أى « مدام مارميه » ! أى « مدام مارميه » ! إن لأولئك الذين تدعينهم بأسمائهم العالمية لأسماء أخرى لا تعرفينها على أنها أسماؤهم الحقيقية . .

فسألت « الكونتس مارتن » « شولت » هل يعتقد أن المصاب اذا أراد أن يصيب قوماً يعوزه اجتياز عتبة دارهم ؟

وقالت :

— ألآ إن المصاب داهية حاذق فيأتى من النافذة كما يخترق الجدار ، وهو وإن كان لا يظهر للناس دائما كامن كائن ابداً . وعندى أن الأبواب المسكينة بريئة من وفود هذا الزائر المشئوم ولا ذنب لها . .

فحذّر « شولت » « الكونتس مارتن » وصفها زيارة المصاب بالشؤم ، قائلا :

— أن المصاب أكبر معلم لنا وخير صديق ، فهو الذى يعلمنا معنى الحياة . أى سيداتى ! اذا تألمتنّ عرفتنّ ما عليكن معرفته ، وآمنتنّ بما ينبغى لكنّ الايمان به ، وفعلتنّ ماعليكنّ فعله ، وصرتنّ ما يجب أن تصرن . فتنلن السرور الذى ينفيه اللهو ، لأن السرور الصادق خجول لا يبدو فى زؤاط الافراح والليالى الملاح . .

فقال « الأمير البرتنّلى » : أن لا « مس بل » ولا صاحبتاها الفرنسيتان فى حاجة الى الشقاء لتكمل صفاتهن . وأن مذهب التوصل الى الكمال عن طريق الألم بُعدٌ ، تحت سماء ايطاليا الجميلة ، قساوة وحشية . .

ثم عاد الأمير وقد خفتت حدة الحوار الى التوقيع على البيانو

باحثًا فى حذر عن نغمات الدور الصقلى الرقيق « يالولا ! » خشية أن يعدوه الى نغمات شبيهة بدور « اللقيط » Il Trovatore

وطفقت « مس بل » تسائل بصوت شديد الخفوت وحوشها التى صورتها ، وتتذمر من تفاهة أجوبتها . على حين أن الأمير الجميل كان اذ ذاك يغنى وقد جرف روحه تيار الالحان الرخيمة ، وجعل صوته يتموّج ويتبسّط كذيل الطاووس . . ثم يعود فيتضخّم . . ثم يتضاءل فى الآهات الناعمة . . ويروح . .

فقالت « مدام مارميه » الصالحة وهى شائعة العينين نحو الباب البلورى :

— أظن « المسيو دى شارتر » قد أقبل !

فاستقبلته « مس بل » بصيحات صغيرة كزقزقة العصفور ، قائلة

— يا مسيو دى شارتر لقد كنا ننتظرك بنافد الصبر ، وكان مسيو « شولت » يطعن فى الأبواب وعليها ويقول عنها السُّوءى . نعم ! كان يطعن فى أبواب المنازل كما كان يقول أن النحس سيد طاعن فى السن من أهل المروءة ! لقد خسرت كل هذه الأشياء البديعة ، وأطلت انتظارنا لك يا مسيو دى شارتر ؟ فما علة تأخيرك ؟

فاعتذر بأنه لم يستغرق من الزمن إلاّ ما كاد يكفى لذهابه الى الفندق وتغيير ملابسه . حتى أنه لم يذهب للسلام على صاحبه اللطيف العظيم ، ذلك التمثال البرنزى ، تمثال « سان مارك » ،الذى يؤثرّ فى

النفس .بوقفته فى كوّته بحائط «أور سان ميكيلّى» . ثم شكر للشاعرة وأثنى عليها . وحيّا « الكونتس مارتن » بفرح مكتّم لم يكد يخفى ، وخاطبها بقوله :

— قبلما غادرت باريس ذهبت أزورك فأنبأونى أنك سافرت تستقبلين الربيع عند « مس بل » فى فيزول ، فامّلت اذ ذاك فى لقائك بهذه البلاد التى أحبها الآن اكثر من حبى لها أبدا . . .

فسألته هل مرّ بادئًا بالبندقية وشاهد ثانية فى « راڤنّا » الملائكة المتوجة رءوسها بهالات من نور ، وشاهد الأشباح البرّاقة ؟

فأجاب سلبًا . انه ما وقف بأى مكان بل جاء رأسًا . فلم تقل شيئًا . وظلت شاخصة البصر الى زاوية الجدار الذى يعلوه ناقوس « سان بولان » فقال لها :

— أتنظرين الى برج الناقوس ؟

فألقت « ڤيڤيان بل » بأوراقها وأقلامها وقالت :

— سترى يا « مسيو دى شارتر » عمًّا قليل بعينيك ما يؤثّر فيك ويستهويك . فقد عثرت فى « رامينى » على ملك الأجراس الصغيرة فى معصرة خمر متهدمة قام على انقاضها اليوم حانوت . فاشتريت الجرس ووقفت على شحنه بنفسى.وأجدنى ذاهبة الصبر وقد سئمت الانتظار فلن أشعر بالحياة حتى يصل ! وسترى على ظهر هذا الناقوس رسم المسيح المصلوب بين السيدة العذراء والقديس

« يوحنا » ، وتاريخ العام الأربعمائة بعد الألف من الميلاد ، وشعار أسرة « ملتستا » . ويلوح لى يا مسيو « دى شرتر » انك غير صاغ إلىَّ كما يجب ، فأرعنى سمعك ، ففى العام الذى ذكرت لك فرَّ الفنَّان « لورنزو غيبرتى » من الحرب والطاعون ولجأ الى أسرة « ملتستا » فى « رامينى » . وليس شك فى أنه هـو الذى رسم الأشكال التى على ناقوسى الجديد ، فلا تلبث أن ترى هنا فى الاسبوع القادم صناعة « غيبرتى » .

* * *

أُعلن إعداد المائدة .

فبسطت المضيفة لهم عذرها بأنها ستقدم لهم طعامًا على الطريقة الايطالية ، فطاهيها من شعراء « فيزول » .

وتجاذبوا على المائدة أطراف الحديث . وأمامهم زجاجات النبيذ الايطالى المحوطة بقش الذرة . فذكروا بالخير القرن الثامن عشر ، وأثنى الأمير « البرتنلّى » أطيب الثناء على أهل الفن فى ذلك العهد لتضلعهم من العلوم كافة ، ولحبهم الفن حبًا خالصًا قويًا ولنبوغهم . وكان يتكلم بُغُلوّ ، وصوته يفيض حنانًا .

وكذلك كان « دى شارتر » معجبًا بهم ، ولـكن من وجهة أخرى ، فقال :

— لكيما نثنى على هؤلاء الذين اشتغلوا بكل ما فى قلوبهم من حرارة التعبد للفن ، من « جيوتو » الى « مازاكيو » ، ولكيما نمدحهم مديحًا لا نتجاوز به القصد ، أرى أن يكون المديح معتدلا دقيقًا . فعلينا أن نبدأ بوصفهم فى أماكن عملهم ، فى مشاغلهم حيث كانوا يعيشون عيشة الصنّاع . فهناك إذا رآهم المرء مشمرين عن ساعد الجد فى عملهم قدَّر بساطتهم وتبريزهم حق قدرهما . لقد كانوا على جهالة وخشونة ، وقليلاً ما قرأوا وقليلاً ما رأوا . وكانت التلال المحيطة بفلورنسا تضرب من حولهم نطاقًا وتقوم لأبصارهم وأذهانهم أُفُقًا . فما كانوا يعرفون غير مدينتهم والكتاب المقدس وبعض شظايا العاديّات التى كانوا يدرسونها مشغوفين معتزّين بها .

فأجاب الاستاذ « الريغى » :

— أصبت . ولم يكن يشغل بالهم إلا استخدام خير الطرق واتخاذ مُثْلى الوسائل . فكانت أذهانهم منصرفة بكليتها الى إعداد الأذهان وسحق الألوان . وأدرجوا فى عداد النابغين ذلك الرجل الذى ابتكر لصق النسيج على إطار . وكانت لكل استاذ طرقه ومعادلاته فى تركيب الألوان على قواعد يُعنى بكتمانها جهده .

فعاد « دى شارتر » يقول :

— لم يكن أحد فى ذلك الزمن الهنىء يخال مطلقًا وجود الابتكار

الذى نحن اليوم شديدو التعلق به والتلهف عليه . فكان التلميذ يدأب فى تقليد معلمه والتأسّى به وكل ما يطمح اليه ان يحاكيه ، و بذلك كان يختلف عن سواه دون قصد منه . وما كانوا يشتغلون حبًا بالمجد أو طلبًا للشهرة بل حبًا بالحياة وطلبًا للكفاف .

فأجاب « شولت » :

— لقد كانوا على صواب فليس خير من العمل فى طلب الرزق

فاستطرد دى شارتر فى الكلام :

— ولم تكن الرغبة فى تخليد ذكرهم تقع منهم قط فى بال أو تعكر عليهم صفو بلبال . ولما كانوا لا يعرفون شيئًا عن الماضى كانوا لا يفكرون فى المستقبل . فأحلامهم محصورة فى الحاضر لا تعدو أيامهم . وكانوا يبذلون جهدهم فى إجادة عملهم ، وقلما يخطئون لأنهم كانوا سذّجًا يرون الحقائق التى يحجبها عنا ذكاؤنا . .

وفى غضون ذلك أخذ « شولت » يقص على « مدام مارميه » حديث زيارته فى الصباح للأميرة الفرنسية سليلة البيت المالك ، التى أعطته « المركيزة دوريو » خطاب تقدمة اليها . وكان يلتذّ ان يفهم سامعيه من طرف خفى انه ، وهو الغجرى جوّاب الآفاق ، قد استُقبل من لدن هذه الأميرة الملكية التى ما كانت « المس بل » ولا « الكونتس مارتن » لتحظيا بشرف المثول بين يديها ، وهى التى يباهى الأمير «البرتنلّى» بأنه قابلها يومًا فى إحدى « التشريفات »!

فقال الامير :

— انها شديدة الورع عاكفة على العبادة .

فقال « شولت » :

— ان نبالتها التى مزاجها البساطة تستحق الاعجاب . فهى تعيش فى قصرها محوطة برجال الشرف وسيداته ، شديدة التمسك بآداب السلوك . ونراها تكفّر عن علو مكانتها وشرف محتدها بأن تذهب صبيحة كل يوم الى كنيسة القرية تغسل بلاطها المحفور المقلوب من ارتياد الدجاج لها بينما يكون الخورى جالساً يلاعب الشمّاس بالورق لعبة « البصرة » !!

وانحنى « شولت » يقلّد ، وبيده فوطته ، الاميرة الغسالة وهى جالسة القرفصاء !. ثم رفع رأسه وقال فى وقار :

— وبعد وقت مناسب قضيته منتظرا فى سلسلة من الصالونات أذن لى بالدخول عليها وتقبيل يدها .

ثم سكت فسألته « الكونتس مارتن » بلهفة :

— وبعد ، فما قالت لك هذه الاميرة الفاتنة بما هى عليه من نبالة وبساطة ؟

فقال شولت :

— قالت لى « أزرتَ فلورنسا ؟ ان الثقات أكدوا لى انه

قد فُتحت بها منذ عهد قريب حوانيت ذات بهاء ، وانها تنار فى المساء ، بنور اسمه الكهرباء ! »

ثم قالت لى : « هنا صيدلى ما هر لا يبزّه أولئك الصيدليون النمساويون ، فقد ألصق على ساقى لصقة منذ ستة اسابيع لم تقع الى الآن ! »

هذا نص الكلمات التى تكرمت الاميرة « مارى تريز » فوجهتها الىّ . فبخ بخ أيتها العظمة الساذجة ! بخ بخ أيتها الفضيلة المسيحية ! بخ بخ يا بنت القديس لويس !! يالصدى صوتك العجيب ! أيتها القديسة المجرية ! بخ بخ !

فابتسمت « الكونتس مارتن » ورأت ان « شولت » يتهكم ولكنه دفع عن نفسه محتدًّا مصرًّا على انه جادٌّ . فعتبت « مس بل » على صديقتها ، وقالت ان من طباع الفرنسيين حملهم القول دائمًا محمل المزاح .

ثم عادوا يخوضون حديث الفنون التى ذكرها فى هذه البلاد يعطر الأجواء ويُستنشق مع الهواء . .

فقالت الكونتس :

— أما أنا فلست من المعرفة بحيث أعجب « بجيوتو » ومدرسته ولكن تدهشنى من اعمال القرن الخامس عشر شهوانية الفن الذى يُنعت بالفن المسيحى ، فلم أجد ورعًا وعفة الاّ فى أشكال

المصور « فرا انجليكو » . على انها أيضًا بديعة تستهوى المشاعر والنفوس . اما ما بقى من الصور التى تمثل العذارى والملائكة فعندى انها شَبِقة مُلاطفة واحيانًا فاسدة متكلفة ، وليت شعرى أى شىء من الوحى الدينى فى صور أولئك المجوس ذوى الجمال الأنثوى ؟ أو فى صورة ذلك القديس « سيبا ستيان » الذى يتخايل مزهوًّا بنضرة شبابه .

فأجابها « دى شارتر » إنه على رأيها ، وأنهما كلاهما على حق فقد كان « ساڤونا رولا » [1] يرى رأيها ، فأفتى باحراقها كلها إذ لم يجد من العفاف شيئًا في صورة ما من تلك الصور الفنية ، وقال دى شارتر :

— إنّا نرى فى فلورنسا على عهد الملك العظيم « مانفريد » الذي كان نصف مسلم ، رجالاً قيل انهم من اتباع « أبيقور » ، بحثوا في التدليل على عدم وجود الله . واحتقر «جيدو كڤالكانتى» الشاعر الفلورنسى الجميل أولئك الجهلاء الذين يؤمنون بخلود الروح ، و يُعزي اليه قوله : « ان موت الرجل كموت الدابة سواء بسواء » وفيما بعد ذلك اكفهر جو المسيحية عند ما بُعث اجمال الآثار القديمة ،

---

(١) جيروم « سافونارولا » Savonarola واعظ ايطالى حاول ان يؤسس فى فلورنسا حكومة تيوقراطية فأخفق وأحرق بتهمة الالحاد (١٤٥٢ — ١٤٩٨)

فلم يكن المصورون الذين يعملون فى الكنائس والاديرة اعفّاء ولا أتقياء ، وكان « بروچان » [1] ملحداً معترفاً بالحاده .

فردت عليه « مس بل » بقولها :

— نعم . لكن قيل ان الحقائق السماوية لم تستطع ان تخترق رأسه الجافّ لأن جمجمته كانت سامكة . . وكان صارماً بخيلا غارقاً فى الماديات ، ولم يكن يفكر إلاّ فى شراء البيوت .

فأخذ الاستاذ «الريغى» على كاهله الدفاع عن «بطرس ڤانوتشى» هذا الذى ينعت « ببروچيان » ، فقال :

— إنه كان رجلا مستقيما . وأخطأ رئيس دير « جزواتى » الفلورنسى إذ لم يثق به ، فهذا القس كان يزاول صناعة لون اللازورد بسحق أحجاره الجففة ، وكان حجر اللازورد هذا يساوى فى ذلك العهد وزنه ذهبًا ، وكان قسّنا قد استكشف طريقة سرية لاعداد هذا اللون فهو عنده أغلى من الياقوت الاحمر والزمرد الأخضر ، فطلب الى « بروچان » أن يزخرف أروقة ديره ، وتوقع العجب العجاب بفضل جمال اللون اللازوردى اكثر من فضل مهارة المصوّر . وبينما كان الفنّان يصوّر سيرة المسيح على جدران الرواق ، كان رئيس الدير بجانبه ممسكا بالمسحوق الثمين فى كيس صغير لم

---

(١) مصور ايطالي من اساتذة المصور المشهور « رافييل » وصور الصور الدينية بخاصة ، ولأعماله رونق وجمال (١٤٤٦ — ١٥٢٤)

يتركه غمضة عين . فجعل « بروجان » يأخذ من الكيس و يغطس فرشاته المغطاة بالدهان فى كأس من الماء قبلما يكلس الحائط بها وذلك على عين القس رئيس الدير ، ولما رأى الأب الصالح ان محتويات كيسه سرعان ما أخذت فى النفاد ، تأوّه من كبد حرّى وصاح : « يايسوع ! يارب الطف ! ما اكثر ما يلتهمه هذا التكليس من حجر اللازورد ! » .

ولما انتهت عملية الزخرفة ، وأخذ « بروجان » من رئيس الدير أجره المتفق عليه ، وضع فى يده كيسًا من المسحوق الأزرق ، وقال له : « هذا لك يا أبى ، فان لونك اللازوردى الذى أخذته على فرشاتى قد رسب فى قاع كأسى ، وكنت استقطره منها يوميًا ، وهأنذا أُعيده اليك ، فتعلَّم الآن الوثوق بالناس الطيبين ! »

فقالت تريز :

— لا أرى شيئًا خارقًا فى ان يكون « بروجان » على حرصه و بخله رجلا أمينًا فليس النفعيون وحدهم أقل الناس ذمة وورعا ، فثمة كثيرون بخلاء على أنهم أمناء .

فقالت مس بل :

— طبعًا يا عزيزة ! أن البخلاء لن يدينوا لأحد بشىء ، على حين أن المسرفين راضون كل الرضا بتراكم الديون عليهم ، وقلما يفكرون فيما يملكون ، وأقل من هذا القليل فيما هم به مدينون .

ولم أقل ، أن « بطرس ڤانوتشى » (بروجان) كان رجلا غير أمين ، بل قلت أن له رأسًا جافًا ، وأنه كان يشترى من البيوت الكثير . وأجدنى مغتبطة حقًا بمعرفة أنه أعاد مسحوق اللازورد الى رئيس الدير.

فقال « شولت » :

— أما وقد كان « بطرسك » غنيًا ، فقد كان حقًا عليه أن يعيد مسحوق اللازورد الى صاحبه . ففرضٌ على الغنى أن يكون أمينا ، وليس على الفقير ! . . .

وعندئذ جاء كبير خدمة المائدة فقدَّم الى « شولت » طستًا من الفضَّة ، فبسط الشاعر يديه وتلقى الماء المعطر المصبوب من إبريق هو وعاء مفرَّغ فضّي ، أدارتهما « مس بل » على مدعويها بعد الفراغ من الطعام كما جرت العادات القديمة .

فقال شولت :

— انى أغسل يدىَّ مما تفعله « الكونتس مارتن » أو مما قد تفعله ، سواء بكلماتها أو بأية كيفية أخرى . . !

ثم نهض مهتاج الفؤاد ، وتبع « مس بل » التى تركت المائدة مستندة الى ذراع الاستاذ الريغى » .

وبينا كانت القهوة تقدم للأضياف فى بهو الاستقبال ، قالت « مس بل » :

— لمَ القضاء علينا بأحزان المساواة الهمجية يامسيو « شولت » ؟

ان نای الراعی « دافنیس » ما کان لیخرج أنغامه الشجیَّة المؤتلفة لو انه صُنع من سبعة عیدان من الغاب متساویة فی الطول . أراك وما تبغی إلا أن تفسد تلك النغمات المطربة على السید والتُبَّاع والارستقراطی والصُنَّاع . . فیالك من همجی یا مسیو « شولت » ! أفتحنو على الفقیر ولا تعطف على جمال الله ، فتدعه متجرّداً عاریاً متألماً باكیاً ؟ ! أن قولك بابعاد الناس على تباین طبقاتهم بین وضیع وعظیم یجعلك بمثابة عدو للأغنیاء والفقراء على حد سواء ، أنه یجعلك عدو البشریة جمعاء !

فأجاب « شولت » وهو یحلی قهوته بقطعة من السكر :

— أعداء البشریة ! كذا أسْمَى الرومانی الغلیظ القلب المسیحیین الذین علموه المحبة !

وفی تلك الأثناء كان « دی شارتر » جالساً الى « الكونتس مارتن » یسائلهما عن أذواقهما فی الفن والجمال ، مؤیّداً ، موصیاً ، مشجعاً ، مستثیراً إعجابها أحیاناً بمبادهة رفیقة . . یرید أن ترى فی كل شیء ما یرى ، وأن تحب كل ما یحب . ثم أرادها على أن تذهب الى الحدیقة فی فجر الربیع البسَّام ، ورآها سلفاً بعین بصیرته على الشرفات الكبیرة ، وسبق فشاهد النور یزهو ساطعاً على نحرها مداعباً شعرها ، و ظلّ شجر الغار یظلم قلیلا قلیلا على حور عینیها

وخيل اليه أن « فلورنسا » بأرضها وسمائها لم تخلق الاّ لتكون زينة هذه الشابة الغيداء . .

فأثنى على بساطة ملبسها ومعارف وجهها وتأنقها ، وحسن تثنيها ورشاقتها ، وأعجب بالخفة الخلاّبة التى تصدر عنها كل حركاتها ، وقال أنه قد أحب فيها حتى أثوابها ، تلك الأثواب الحيَّة ، الرَّخصَة الرَّقيقة ، الفَضْفَاضة ، الرَّوْحية ، التى نادراً مايراها المرء ، ولا يمكن أن ينساها حين يراها .

ومع أن « تريز » كانت مدلَّة وطالما سمعت ضروب المديح والأطراء لم تسرقط سرورها بهذا الثناء . وكانت تعرف أنها تتقن زينتها إتقاناً تامًا ، ولها ذوق جرىء على أنه صائب سليم . غير أن أحداً لم يمتدحها قط فى هذا ، ما خلا والدها ، امتداح خبير . . وكانت تعتقد أن الرجال أهلٌ لتقدير أثر الثياب السطحى دون فهم تفاصيله الدقيقة . ومنهم مَنْ يُقالُ إنهم يفهمون الخرَق المهلهلة ، وهؤلاء نفَّروها وأثاروا اشمئزازها بما هم عليه من خنوثة وذوق مشكوك فيه . وسلَّمت بألاَّ تجد ملبسها يقدر قدره إلاّ من النساء اللواتى كان حكمهن مُعْوَجاً مُزْوَرًّا خباثةً وحسداً . إما إعجاب « دى شارتر » الفنى ، وهو إعجاب رجل ، فقد أدهشها وسرَّها . وتقبَّلت ثناءه راضية مغتبطة . ولم يخطر لها قط اعتبار ذلك إفراطاً فى المودة كاد يكون دون حيطة ، فقالت :

— أنت تعنى إذاً بالهندام يا مسيو دى شارتر ؟

كلا . إنه قلما ينظر اليه . فما إن تزال النساء اللواتى يتقنّ ملبسهن ويحسنّ زينتهن حقا معدودات حتى فى هذا الزمن الذى أصبح النساء يُجِدْن فيه الملبس إجادة فعلية ولعلها أحسن منها فى أى وقت مضى . ولم يكن تعجبه رؤيتهن سائرات اسرابًا ، لكن كان يشعر بعرفان الجميل نحو المرأة التى تمر أمامه عادلة القوام متزِنة الخطوات حتى كأن خطواتها نغمات . .

وعقّب على ذلك ، وقد رفع قليلا من صوته ، قائلا :

— لا يسعنى أن أذكر المرأة التى تعنى كل يوم بتبرُّجها وزينتها دون أن أفكر فى الدرس الذى تلقيه علينا نحن رجال الفنون . فهى لميقات قليل ترتدى ثيابهـا وترحِّل شعرها ، وتلك منها عناية غير ضائعة . فعلينا أن نحذو حدوها فنزين الحياة دون تفكير فى مستقبل الأيام . وما الرسم والحفر والكتابة للأجيال القادمة سوى محض من سخف الغرور !

فسأله الأمير « البرتنلى » :

— وما رأيك يا مسيو « دى شارتر » فى قميص لمس بل بلون الارجوان ذى أزاهير من فضة واستبرق ؟

قالت « شولت » :

— أما أنا فأقل ما أكون عناية بالمستقبل الأرضى حتى لقد

دونت أبدع أشعاري على ورق السجائر . فهو سهل العطب سريع التلف لايبقى على شعرى ولا يذر الاّ نوعًا من البقاء المعنوى . .

وفخر بهذا الظهور بعدم العناية بمنشآته . . وان كان لا مرية فى انه لم يفقد سطراً واحداً منها . وكان « دى شارتر » أشد إخلاصًا . فلم يكن راغبًا فى خلود الصيت .

فلامته « مس بل » على ذلك بقولها :

— لكيما تكون الحياة عظيمة موفورة يامسيو « دى شارتر » أرى أن تضم بين دفتيها الماضى والمستقبل معًا . فعلينا أن ننظم أشعارنا ونخرج أعمالنا الفنية على ذكر من اولئك الذين ماتواعنا ؛ ناظرين الى الامام ، الى أولئك الذين سيأتون بعدنا ويقتفون أثرنا ، وبذلك نشترك فيما كان ، وفيما يكون ، وفيما سيكون ، ألست ترغب يا مسيو « دى شارتر » فى الخلود ! فحذار لئلا يستجيب لك الله ! . . .

فأجاب :

— حسبى أن أعيش أيضًا لحظة اخرى من دهرى .

واستأذن فى الانصراف ، واعدا بعودة باكرة فى الغداة ليصحب « الكونتس مارتن » الى معبد « برانكانشى » .

* * *

بعد ساعة ، فى حجرة مؤثثة على أحدث طراز ، مزدانة الجدران بنسيج موشّى بصور اشجار ليمون تحمل ثماراً ذهبية كبيرة الحجم

فكوّنت ضرباً من الغابات الشيطانية الخرافية ، كانت « تريز » مضطجعة ورأسها على الوسادة ، وقد ألقت فوقه ذراعها العارية الجميلة ، واستسلمت فى ضوء المصباح للأحلام ومرت أمام عينيها ، بلا انتظام ، صور حياتها الجديدة . فرأت «مس بل» وأجراسها وتلك الاشكال الخفيفه كالظلال ، من السيدات والفرسان فى عزلة و بلا مبالاة لما حولهم من المشاهد الدينية ، أو بالحرى يغلب الحزن عليهم و ينظرون الى القادمين اليهم ، على انهم أكثر ما يكونون أُنساً وانشراحاً بما هم فيه من سبات ساحر . . ثم رأت « تريز » المساء فى « فيزول » والامير « البرتنلى » ، والاستاذ «الريغى» و «شولت» ، والحديث الحار واللعب الغريب بالأفكار ، واخيراً «دى شارتر» يرنو بعينين يتألّق فيهما الشباب ، وله محيّا يغلب عليه الوَهَن ، وهيئة افريق لبشرته السمراء ولحيته المدببة . .

وذكرت مخيلته الفاتنة ، وعقليته الغنية ، الأغنى من كل ما عرفته من قبل ، وجاذبيته التى لم تعد تستطيع مغالبتها أو مقاومتها وقد عرفت لأول وهلة انه أُوتى موهبة الارضاء . والآن عرفت انه أراد أن يُعجب . فاهتزّت أعطافها طرباً لهذه الفكرة ، وأغمضت عينيها كأنما أرادت لتحتفظ بها . ثم انتفضت فجأة ، وأحسّت فى أعماق نفسها صدمةً صمّاء وألماً حاداً . وقامت أمام ناظريها رؤيا مباغتة غير منتظرة ، فتمثّل لها عاشقها فى الغابة يتأبط بندقيته . وكان

سائراً بخطوته الثابتة المنتظمة فى طريق طويل . فلم تستطع أن تتبين وجهه وساءها ذلك . وذهبت عن نفسها موجدتها عليه واستياؤها منه . بل انها الآن عادت مستاءة من ذات نفسها . وكان « روبير لومنيل » – فى الرؤيا – سائراً فى سبيله ، لا يلتفت ولا يلوى ، ماضيًا دائمًا قُدُمًا ، حتى صار نقطة سوداء فى الغابة الموحشة . فشعرت انها عنُفت عليه وكانت جدّ قاسية إذ تركته دون كلمة وداع ، بل دون كتابة خطاب . وقد كان حبيبها ، حبيبها الواحد الذى لم يكن لها قط حبيب سواه . فقالت في نفسها : «لا اريد أن يشقى بسببي» ثم ما لبث أن سكن روعها واطمأن قلبها . انه قد احبها ، على أنه لم يكن قوى الحسّ . كما انه لحسن الحظ غير سريع القلق والتعذّب : « انه يصيد ، وهو بصيده سعيد ! ولعله الآن مع عمته « دى لانوا .. التى هو معجب بها . . . . »

فنسيت قلقها واستردّت رباطة جأشها . واسلمت نفسها مرة أخرى الى افراح فلورنسا ومداعباتها . . . .

وذكرت صورة « هرقل » صغير فى أحد المتاحف من صنع « انطونيو پولا يولو » ، وكانت قد عرضت عليها ولم تحفل بها واستحسنها « دى شارتر » ، وقال عنها ان الرائى يرى فيها فن « ليوناردو دافنشى » لأن المصور أودعها شعوره وحسّه وروحه ونفسه .

فى تلك اللحظة ذكرتها ، وأسفت على انها لم تقدرها قدرها

بادئاً كما يجب ، وشعرت بالتلهف على مشاهدتها ثانية . وعلى هذه الرغبة اطفأت مصباحها وراحت فى سبات . . .

وعند الفجر ، حلمت بأنها لقيت « رو بير لومنيل » فى كنيسة خالية ، وكان يرتدى معطفاً من الفرو لا عهد لها به ، فانتظرها . لكن جمعاً من الرهبان والمصلين ظهر بغتة فحال بينهما ، فلم تعرف ما جرى له ، وعجزت عن تبيُّن وجهه ، فتبرَّمت بذلك ، ولما استيقظت سمعت عند نافذتها المفتوحة صيحة ذات نغمة واحدة متسقة صغيرة حزينة . . ورأت فى الفجر اللبنى خَطَّافاً طائراً . . وعندئذ ، بلا سبب ولا عِلَّة ، بكت وأراقت على نفسها الدمع الهتون .

١١

بكَّرت ، وسرَّها أن ترتدى ثيابها بعناية . وكانت غرفة زينتها احدى عجائب « مس بل » المستظرفة : بخزفها ذى الطلاء الخشن ، وقواريرها النحاسية الكبيرة ، ومربَّعات بلاطها المصنوع من الصينى « فاينّزا » ، فما كان اشبهها بمطبخ ، ولكن مطبخ شيطان لا إنسان !

وبينما وصيفتها تُرجِّل لها شعرها ، سمعت « دى شارتر » و« شولت » تحت نافذتها يتحدثان . فأفسدت كل ما رتَّبته الوصيفة ، وأبدت بجرأة منبت الشعر من عنقها الذى كان جميلا . ثم ألقت نظرة أخيرة على نفسها فى المرآة ، ونزلت الى البستان .

وهناك ، فى الروضة المظللة بأشجار السرو حتى كأنها مقبرة هادئة ، كان « دى شارتر » ينظر الى « فلورنسا » ويردد أشعاراً من نظم « دانتى » :

« فى الساعة التى يكون فيها روحنا أشد اجتنابًا للجسد . . . »

وبقربه « شولت » جالس على السور ، متدلى الساقين ، وأنفه طَىَّ لحيته ، منكبًا على حفر وجه « البأساء » على مقبض عصاه ، عصا جوَّاب الآفاق !

فردد « دى شارتر » كلمات النشيد :

« فى الساعة التى يكون فيها روحنا أشد اجتناباً للجسد وأقل اختبالاً بالفكر ، يكاد يكون الهياً فى رؤاه . . . »

فأقبلت متهادية تمشى الهوينا تحت مظلتها ، فى ثوب بلون الذرة ، وقد كستها شمسُ الشتاء الضعيفة نوراً عسجدياً شاحباً . فحيّاها « دى شارتر » تحية الصباح مبتهجاً ، فقالت :

— سمعتك تردد أشعاراً أجهلها ، فلست أعرف من شعراء الطليان غير « متاستازيو » ، لأن أستاذى الذى علمنى الايطالية كان يعجب به كثيراً ، ولم يكن يحب سواه . فما هذه الساعة التى يكون « الروح فيها إلهياً فى رؤاه » ؟؟

— انها مطلع الفجر يا سيدتى ، أو قد تكون أيضاً فجر الايمان أو الحب . .

فقال « شولت » أنه لا يظن الشاعر قد عنى بكلامه أحلام الصباح التى تترك عند اليقظة تأثيراً قوياً وأحياناً أثراً أليماً ، وهى لا تعد منفصلة عن الجسد . على أن « دى شارتر » لم يردد هذه الكلمات الاّ فى حالة التجلّى التى عرته لدى مشاهدته فى ذلك الصباح منظر العجز الذهبى فوق الروابى الشعراء . . .

وكان ما يأتينا ليلا فى نومنا من رؤى موضع حيرته منذ بعيد . فوصل آخراً الى اعتقاد أنها تأتينا ، لا مما يشغل أذهاننا سحابة نهارنا

اكثر من كل شيء ولكن، على الضد من ذلك، من الفِكَر التي تنبذها ونتأتى بجانبنا عنها

وعندئذ تذكرت « تريز » حلمها فى ذلك الصباح بالصائد الضالّ فى طريق الغاب المغول . .

قال « دى شارتر »

— أجل، أنّا نرى فى الليل الآثار الحزينة لما أهملناه فى الصحو. وطالما كان الحلم انتقامًا لأشياء بُخست أو عتابًا على خلائق هُجِرت . ومن ههنا تجيء مباغتة، وأحيانًا كابة .

فظلت لحظة صامة تفكر، ثم قالت :

— قد يكون ذلك حقًا

والتفتت مشوقة الى « شولت » فسألته أأتمّ حفر وجه «البأساء» على يد عصاه . لكن «شولت» زعم أنه قد عرف فى وجه «البأساء» صورة « العذراء » ! وسرّه اطلاق هذا الاسم عليها حتى لقد أنشأ رباعية لتكتب تحتها، وقبل أن يلقيها . . .

فاستندت « تريز »، كما فعلت يوم وصولها، الى سور المشرف، ونظرت الى بعيد، باحثة فيما وراء أقيانوس النور عن قمم « فالبوروزو » التى تكاد تكون كالعهد المنفوش . . .

وكان «دى شارتر» يلحظها، فخيّل اليه كأنه رآها لأول مرة فمثل هذا الحسن الطريف البديع قد استكشفه على محيّاها الرقيق

« تربز » . « دى شارتر » . « شولت »

الذى و إن خطَّطه جهد الحياة والفكر ، لم يسلبه بهاء الفتوَّة ولا سنا الصبوَّة . أما الضياء الذى كانت تحبه ، فقد سَتَر قصورها وزاد جمالها . وكانت فاتنة فعلاً ، وضيئة المحيَّا ، وقد استحمت فى ذلك النور الفلورنسى الناعم الذى يعزّز الاشكال الجميله ، و يغذو الافكار النبيلة ، وكان على خديها الأسيلين وردتان ؛ وفى حدقتيها الممزوج لونهما الرَّمادى باللون السّماوى : ضحكتان . فاذا تكلمت أشرق بياض ثناياها الناصع ، فكانت له عذوبة حارة تصلى الفؤاد .

و بلمحة منه قدَّر تقاطيع غصنها الرطيب كافة ، من صدر ناهض ، وثدى ناهد ، وخصر واهن ، وردف مقوَّس مهيل .

وكانت قد أخذت بيسراها مظلتها ، و بيمناها المتجردة من قفازها جعلت تعبث بينفسجات . .

وكان لدى شارتر ميل ، بل شغف ، بل جنون بالأيدى الجميلة . . وكان يرى أن فى اليد روحًا ، ولها سِمَةً وسحنةً ناطقةً كالمحيّا . . وقد سبته يدا « تريز » وفتنتاه ، لأنهما كانتا يدين شهوانيتين روحانيتين معـًا . وظهرتا له كأنهما عاريتان تشويقًا و إغراء . فعبد أصابعهما الدقيقة الأنامل ، وأظافرهما العُنَّابية ، و بشرتهما الرقيقة المخططة بسطور أنيقة كالنقوش العربية الصاعدة عند أسفل الأصابع نحو العُقد بلطف واتساق . . . فظلَّ يحدق بيدها مبهوتًا مفتونًا حتى ضمتها على مقبض مظلتها .

وعندئذ ، وقد جاء خلفها قليلا ، عاد ينظر اليها ، الى نصفها الأعلى ، وذراعيها الجميلتين العبلتين ، ومخدبها الفنيتين المسبوكتين ، وكعبيها الدقيقين الملفوفين . فبهذا ، و بشكلها الجميل كله : راقته وأعجبته .

قالت .

— أليست تلك البقعة السوداء التى هناك هى حدائق « بوبولى » يامسيو دى شارتر ؟ . . إنى رأيتها منذ سنوات ثلاث ، ولم يكد إذ ذاك يوجد بها زهور ، ومع ذلك أحببتها بأشجارها الكبيرة الحزينة .

وكانت الدهشة تغلب على « دى شارتر » لدى رؤيتها متفكرة أو سماعها متكلمة . وكأنما أنغام صوتها الجليّة الرنانة لم تطرق سمعه من قبل .

فاجابها بما عرض له من كلم . وابتسم جاهداً محاولاً إخفاء ثورة عواطفه وهيجة لواعجه . لقد عاد مبلبلاً مرتبكاً . فلم يبدُ عليها أنها لاحظت ذلك ، بل بدت عليها علائم الغبطة . فذلك الصوت العميق الذى غطّاها وأعوزها قد لاطفها دون علم منه وعزّزها . .

ففاهت مثله بكلمات عادية :

— ياحبذا المنظر الشائق والجو الرائق !

١٢

كانت « تريز » فى الصباح ملقية رأسها على وسادة مطرز عليها شعار على شكل الجرس ، تتأمل فيما رأته فى نزهات امسها : من العذارى الجميلات المصورات محوطات بالملائكة ، أو الاطفال الذين لا عدَدَ لهم مصورين أو محفورين وكلهم جميل وكلهم جَذِل وكانوا يغنون بسذاجة فى شوارع المدينة أهازيجهم . وهناك ، فى معبد « برانكاتشى » المشهور وأمام تلك التصاوير المنقوشة على الجص الأبيض ، الشاحبة الساطعة كأنها فجر إلهى – حدثتها عن المصور الفلورنسى « مازاتشيو » حديثاً طلياً حماسياً حتى خالت انها ترى الشباب ، استاذ الاساتذة ، واقفاً يستمع مفتوح الفم قليلا أزرق العينين مأخوذاً مشدوهاً... وشغفتها عجائب ذلك الفجر الذى هو أبهى من النهار الضاحى ... وكانت ترى فى « دى شارتر » روح تلك الاشكال الشائقة وعقل تلك الاشياء الرائعة ... فانها بدى شارتر وفى دى شارتر قد فهمت الفن والحياة ولم تكن مشاهد الحياة تروقها الاَّ بقدر ما كانت تروقه ! فكيف نما ذلك العطف ووجدت وحدة الحسّ بينهما ؟ لم تعرف تماماً . ففى البدء حين أراد « پول ڤانس » تقديمه اليها لم تجد من نفسها رغبة فى معرفته ، ولم تتسلّف شعور الميل اليه ، وذكرت تماثيل البرنز الجميلة وأشكال الشمع

البديعة المعهورة باسمه والتى لفتت نظرها فى صالون «شان دى مارس» وعند « دوران رويل » . على انها لم تتصور قط أنه يمكن أن يكون مستميلاً أو جذّابًا اكثر من غيره من الفنانين والهواة العديدين الذين طالما دعتهم الى مائدتها ، فلما رأته أكبرته ومالت اليه . وصحت عزيمتها على اجتذابه والاكثار من رؤيته . وفى الليلة التى تعشّى عندها فيها تبيّنت أن ميلها اليه كان ضربًا من الميل العقلى النبيل الذى سرّها وأرضى كرامتها . ولكنه لم يذهب أن ضايقها نوعًا ما . فقد ضاقت برؤيته شديد الانكماش والتحفظ ، مشغولا بنفسه ، عاكفًا على ذاته كثيراً ، منصرفًا عنها غير معنىّ بها إلاّ يسيراً . فودت لو تجد الى لمس قلبه سبيلا . وعلى هذه الحال ، غير الراضية ، المنغّصة بأسباب أخر ، وشعورها بوحدتها فى الوجود ، قابلته ذات مساء أمام « متحف الاديان » فحدّثها عن « راڤنّا » والملكة التى استوت فى ضريحها على عرشها المصنوع من ذهب . ورأته فى ظلام الليل رزينا فاتنا بما فى صوته الغذب من حرارة ، وما فى نظراته الوديعة من حنو . لكنه بتحفظه وانقباضه جعلها تحس الضيق والضجر . وها هى ذى حتى هذه اللحظة التى تماشيه فيها على مشرف القصر ، ما إن تزال غير قادرة على الحكم أتريد رؤيته دائمًا أم لا تريدها بعد أبداً .

ومذ قالته فى « فلورنسا » كانت مسرتها الوحيدة أن تراه على مقربة منها وتسمعه متحدثاً اليها . فقد جعل حياتها جذّابة بما أدخله عليها من تغيير وطلاوة وجدَّة أىّ جدّة ، وكشف لها عن أفراح الفكر وأحزانه العذبة ، وأيقظ شهوات المسرات التى كانت فيها كامنة راقدة ، فعزمت عزماً قاطعاً على الاحتفاظ به ورعايته . لكن كيف ؟ ؟ لقد استبانت الصعوبات سلفاً . وعرضها عليها جميعها عقلُها النيّر وشعورها القوى . فحاولت أن تخدع نفسها لحظة من وقتها . فقالت قد يكون رجلا متحمساً من أهل الخيال ، تائهاً فى عالم الأحلام ، غارقاً فى دراسات الفن ، فلا يكون له جمّ الشغف بالنساء فيظل سائراً مثابراً دون أن يتطلّع ليكون مطالباً جائراً ، لكنها سرعان ما هزَّت فوق الوسادة رأسها الجميل الغارق فى جدائل شعرها الأشقر المتموّج الرجراج . ثم نبذت هذه الفكرة . فلو ان « دى شارتر » كان من غير أهل العشق لفقد كل فتنته لها . فكفّت عن التفكير فى المستقبل خاشية . ستعيش فى الحاضر ، وذلك حَسْبُها ، هانئة قلقة متلهفة مغمضة العينين . . .

كذلك كانت تتأمل فى الظلمات التى كانت تشقها أشعة النور ، حين دخلت عليها وصيفتها حاملة رسائلها وشاى الصباح ، فميّزت خط « لومنيل » السريع البسيط على غلاف موسوم باسم نادى شارع رويّال ، وكانت قد توقّعت وصول هذا الكتاب ،

ولشدّ ما عجبت من صدق حدسها شأنها وهى طفلة إذ تدهش عند ما تدق الساعة دقتها التى لا تخطىء معلمة ميقات درس الموسيقى. وكان « روبير » فى رسالته يعتب عليها ، عتباً معقولاً ، أنها سافرت دون أن تخبره أو تترك له كلمة وداع . فما علّة ذلك ؟ وقد طال مذ عودته الى باريس ينتظر كل يوم رسالة منها بلا جدوى . على خلاف ما كان فى العام الماضى إذ كان أسعد حظاً لأنه كان يجد مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع عند صحوه من نومه تلك الرسائل الرقيقة البليغة الى حد جعله يأسف على عدم إمكانه نشرها ! . .

فقلق ، وخفّ الى بيتها ، قال :

— « ولقد بُهتُّ لسماع نبأ رحيلك ، واستقبلنى قرينك ، فاخبرنى انك سافرت لتمضية أيام الشتاء الأخيرة عند « مس بل » فى « فلورنسا » طوع مشورته . لأنه كان منذ حين قد لاحظ عليك الذبول والنحول ، فرأى فى تغيير الهواء ما يفيدك . وعلى أنك لم تكونى تريدين السفر تمكّن من اقناعك لأن حالتك كانت تتفاقم وتزداد سوءا . أما أنا فلم ألحظ انك كنت تزدادين نحولاً ، بل على الضد من ذلك كان يبدو لى أنك من الصحة بمكان . فضلاً عن أن « فلورنسا » لا تعد مَشْتَى . ولست أفهم منك هذا الرحيل . انه يعذبنى كثيراً .

« فاكتبى الىّ من فورك ، انى أتوسل اليك ، فدعينى اطمئن . .

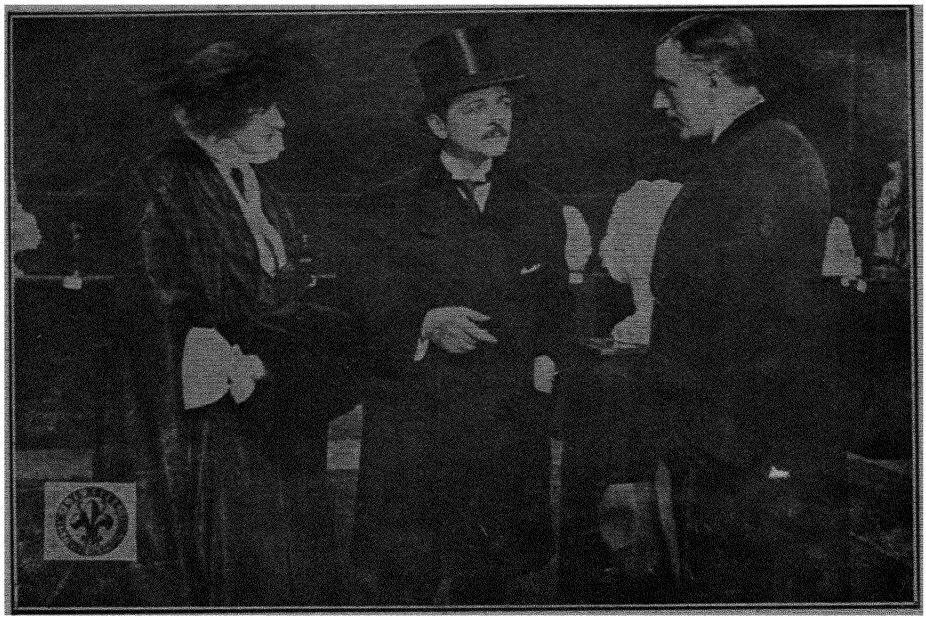

التعارف

« دي شارتر » ، « پول فانس » ، « تريز »

ولعلك تزعمينني مرتاحاً لسماع أخبارك من فم زوجك وإبداعه إياي أسراره !! انه يشقّ عليه غيابك ويحزنه أن تضطره واجباته العامة الى البقاء بباريس فى هذا الوقت . وسمعت فى النادى أن هناك أملا فى دخوله الوزارة ، فعجبت ، إذ ليس من المألوف اختيار الوزراء من الزعماء »

ثم حكى لها حكايات صيده وقنصه . . وذكر لها أنه أحضر لها جلود ثلاثة ثعالب أحدها بديع جداً لأنه جلد حيوان باسل أخذه بذنبه وأخرجه من جحره ، فارتدّ اليه وعضّه فى يده . وقال : « ومع هذا كله فالحيوان كان يدفع عن نفسه محقاً ! »

وقال أنه متضايق فى باريس . فابن عمه الصغير يريد أن ينتخب عضوا فى النادى ، ويخشى فشله ، على أن ترشيحه أُعان ، فلم يجرؤ على النصح له بالانسحاب ، وتلك تبعة كبيرة فيما يرى كما أن الخيبة منكرة كريهة !

وختم رسالته ملتمساً منها أن تكتب وتعود بلا تأخير .

فلما قرأت الخطاب ، مزقته ببطء وألقت به فى النار ، ونظرت اليه وهو يحترق ، محزونة واجمة مفكرة . .

أنه محق عن يقين . وقد قال ما كان يُنتظر منه أن يقوله . وشكا إذ كان ذا حق فى الشكاية . فبم تجيبه ؟ أتطيل معه النزاع وتظل تتجنّى عليه وتتجهم له ؟ على أن الأمر لم يعد أمر تجنّ وتجهم .

فان موضوع نزاعهما قد أصبح فى نظرها تافهًا الى حد أنها كانت لا تتذكره من تلقاء نفسها . الا أنها لم تعد ترغب فى مضايقته بتاتًا . بل على النقيض من ذلك كانت كثيرة الشعور بالشفقة عليه ! . . أما إدراكها أنه أحبها واثقًا منها مطمئنًا كل الاطمئنان اليها فقد حزنها وأزعجها . أنه ، هو ، لم يتغيّر . فلا يزال كما كان من قبل . ولكنها ، هى ، لم تعد كما كانت . لقد فرقت بينهما أشياء غير محسوسة وإن كانت قوية قوة التقلبات الجوية المحيية المميتة . . .

ولم تكن بدأت بعد في كتابة الرد عندما جاءت وصيفتها لالباسها وتزيينها . كانت مشغولة الفكر تقول فى نفسها : « أنه واثق منى مرتاح البال » . وهذا أشدّ مافتّ فى عضدها وعيل له صبرها . فطالما ضايقها أولئك السّذَّج البسطاء الذين لا يرتابون فى أنفسهم ولا فى غيرهم

ولما نزلت الى بهو الأجراس وجدت « ڤيڤيان بل » جالسة تكتب . فقالت لها الشاعرة :

— أتريد عزيزة أن تعرف ما كنت أفعل فى انتظارها ؟ لا شيء وكل شيء ! كنت انظم شعراً ! فلا مراء يا عزيزة فى أن الشعر فيض النفس الطبيعى وازدهار الروح . .

فقبلت « تريز » « مس بل » وقالت ، وقد ألقت رأسها على كتف صاحبتها :

— أفأنظر ؟

— انظرى يا عزيزة ؟ انها أشعار نظمت على طريقة أغانى وطنك الشائعة .

فقرأتها « تريز » ثم قالت :

— هذه الأبيات رمزية ياڤيڤيان ، ففسريها لى .

— ولِمَ أفسّرها يا عزيزة؟ لماذا ؟ يجب أن يكون للصورة الشعرية معان كثيرة . والمعنى الذى تختارينه منها يكون هو المعنى الصادق فى حسابك . على أن معنىً منها ياحبيبتى شديد الوضوح ، هو أن علينا الاّ نتخلص باستخفاف ممن وضعناه فى حبة قلبنا وجعلناه قرة أعيننا .

* * *

أُعدَّت العربة ، فركبتاها إذ كانتا على موعد زيارة معرض صور « البرتنلّى » فى شارع « دلمورو » . وكان الأمير فى انتظارهما وكانتا على وعد من « دى شارتر » للقاء فى القصر .

وبينما العربة تجرى على حصباء الطريق المرتفع الفسيح ، تحدثت « ڤيڤيان » حديثاً قصيراً بصوت غنائى ينبعث سروراً وانشراحا . فقالت :

— كنت قد ذهبت ياعزيزة الى « كرمين » بصحبة « مسيو دى شارتر وتركت « مدام مارميه » بفيزول . فوجدت منها سيدة

عجوزا وديعة معتدلة الآراء طيبة الاخلاق تعرف كثيراً من نوادر كبار البار يسيين وخاصتهم . فاذا جعلت تقصها فعلت مثل طاهيّ « پاميالونى » حين يبعث بالبيض المقلى بغير أن يملحه فيترك المملحة الى جانب الصحن . « فمدام مارميه » سيدة حلوة اللسان ، لكنما الملح هناك ، على جنب ، فى عينيها ! أنها يا عزيزة صحن « پاميالونى » ، وكلٌّ يأكله على ذوقه ومشتهاه ! . .

لشد ما أحب « مدام مارميه » !

فابتسمت « الكونتس مارتن » ، لكنها كانت تستشعر الملل وبدا لها الجو قاتما والطرق موحشة والسائرون من الدَّهماء .

قالت « مس بل » :

— سيبتهج الأمير باستقبالك فى قصره يا عزيزة !

— ما أظن !

— ولِمَ لا يا عزيزة ؟

— لأنى لا أروقه !

فاكَّدت « مس بل » أن الأمير على الضد من ذلك من أشد المعجبين بالكونتس مارتن .

ووقفت العربة أمام قصر « البرتنلّى » . وكانت على الواجهة الغوطية القاتمة حلقات من البرنز مما كان يُتَّخذ لحمل الشُعَل فى ليالى العيد فى الزمن الغابر . وهذه الحلقات فى «فلورنسا» عَلَم على مساكن

الكبراء . فجعلت للقصر منظر عجرفة ومظهر غطرسة . وفى الداخل ، بدا فارغًا مهملا كأنه غير آهل .

فخفَّ الأمير للقائهما وسار بهما بين قاعات استقبال غير مؤثثة ، حتى بلغ بهما بهو المعرض . فاعتذر بقلة إمتاع مايريان من الصور . ورأت « الكونتس مارتن » بلمحة منها أن المعرض لا قيمة له وأنه لم يكن إلاّ مخزنا لبيع الصور المشهورة الزائفة لرجال المال كلما طالما عُرضت على أبيها فكان يرفضها بخبرة المالىّ اكثر مما يرفضها بخبرة الفنّان .

وأتى خادم ببطاقة زيارة . فقرأ الأمير بصوت مرتفع اسم « چاك دى شارتر » . فأدار ظهره نحو زائرتيه وظهرت على سحنته هيئة الكلوح والغضب المر ، تلك التى تبدو على وجوه تماثيل قياصرة الرومان . وكان « دى شارتر » على صحن الدَرَج الكبير ، فتقدم الأمير الى ملاقاته ببسمة فاترة .

فقالت « مس بل » :

— إننى أنا التى دعوت « مسيو دى شارتر » أمس الى المجىء الى قصر « البرتنلّى » عارفة ما ينشئه لك ذلك من سرور ، فقد أراد أن يرى معرض صورك .

وكان « دى شارتر » قد رغب حقًا فى الحضور ليلقى « الكونتس مارتن » .

وكانت « مس بل » تغنى الأمير ألحانًا عن صور أولئك الشيوخ والعذارى الذين هفت الرياح بثيابهم الزرقاء فرفعتها . .

ودنا « دى شارتر » من « تريز » كمِداً متهيج الأعصاب ، قائلا لها همسًا :

— هذا المعرض مخزن أودعه تجار الصور فى العالم من أقصاه الى أقصاه نُفاية مخازنهم ، وهنا يفلح الأمير فى بيع ما استعصى على اليهود أن يبيعوه . .

وسار بها الى صورة « العائلة المقدسة – عائلة يوسف النجار » ، وكانت معروضة على نَصَب مغطى بالمخمل الاخضر ، وعلى هامشها اسم « ميكيل انجلو » وقال :

— رأيت هذه الصورة عند تجار الصور بلندره و بال و باريس . ولما أعيـاهم أن يحصلوا منها على الخمسة وعشرين « بنتوًا » التى تساويها ، عهدوا الى آخر سلالة « البرتنلّى » أن يحصل منها على خمسين ألفًا من الفرنكات ! ! !

و إذ رآهما الأمير يتهامسان وحزر ما كانا يقولان ، دنا منهما متلطفًا متعطفًا قائلا :

— توجد من هذه الصورة نماذج طبق الأصل معروضة للبيع فى كل مكان . ولست أوكد أن هذه هى الأصلية . لـكنها كانت دائمًاموجودة عند أسرتى . والفهارس القديمة تنسبها الى « ميكيل انجلو » وهذا كل ما يسعنى أن أقوله .

وعاد الأمير الى « مس بل » التى كانت تبحث عن صور الفنانين الطليان الأوائل .

وضاق صدر «دى شارتر» . وكان من أمسه يفكر فى «تريز». وقد حلم بها سواد ليله واشتغل فى حلمه بتصويرها وها هو ذا الآن ألفاها شائقة ولكن من وجهة أخرى ، مشتهاة الى حد لم يحلم به فى رؤى الليل ، فشكلها الهيولى القوى له جاذبية لا تُغالب ولا تقاوم ، وروحها المكنون الخفى أشد غموضًا وخفاء فلا يُكشف ولا يُدفع .

وكانت مكتئبة ، فخالها غير مكترثة ، أو ساهية لاهية ، فقال فى نفسه : انه لم يكن عندها شيئًا مذكوراً وسيصير ثقيلاً عليها هُزْءًا فى عينيها .

فاغتم واهتاج ، وغمغم بمرارة هامسًا فى أذنها :

— لقد توقعت ذلك ، فلم أرد المجيء . فلماذا أتيت ؟

ففهمت من فورها ما عناه ، وادركت انه الآن يخافها ولذلك كان ملولاً خجولاً .

هكذا أعجبها ، وقد شكرت له ما كان عليه من عناء واشتهاء رأت أنها نفثتهما فيه ، وخفق فؤادها ، لكنها تظاهرت بأنها فهمت أنه يأسف على تحمله عناء الحضور لرؤية صور رديئة ، فأجابت أن المعرض فى الواقع لا قيمة له بتاتًا ، وكان فى جزع خشية أن يكون

لم يعجبها ، فاطمأن ، واعتقد حقاً انها كانت عنه ساهية لاهية ، فلم تفطن لنغمة صوته ، أو لدلالة الكلمات التى أفلتت منه . فردد قولها :

— « لا قيمة له بتاتاً » .

ودعا الأمير زائرتيه الى الغداء ، ورجا من صديقهما أن يبقى معهما . فاعتذر « دى شارتر » . وخرج يقطع الصالون الكبير الخالى من كل شىء الاّ من خُزُن مكدسة عليها علب الحلوى الفارغة ، فاذا به يرى نفسه منفرداً بالكونتس مارتن . وكان قد ارتأى تجنبها فلم يعد يفكر إلاّ فى متى يعود فيراها . فذكّرها بأن الغداة موعد زيارتها قصر « بارجاللو » وقال :

— وقد تفضلت فأذنت لى أن أصحبك .

فسألته ألا يراها اليوم ممرورة كئيبة .

— كلا ! انه لم يرها كذلك ، لكنها يحسبها حزينة نوعاً ما . .

وأضاف :

— و يا أسفا على ألاّ حق لى فى معرفة أحزانك وأفراحك . . .

فنظرت اليه نظرة عجْلى ، فيها من القسوة ما فيها ، وقال :

— لا يدور بخلدك اننى سأجعلك موضع سرى ، أليس كذلك ؟

وغادرته بغتةً عَمْدَ عَيْن .

١٣

فى بهو الأجراس ، وتحت المصابيح المحجَّبة الضوء الاّ قليلا ، جلست « مدام مارميه » بعد العشاء تصطلى وعلى ركبتيها قطة بيضاء . وكان المساء بارداً . وهناك « الكونتس مارتن » ما إن تزال مملوءة العينين مما شهدته فى يومها من قمم الروابى البنفسجية ، والسماء الصافية ، وشجر البلوط الأثرى العتيق الذى لوى أذرعه الهائلة ومدَّها على الطريق ، وكانت تَبْسم من تعب هنئ ، وقد ذهبت الى « شارتريز ايما » برفقة « مس بل » و « دى شارتر » و « مدام مارميه » والآن ، فى نشوة رؤاها ، وتمل ذكريات نهارها ، نسيت مشاغل اليومين الماضيين ، والرسائل المضجرة ، والعتْب النائي ، وخيّل اليها أن ليس فى الدنيا غير المعابد المنقوشة الأروقة والأبهاء ، المصوّرة الأركان والأرجاء ، وغير القرى ذات سقوف البيوت الحمراء ، والطرقات التى بينما سمعت فيها عذب التمليق والاطراء رأت منها انبثاق صبح الربيع فى كبد السماء . . .

وكان « دى شاتر » قد فرغ لساعته من صنع دمية صغيرة من الشمع للآنسة بل تمثل « بياتريس »[1] ، وفيفيان ترسم ملائكة

---

(١) فلورنسية مشهورة ١٢١٦ — ١٢٩٠ ، خلد « دانتى » الشاعر العظيم ذكرها فى كتابه « المهزلة الالهية » .

وقد انحنى عليها الامير « البرتنلى »فى رخاوة وخنوثة ، وهو يداعب لحيته ، ويلقى على ماحوله كنظرات الغانيات ...

فقال ردا على ملاحظة من « فيفيان بل» فى الزواج والحب :

— على المرأة ان تختار ، فإما مع رجل تميل اليه النساء فلا تكون معه فى راحة قط ، وإما مع رجل لاتميل النساءاليه قلا تكون معه فى سعادة قط .

فقالت الشاعرة :

— وانت ياعزيزة ؟ أى نصيب تختارينه لصديقة عزيزة عليك ؟

— أتمنى يا« فيفيان »ان تكون صاحبتى هانئة ،كما اتمنى لها ان تكون بمنجاة من الهم ، وهى تريد ان تكون كذلك كراهة للخيانة والشكوك المذلة واساءة الظن الدنيئة .

— لكن الأمير يا عزيزة قال ان المرأة لاتستطيع أن تحظى بالسعادة وراحة البال فى وقت واحد ؛ فقولى أيهما تختارين لصاحبتك يا عزيزة ؟

— مامن انسان يختار يافيفيان ، مامن أحد يختار . فبربك لاتدعينى أقول رأيى فى الزواج .

وعندئذ ظهر « شولت » بهيئته الوجيهة كهيئة اولئك السائلين الذين يشرفون أبواب المدن القديمة !

وكان آتيًا من إحدى حانات « فيزول » حيث كان منذ قليل يلعب والفلاحين لعبة الورق .

فقالت « مس بل » :

— هوذا مسيو « شولت » ! وهو الذى يدلنا على الرأى فى الزواج ، وإنى أتوق الى سماعه كما لوكان هاتفا او ذا رأى معصوم ! ! فهو لايرى ماتراه ، ويرى مالا نراه . فيا ايها السيد « شولت » ما رأيك فى الزواج ؟ !

فجلس ورفع سبابته ، سبابة « سقراط » ، ثم قال :

— أتتكلمين يامدموازيل عن العقد المشهود ؟ بهذا يكون الزواج سراً دينيا . ومن هنا يحدث انه يكاد يكون دائمًا حرامًا ! اما فيما يختص بالزواج المدنى فمحض رسميات . والقيمة التى يعلقها عليه مجتمعنا الحالى حماقة تضحك منها نساء الزمن الخالى . ونحن مدينون بهذا الحكم الخاطىء ، ككثير غيره ، لتلك الحركة التى قام بها الفلاحون ، والطفرة التى طفرها رجال المال والقانون ، واطلقوا عليها اسم « الثورة » ، الثورة التى تبدو جديرة بالأعجاب فى عيون الذين ينتفعون منها و يرتزقون . وهى الام الولود لكل حماقة . ومنذ جيل وهى تخرج لنا مع مطلع كل شمس سخافات جديدة من جيبها المثلثة الالوان [1] !

---

(١) اشارة الى علم الثورة الفرنسيه ، وهو علم الجمهورية الحالى .

فليس الزواج المدنى ، فى الواقع وحقيقة الامر ، سوى تسجيل كغيره من التسجيلات الكثيرة التى انشأتها الحكومة لتتأكد من حال رعاياها . فنى الحكومة المتدينة يجب ان يكون لكل فرد بطاقته ، ولهذه البطاقات كافة قيمتها عند ابن الله !!!

اما أدبيا ، فليس هذا الادراج فى سجل كبير بكاف لحمل امرأة على اتخاذ عشيق . فمن ذا الذى يتردد فى الحنث بيمين حلفها أمام عمدة بلد ؟ ! فيجب ان تكون المرأة تقيه لتتمتع بلذات الفحشاء الحقيقية !!

فقالت تريز :

— لكننا ياسيدى قد تزوجنا فى الكنيسة .

ثم عقّبت بنغمة أعمق اخلاصا :

— لست أفهم كيف يمكن انسانًا ، رجلا كان أو امرأة ، بلغ سن الرشد والتمييز التى يعرف فيها مايصنع ان يرتكب هذه الحماقة : الزواج . .

فنظر اليها الأمير « البرتنلّى » متشكّكاً ، وكان على حدة ذهنه لايتصور ان أحداً ينطق عن غير الهوى ، لابداء الرأى فى مسألة عامة مثلا . فظن ان « الكونتس مارتن » قد استكشفت مشروع زواجه بمس بل فاعتزمت معاكسته ففكر فى الدفاع عن نفسه والاخذ بثأره . فاختلس اليها النظر الشزر ، وخاطبها فى ظرف وتودد قائلا :

— انك ياسيدتى تبدين دلال الفرنسيات الجميلات الذكيات اللواتى يثقل النّير كاهلهن و يهيجهن . فالفرنسيات يعشقن الحرية ، ولاأرى منهن من يستحقها اكثر منك . وانا نفسى عشت زمنا فى فرنسا ، وعرفت المجتمع الباريسى الانيس ، واعجبت به ، سواء فى أبهاء الاستقبال أو على موائد الطعام ، وفى المحافل والملاهى والملاعب . لكننا ، نحن الطليان ، هنا بين جبالنا وتحت أشجار زيتوننا ، نعود الى خشونة الريف ، ونرجع الى طباع بلادنا القروية ، فنرى الزواج أنشودة حب تفيض حلاوة وطلاوة .

وكانت « فيفيان بل » تفحص الدمية التى صنعها « دى شارتر» وتركها على المنضدة ، ثم صاحت :

— انى واثقة من ان هذه صورة « بياتريس » الناطقة ! فهل تعرف يامسيو« دى شارتر » ان هناك اشراراً يقولون ان «بياتريس» لا أصل لها ؟

فأعلن « شولت » أنه من أولئك الأشرار ، فهو لا يعتقد أن « بياتريس » كان لها من الأثر اكثر مما كان لغيرها من النساء اللواتى أشاد بذكرهن شعراء الحب القدماء.

ولما كان « شولت » لا يحتمل سماع اى مديح غير مغدق عليه وكان كثير الغيرة من « دانتي » ومن العالم قاطبة ، وكان كذلك أديباً أريباً ، حسب انه استكشف نقطة الضعف ، فقال :

— انى أشك فى ان تكون « بياتريس » عاشت فى غير مخيلة أمير الشعراء المجدبة . وحتي فى هذه المخيلة تلوح رمزاً خالصاً نقياً أو بالحرى تعداداً حسابياً أو تمرينا فلكياً . لأن « دانتى »، والكلام بينى وبينكم ، كان طبيباً متخرجاً فى « بولونيا » لا بأس به ، وهذا الاستاذ فى علم الجبر قد حلم بالأرقام فكانت « بيانريس » زهرة حسابه ، وحسب !

ثم أشعل غليونه ، فاحتجت « ڤيڤيان بل » عليه صارخة :

— صه ! لا تفه بمثل هذا الكلام يا مسيو « شولت » ، انك تؤلمنى ،ولو سمعك صديقنا مسيو « جبهار » لخاصمك أشد الخصام . وعقاباً لك سيتلو عليك الأمير « البرتنلى » النشيد الذى تعلل فيه « بياتريس » وجود الكلف فى وجه القمر . فخذ (المهزلة الآلهية) يا « أويزبيو » ، أنه الكتاب الأبيض الذى تراه على المنضدة فافتحه واتلُ علينا .

وفى أثناء المطالعة ، تحت المصباح ، كان « دى شارتر » جالساً بالقرب من « الكونتس مارتن » يحدثها همساً عن « دانتى » متحمساً، مطلقا عليه اسم « مثّال الشعراء الاعظم »

فاعترفت « تريز » بانها تري « دانتى » غامضا جهد الغموض، وليس يستهويها الاّ قليلا . اما « دى شارتر » الذى تعود مشاركتها

« شولت » ، « الريفى » ، « البرتنلى » ، « مس بل » ، « مدام ماريه » ، « دى شارتر » ، « تريز »

فى كافة آرائه فى الشعر والفن ، فدهش واستاء منها نوعا ، وخاطبها بصوت مرتفع ، قائلا :

— هناك أشياء قوية عظيمة لاتشعرين بها !

فرفعت « مس بل » رأسها ، وسألت عن هذه الأشياء التى لاتشعر بها «عزيزة». ولما سمعت أن منها عبقرية « دانتى » صاحت بغضب كذِب :

— وى ! أفلا تجلين الأب الأستاذ الحقيق بكل ثناء ، النهر المعبود ؟ فلست أحبك ياعزيزة بل أكرهك !

وذكرت في معرض العتب على « شولت » و«الكونتس مارتن» حكاية ذلك المواطن الفلورنسى التقى الذى أخذ من الهيكل الشموع المضاءة تمجيداً ليسوع المسيح ووضعها أمام تمثال « دانتى » . . .

وعاد الامير بعد هذه المقاطعة الى القراءة .

فاصرَّ « دى شارتر » على رغبته فى جعل « تريز » تعجب بمالا تفهم . ويمينا ، لقد كان من أجل خاطرها يضحى بدانتى والشعراء على بكرة أبيهم مع الدنيا كلها قائمة برأسها !

على أن تريز كانت بقربها منه ، ورؤيته إيَّاها هادئة مشتهاة ، قد هاجته ، على غير علم منها ، بفتنة جمالها البسَّام .

فشعر بالعناد يدفعه ليحملها أفكاره وعواطفه بل وأهواءه

وهواجسه . . فضيَّق عليها الخناق ، فى صوت خافت ، وكلمات على عجل ، فيها الحجة والبرهان ، فصاحت به :

— رباه ! ما أشد بأسك وعنادك !

وعندئذ أسرَّ اليها ، وهو مضطرم الصوت حارُّه ، وقد حاول عبثًا أن يخمده :

— عليك أن تأخذينى بروحى ، فلن أفرح بأن أنالك بروح غريب منى لم يكن روحى .

فسرت مع هذه الكلمات فى « تريز » رعدةٌ من الخوف والفرح معا .

(دانتى)

١٤

فى اليوم التالى ، عندما استيقظت من نومها ، قالت لنفسها أن الواجب يقضى عليها بالرد على رسالة « روبير » . وكان الجو ماطرا ، فصعدت بفتور الى قطرات الماء تساقط على مشرف القصر . وكانت « فيفيان بل » قد جهزت المنضدة بذوق سليم ، بجميع أدوات الكتابة الفنية ، فمن ورق رسائل يماثل ورق الكتب التى دونت فيها صلوات المسيحيين ؛ الى ورق بنفسجى شاحب ملمَّع بالفضة ؛ الى أقلام من العاج الصناعى بيضاء خفيفة تمسك كالفرشاة ؛ الى حبر قُزَحى اللون يتحول على الصفحة الى لون سماوى ذهبي . .

فذهب صبر « تريز » وَبرِمَت بهذه الأدوات الظريفة غير العادية التى رأتها غير متناسبة مع الخطاب البسيط الصريح الذى تريد كتابته . ومرَّت بشفتيها بسمة واهنة عندما فطنت الى ان لفظ « صديق » الذى خاطبت به « روبير » فى السطر الأول قد اتخذ على القرطاس المفضَّض المموَّج بلون الصدف ورقاب الحمام شكلاً شاذًّا لاعبًا . . وعانت صعوبة فى صياغة الجمل الأولى . وعجَّلت فى تحبير بقية الكتاب . فكتبت طويلا عن « فيفيان بل » و الامير « البرتنّلى » ، وقليلا عن « شولت » ، وذكرت أنها رأت « دى شارتر » فى مروره بفلورنسا . وأطرت بضع صور فى المتحف لم تكن راقتها فعلا ولكنها ذكرتها لمجرد ملء الصفحات ، وكانت تعرف

أن « روبير » لايفهم فى التصوير شيئا ، وان كل ماكان يعجب به صورة رجل صغير دارع . وعادت فرأت بعين بصيرتها ذلك الدارع الصغير الذى أراها اياه ، فخورا به ، فى حجرة نومه بقرب المرآة تحت صور أفراد أسرته . فبدا لها هـذا كله ، على مابينها وبينه من البعد ، تافها مملا محزنا . وختمت خطابها ببضع كلمات ودية خالصة . ففى الحق لم تشعر قط من قبل نحو حبيبها بمثل ماشعرت به الآن من طمأنينة ورأفة .

وفى الصفحات الأربع قالت قليلا وعَنَتْ أقل ، واكتفت بأخباره بأنها ستبقى شهراً آخر فى فلورنسا حيث ينفعها الطقس ، ثم كتبت الى أبيها وزوجها والأميرة « سنيافين » . ونزلت الدرج وفى يدها رسائلها ، ووضعت ثلاثا منها على الصحن الفضى المعد للبرد ووضعت خطاب « لومنيل » فى جيبها حَذَرَ عين «مدام مارميه » الفضول المتجسسة ، على نية أن تضعه بنفسها فى احد صناديق البريد فى الطريق عند خروجها للتنزه .

ولم ينشب « دى شارتر » ان جاء ليصحب الصديقات الثلاث الى المدينة ، وبينا كان ينتظر فى الردهة رأى الرسائل على صحن الفضة .

ودون اعتقاد منه بالاستدلال على الخُلُق بخط اليد ، تأثَّر بشكل الحروف التى بدت له فى جلاء وتأنق خاص كأنها نوع من الرسم .

فقد فتنه خط « تريز » لأنه أذكره إيّاها وكان منها كذخر حميد ! وقدّر أيضاً ما فيه من صراحة بالغة و بساطة باسلة ، ونظر باعجاب شهوانى الى العنوانات من غير أن يقرأها . . .

وفى تلك الصبيحة زاروا « سانتا ماريا نوڤلاّ » ، وكانت « الكونتس مارتن » قد ذهبت اليها من قبل برفقة «مدام مارميه»، غير أن « مس بل » عيَّرتهما أنهما لم يريا « چنرڤا دابنشى » الجميلة على لوح من الجص فى صدر الكنيسة ، وقالت لهما :

— يجب أن تشاهدا هذا الوجه الصبيح على نور الصباح .

و بينا كانت الشاعرة و تريز تتحدثان معا ، كان «دى شارتر» يساير « مدام مارميه » صاغياً بصبر الى ما تقصّه عليه من نوادر أعضاء الأكاديمى مع ظريفات النساء . وشارك السيدة الصالحة همومها لما بذلته عدة أيام من جهود ذهبت أدراج الرياح فى سبيل الحصول على نقاب من « التُلّ » . ولم تجد فى حوانيت فلورنسا كلها نقاباً واحداً يلائم ذوقها ، فهى لذلك تحن الى شارع « دو باك » بباريس . .

ولما خرجوا من الكنيسة مروا بتخشيبة الخصّاف الذى اتخذه « شولت » أستاذاً . وكان الرجل الصالح يرتق حِذَاء قروى ، وغصن الريحان الأخضر الى جانبه ، والعصفور ذو الساق الخشبية يزقزق بقربه . فسألت « الكونتس مارتن » الشيخ عن صحته ، وهل لديه من العمل كفايته ، وهل هو بخير ، فأجاب عن كل هذه

الأسئلة بكلمة « نعم » الأيطالية الجميلة : « سى » ! « Si » التى تخرج من فمه الأدرد موسيقية شجية .

فطلبت اليه أن يروى لهم قصة عصفوره ، فقال أن الطائر الصغير المسكين الطائش وضع رجله ذات يوم فى الشمع المغلى :

— فصنعت للرفيق الصغير ساقاً خشبية من عود ثقاب ، وهو لآن يستطيع أن يجثم على كتفى كما كان يفعل من قبل .

فقالت « مس بل » :

— هذا شيخ طيب القلب يعلّم مسيو « شولت » الحكمة ، وكان فى « أثينا » خصّاف يُدعى « سيمون » وضع أسفاراً فى الفلسفة ، وكان صديقا لسقراط ، ولقد وجدت مسيو « شولت » دائماً شبيها بسقراط .

فسألت « تريز » صانع الأحذية أن يخبرهم باسمه وبقصته . فقال انه يدعى « سرافينو ستو بينى » من « مستيا » ، وقد بلغ من الكبر عتياً ، وكانت حياته تعباً كلها .

ورفع عوينانه فوضعها على جبينه ، كاشفاً عن عينين زرقاوين تفيضان وداعة ورقة ، ويكاد يغشى بصرهما تحت جفونهما الحمراء وعاد يقول:

— كانت لى زوجة وكان لى اولاد ، ففارقونى وأنا أعيش اليوم وحدى ، وقد عرفت أشياء غابت الآن عنى . .

وكانت « مس بل » و « مدام مارميـه » قد ذهبتا لشراء النقاب ، فقالت « تريز » فى نفسها :

— ليس له من دنياه غير « شاكوش » وقبضة من المسامير ، ومِرجل خشبى ينقع فيه جلوده ، وأصص ريحان ، ومع ذلك فهو سعيد !

فقالت له مشيرة الى غصن الريحان :

— هذه النبتة زكيّة الرائحة ، فلن تلبث ان تزهر

فأجاب :

— إذا أزهرت الصغيرة المسكينة ، ماتت !

وتركت له « تريز » عند انصرافها على المنضدة قطعة من النقود وكان « دى شارتر » بقربها فقال لها بجد كاد يكون صارمًا :

— أعرفت ؟

فنظرت اليه وانتظرت

فأتم جملته :

— . . . . . انى أحبك

فظلت لحظة صـامتة ، شاخصة اليه بعينيها النجلاوين اللتين تختلج جفونهما ، ثم حنت رأسها ، مؤمّنة على قوله ، وذهبت دون ان يحاول منعها ، الى « مس بل » و « مدام مارميـه » وكانتا فى فى انتظارها فى آخر الطريق .

تركت « تريز » « دى شارتر » وذهبت برفقة صديقتها « مس بل » و « مدام مارميه » لتناول الغداء عند سيدة فلورنسية عجوز وهن العظمُ منها واشتعل الرأس شيباً . وقديماً هام بها الملك « ڤكتور عمانوئيل » إذ كان دوقاً لسافوى . ومذ ثلاثين عاماً وهى لم تغادر مرة واحدة قصرها القائم على شاطىء « الارنو » حيث انقطعت لتلوين وجهها بالمساحيق البيضاء والحمراء ، ووضع الشعر البنفسجى اللون على رأسها والعزف على القيثارة فى ساحات القصر الفسيحة وكانت تستقبل فيه خاصة أهل فلورنسا ، وكثيراً ما كانت « مس بل » تذهب لتزورها .

وعلى المائدة ، أخذت هذه المعتزلة البالغة من العمر سبعاً وثمانين سنة ، التى أدبر غريرُها وأقبل هريرُها ، تسأل « الكونتس مارتن » عن البيئات الباريسية اللاهية الأنيقة التى تتبع أخبارها فى الصحف والاحاديث ، فى تصاب وخفة جعلهما مرور الأيام جلالا وحشمة ! . فانها على وحدتها ، ما زالت تعتزُّ بما تحمله للمسرات وأهلها من إكبار وإعجاب

ولما خرجن من القصر ، وأردن تجنب الرياح العاصفة عبر النهر ، سارت « مس بل » بصاحبتيها فى أزقة ضيقة عتيقة مبنية

ہمارے ساتھ ہمارے مہمان ایک ہندوستانی خاتون

بيوتها بحجارة سوداء ، تفضى الى ساحة فسيحة بها رابية وثلاث شجرات ذاهبة فى الجو الصافى .

فسرن حتى كنيسة « أورسان ميكيل » حيث كان « دى شارتر » على وعد منهن .

وكانت « تريز » تفكر فيه إذ ذاك بالتذاذ واهتمام فائقين ، على حين أن ما كان يشغل بال « مدام مارميه » هو البحث عن نقاب « التُّل » ، فقد منَّوها بأنها تجده فى محل بشارع «الكورسو» فذكرتها هذه الحاجة بحكاية جرت للمسيو « لاجرانج » صديقها ذات يوم وهو يلقى محاضرته ، إذ أخذ من جيبه نقابًا موشًّى بحبات من الخرز الذهبى ، فمسح به جبينه ، واهمًا أنه منديله ! فقهقه الحضور دهشين . وكان هذا النقاب لابنة أخته الآنسة « چان ميشو » التى عهدت اليه به وقد أخذها الى حفلة موسيقية فى الليلة السابقة . ووصفت « مدام مارميه » لصاحبيها كيف انه لما وجد النقاب الموشًّى فى جيب معطفه أخذه معه على نية أن يرده الى ابنة أخته ، وكيف حدث أن نسيها فنشره ملوّحًا به أمام النظارة المبتسمين .

فذكَّر اسم « لاجرانج » « تريز » بالمذنب الملتهب الذى تكهَّن به ذلك العالم . فقالت لنفسها بحزن وتبكيت ، ان هذا وقته ، فليته يجىء وينهى العالم ويخلصها من ورطتها ! . . لكنها التفتت فشاهدت السماء وقد اقتحمها هواء البحر فتلألأت زرقاء فى شحوب وجفاء .

فلفتت « مس بل » نظر « عزيزتها » الى تمثال من تماثيل البرنز التى تحلى واجهة الكنيسة قائمة فى كوّاتها المحفورة . وكان تمثال « سان چورج » ، لكن « عزيزة » رأت أن شكله عادى ممل عنيد . فتذكرت فى تلك اللحظة الخطاب الذي فى جيبها . .

واذا بالصالحة « مدام مارميه » تقول :

— أظن هذا هو المسيو « دى شارتر » !

وكان فى طلبهم ، فالتقوا و إيّاه ، و بينا كانوا يقتربون من تمثال « سان مارك » رأت « تريز » صندوقاً للبريد مثبتاً فى حائط الطريق الضيق الذى يقدم التمثال فى نهايته . وتخيَّر « دى شارتر » موقفاً يرى منه جيداً تمثال صاحبه « سان مارك » ، وتحدَّث عنه كما لو كان صديقاً حميماً ، فقال :

— إنى أزوره دائماً كلما بلغت فلورنسا وقبلما أذهب الى أى مكان آخر فيها . لم أغمل ذلك الا مرة واحدة ، لكنه سيغتفرها لى ، فهو رجل فاضل . وسواد الناس لا يقدره قدره ، وقليلا ما يلفت نظره ، أما أنا ففرح بصحبته ، وهو حيٌّ عندى . وفى وسعى أن أفهم الصيحة التى صاحها صانعه « دونتا نلّو » بعد ما نفخ فيه من روحه ، قائلاً : « أيها القديس مارك ! كيف لا تتكلم ؟ »

فبرمت « مدام مارميه » بسماع الأعجاب بسان مارك فأخذت « مس بل » الى شارع « كالزايولى » فى طلب النقاب ، وفصَلَتا

تاركتين « عزيزة » و « دى شارتر » يتعبّدان وحدهما للتمثال ، واتفقوا على اللقاء عند بائعة القبعات .

واستطرد المثّال حديثه قائلا :

— لقد أحببته ، لقد أحببت هـذا القديس « مارك » لأنى وجدت فيه أكثر مما وجدت فى تمثال « سان جورج » يدَ « دونتا نلّو » وروحه ، هذا الصانع الذى عاش طوال أيامه فقيراً مستقيما . وأجدنى اليوم أشدّ ما كنت حباً له ، لأنه بحياته ووقاره البالغين يذكرنى بذلك الشيخ خصّاف « سانتا ماريا نوڤلاّ » الذى كنتِ صباح اليوم تتحدثين اليه فى رقة تفوق الوصف . .

فقالت :

— آه ! . . لقد نسيت اسمه ! ونحن ومسيو « شولت » ندعوه « كانتان ما تسيس » ، لأنه يذكرنا بصور الشيوخ التى رسمها المصور المدعو بهذا الاسم .

ولما دارا حول زاوية الكنيسة ليشاهدا واجهتها التى تقابل محلج الصوف القديم الذى له مظلة من القرميد الأحمر معلق تحتها (الحَمَل) وهو شعار المحلج ، ألقت « تريز » نفسها امام صندوق البريد الذى كان يعلوه الصدأ والغبار الى حد يلقى فى النفس أن ساعى البريد لم يقربه قط !

فدسَّت فيه خطابها ، تحت عيني « سان مارك » الصافيتين الساهيتين . .

ورآها « دى شارتر » ، فشعر لساعته كأنما أصابت قلبه طعنة نجلاء . فحاول أن يتكلم أو يبسم ، لكن اليد المكسوَّة بقفازها ، التى ألقت بالخطاب ، ظلَّت ماثلة له . وتذكر أنه رأى فى ذلك الصباح رسائل « تريز » على الصحن الفضى فى الردهة . فلِمَ لم تضع هذه مع تلك ؟

لم يكن حزْر السبب بعسير .

فوقف جامداً ، مشرَّد اللب ، شاخص البصر الى غير شىء . . وحاول أن يسكن روعه بقوله : «قد يكون خطاباً غير ذى بال و إنما أرادت إخفاءه اتقاء فضول « مدام مارميه » الملحاح ! »

قالت تريز :

— يامسيو دى شارتر ، لقد حان وقت لقائنا صاحبتينا عند تاجرة القبعات .

وكان لايزال يفكر فى نفسه يقول :

— لعلها كتبت الى «مدام شمل » التى شجر الخلاف بينها و بين « مدام مارميه » تريد اصلاح ذات بينهما.

وما لبث ان تبين هبل هذه الظنون .

لقد برح الخفاء ! .. ان لها عاشقا ! .. وقد كتبت اليه ،ولعلها قالت : « رأيت اليوم دى شارتر ، وصاحبنا المسكين مُدَلَّه بى »

وأياً ما كان كتابها ، فلها عشيق . ولم يكن خطر له مثل ذلك الخاطر قط. وأحدثت له فكرة أنها لسواه ، هذه الفكرة المباغتة آلاماً مبرّحة بجسمه وروحه معا .

وظلت تلك اليد ، اليد الصغيرة ملقية الخطاب ، ماثله أمام ناظريه ، باقية فى عينيه تلهبهما لهيبا موجعا . .

ولم تدرك « تريز » سرَّ سكوته ووجومه الباغتين ، بيد انها وقد رأته ينظر قلقا الى صندوق البريد ، حزرته من فورها . فعجبت أن يغار بلا حق ، على انها لم تشعر باستياء .

ولما وصلا الى « الكورسو » رأيا من بعد « مس بل »و« مدام مارميه » خارجتين من حانوت القبعات .

فقال« دى شارتر » مخاطبا « تريز » لهجة الآمر المتوسل :

— لى معك حديث ، ويجب أن القاك على حدة ، فكونى غدا فى الساعة السادسة مساء بلونجارنو أتشياؤلى !

فلم تحر جوابا .

١٦

فى نحو السادسة والنصف ، وصلت الى « لونجارنو أتشياؤلى » متشحة بمعطفها الصوفى ، فاستقبلها « دى شارتر » بنظرة منكسرة براقة ، أثرت فى نفسها ، ومست شغاف قلبها .

وكانت الشمس الجانحة الى المغيب تصبغ مياه « الارنو » المتلاطمة بلون الارجوان . فمكثا هنيهة صامتين ، ثم سارا نحو « پونت ڤيو » . متتبعين صف القصور القائمة عل نسق ونظام .

وكانت هى التى بدأت الحديث بقولها :

— ها انت ذا ترى اننى جئت ، إذ رأيت واجبا على أن أجىء ، فلست اشعر باننى بريئة مما حصل ، فانا عارفة بانى قد فعلت كل مايجعل موقفك حيالى هو موقفك الآن ، وقد أوحى اليك تصرفى افكاراً ما كانت لولا تصرفى لتخطر لك فى بال . .

فبدا عليه كأنه لم يفهم ، فعادت تقول :

— كنت أنانية ، وكنت غير حازمة ، فقد أعجبتنى واستهوانى ذكاؤك ، فلم أعُدْ استطيع افلاتك ، فبذلت كل مافى طاقتى لأجتذبك وأحتفظ بك فتظرّفت لك ، ولم افعل ذلك ببرودة قلب أوقصد الخديعة ، ولو اننى فعلا تظرّفت . .

فهزَّ رأسه منكراً انه لاحظ ذلك او فطن له ، فقالت

— أجل ! لقد تظرَّفت لك ، ولم يكن من ديدنى ان أتظرف لأحد ، ولست أزعم انك حاولت استغلال ذلك وأن كان من حقك أو أزعم أنك لمحاولتى هذه قد ذهبت بك الخيلاء او لعب بعِطْفِك الكبرياء ، وقد يجوز انك لم تلحظ ذلك ، لأن ذوى المواهب العالية ينقصهم احيانا الدهاء . بيد انى اعرف جيدا اننى لم اكن ، كما ينبغى ان اكون . فصفحًا جميلا ! وهذا ما أتيت من اجله ، فلنبق صديقين حميمين مابقينا على قيد الحياة

فقال لها فى رقة حزينة ، أنه قد أحبها و بدأ حبه سهلا مفرحا لذيذا ، واجتمعت أمانيه فى ان يراها ثم يعود فيراها ، لكنها مالبثت ان اهتاجت مشاعره واسترقَّت فؤاده ، وجعلته يعزل عن نفسه . فانفجر بأس هواه بغتة و بقوة فى ذات يوم على مشرف قصر « فيزول » ، والآن اصبحت تعوزه الشجاعة ليألم صامتا ، وهاهوذا صرخ ملتمسا معونتها ، وهاهوذا اتى بغير خطة مرسومة ، واذا كان قد باح لها بحبه فذلك لانه لم يعد يستطيع الكتمان ، وعلى الكره منه ، و بضغط الاحتياج القاسى للتحدث عنها ، واليها ، لانها فيما يتعلَّق به المخلوقة الوحيدة الكائنة . فحياته لم تعد فيه ، وانما فيها . فلتعرف إذًا انه يهواها ، وليست عواطف هواه بالرقيقه الخافية ، بل انه كَلَفٌ جارف وشغف جارح ، وانه ولعٌ شديد وعشق مبيد !...

ووا أسفا ! ان له مخيلة كاملة محكمة ، فهو يعرف ، ويعرف بالدقة ، ويعرف على الدوام ما يريده ، وهذا عذاب .

وعنده انهما باجتماعهما وامتزاجهما سيتمتعان بالمسرات التى تجعل للحياة قيمة ، وسيكون وجودهما عملا من اعمال الفن الخبيثة الجميلة ، وسيفكران معا ، ويفهمان معا ، ويشعران معا . وستكون دنياهما التى يعيشان فيها دنيا عجيبة بما فيها من مشاعر وما فيها من خواطر :

— سنجعل الحياة جنة وارفة الظلال .

فتظاهرت بتفسير هذا الحلم على وجه برىء ، فقالت .

— ما اشدّ افتتانى بعقلك حتى لقد عاد من اخص حاجاتى أن أراك وأن أسمعك ، وقد أوضحت لك هذا بكل جلاء . فكن واثقاً من صداقتى ، وكن مطمئنا .

ومدت اليه يدها ، فلم يأخذها ، واجابها مغتاظا :

— لاأريد صداقتك ! لا أريدها ! يجب ان تصيرى لى بكليتك ، والا فلن اراك مرة اخرى . وانت تعرفين ذلك حق المعرفة ، فلماذا تقدمين الى يدك مصحوبة بكلمات ساخرة ؟ . . سواء أقصدت أم لم تقصدى فقد نفثت فىّ اشتهاء موئسا وشوقا لاعجاً ، وصرتِ لقلبى ألمه وعذابه والآن تسألينى ان اكون صديقك ؟ انك القاسية المتظرّفة الآن ! . . . فاذا كان لا يسعك أن تحبينى

فدعينى أفارقك ، وسأذهب ، ولست اعرف الى أين ، لأنساك وأكرهك ، فانى أشعر نحوك فى صميم قلبى بالكره والكدر معًا . أوّاه انى أحبك ! ولشدّ ماأحبك !

فصدقت قوله وخشيت هجره ، وروّعتها سلفًا كآبة الحياة المظلمة من دونه ، فقالت

— لقد وجدتك فى حياتى ، ولا أريد أن أفقدك ، كلا ! لاأريد !

فحاول فى استحياء وتأثر أن يغمغم شيئًا ، لكن الكلمات طعنته فى حلقه ، وكان الشفق ينحدر على الجبال البعيدة ، وأشعة الشمس الغاربة الأخيرة تتضاءل وتتلاشى فى الشرق على رابية « سان ميناسو » . .

فعادت تقول :

— لو انك عرفت حياتى ، لو انك رأيت إلى أى حدّ كانت فارغة من قبلك ، لفهمت منزلتك منى ، ومكانتك عندى ، ولما فكرت فى أن تفارقنى . .

لكن نغمات صوتها الهادئة ، وحركة خطواتها المتوازنة ، على حصباء الطريق ، هاجت حنقه وأثارت غيظه ، فصاح بها انه فى كرب وضيق ، وان اشتهاءها يورى ضلوعه ويلهب جوانحه ، وهذا هو الفكر الثابت الواحد الذى يملكه ويعذبه . وانه فى كل آن ، وفى

كل مكان ، فى ظلمة الليل ، وفى وضح النهار ، يراها فيناديها ، ويمد ذراعيه اليها ، وقد عرف الآن الداء الآلهى . . .

— اننى استنشق جمال فكرك ووحى ذهنك وسموَّ روحك وعزَّة نفسك ، استنشاق عطور جسمك . فاذا تكلمتِ خيل الىَّ أننى أرى روحك ترفرف على شفتيك ، وانى أموت لأننى لاأستطيع أن أكبسهما أرُفّهما بفمى ! . . فما روحك عندى الاَّ شذا جمالك. وكانت ميول القدماء كامنة فى نفسى ، فنبهتها وأيقظتها من سباتها ، وانى لأشعر بأنى أحبك بسذاجة وحشية . . .

فنظرت اليه فى رقة ولم تجب . وفى تلك اللحظة رأيا أنواراً وسمعا أناشيد محزنة تشق كبد الظلام دانية منهما ، ثم ظهر لهما رهبان فى مسوح سوداء ، كأنهم أشباح تدفعهم الرياح ، حاملين الصليب أمامهم ، وأولئك كانوا رهبان « رحموت اليسوع » مقنعى الوجوه بالخُمر ، ممسكين بالمشاعل ، مرتلين المزامير ، حاملين جثة الى المقبرة ، على ماجرت به العادة فى ايطاليا من ان يكون موكب الجنازة ليلا مع احتثاث الخطا . وظهر الصليب والتابوت والرايات على الميناء المقفرة . فتنحَّى « دي شارتر » و « تريز » الى جانب الحائط ليمكّنا من المرور ذلك الاعصار الجنائزى المؤلّف من جمهور الرهبان المقنَّعين والغلمان المرتلين ؛ وفى وسطهم يجرى معهم ذلك الميت الذى يزعج الناس فلا يرضى عنه أحد فى هذه الارض عاشقة المسرَّات والملذَّات.

ومرَّ مجرى ذلك السيل الأسود ، والنساء المُعْوِلات يهرولن من خلف التابوت المحمول على أكتاف أولئك الأشباح المنتعلين نعالاً من حديد . . .

فتنهدت « تريز » ، وقالت :

— ترى . . فيم تعذيب أنفسنا فى هذا الوجود ؟

فكأنه لم يسمعها ، وعاد يقول ، فى هدوء صوت :

— لم أكن شقياً قبل معرفتك ، فقد أحببت الحياة وربطتنى بها رغبات المعرفة والاستقصاء ، كما وصلتنى بها الأحلام والأوهام . ولذَّ لى منها الأشكال وروحها ، تلك الظواهر التى تستهوى النفس وتطيِّب الخاطر . وكانت مسرتى أن أرى وأن أحلم ، وتمتعت بكل شىء ولم أتعلَّق بشىء . وحملتنى أجنحةُ أهوائى دون أن يعتريها وهن . وطابت لى الأشياء كافة ، فلم أرغب فى شىء ، بل طبت عن كل شىء نفساً . فإنما منشأ الألم الرغبة . واليوم أدركت ذلك . وليست رغبتى عن ميل سوداوى ، فقد كنت سعيداً قبل أن أعرف رغبتى . أجل ، انى حصلت على قليل ، لكنه كل ما كان ضرورياً ليجعلنى قانعاً بعيشى ، أما الآن فقد فقدته . فضروب الهناء والمسرات التى كنت أجدها فى صور الحياة وفى تخيّلات الفن ، والفرح العميق الذى كنت أشعر به إذ أخلق بيدى شكلاً يعبّر بالمادة الملموسة عن وحى الخاطر : كل هذه قد سلبتنى منها جميعاً دون أن

تدعى لى أى محل للأسف عليها . وأرانى لم أعد أرغب فى حريتى، أو فى العودة الى هدوء أيام خلت ! . . وانه ليلوح لي كأننى لم أعش قط حتى لقيتك . والآن إذ أستطيع أن اعيش وأعرف معنى الحياة حقا ، لا أجدنى قادراً على العيش قريباً منك أو بعيداً عنك ، فأنا أشقى حظّاً وأعثر جَدّاً من اولئك السائلين الذين رأيناهم على قارعة طريق « ايما » ، فلدى هؤلاء الهواء الذى يستنشقونه ، أما انا فليس لى ما استنشقه ، لأنك أنت نسيم حياتى ، وأنت لست لى . ومع ذلك فأنا مغتبط بأنى قد عرفتك ، فهذا هو كل ما يعتدُّ به فى وجودى، ومنذ هنيهة حسبت انى اكرهك ، وكنت مخطئا فأنى أعبدك ، وانى اباركك لما سببت لى من ألم ، فأني أحب كل ما يأتينى منك على الاطلاق .

وكانا يقتربان من الاشجار السوداء القائمة على مدخل جسر « سان نيكولا » وهناك ، على ضفة النهر الاخرى ، بدت لهما الاراضى القاتمة اللانهاية لها حزينة حزنا ضاعفته الظلمات . . . فلما رأته عاد هادئاً وادعاً ظنت ان عاطفة غرامه فى خياله ، ولهذا انطوت طى أقواله ، وحسبت أهواءه لم تكن الاّ خيالاً وحلماً ، وما كانت تتوقع مثل هذا التقهقر السريع ، فكاد يبلغ اليأس منها ، لنجاتها من الخطر الذى خافته ذلك الخوف الشديد !

فمدت اليه يدها ، بشجاعة اكثر من سابقتها ، وقالت :

— هلمَّ ولنمهر عهد الصداقة بيننا ! وأرى الوقت متأخراً فهيا نعود . سر بنا الى عربتى التي تركتهـا فى ساحة « السنيوريا » ، وسأكون دائمـاً كما كنت من قبل صديقنك الودود ، فانك لم تكدرني ولم تثر استيائي .

لـكنه أخذها نحو الريف، على ضفة النهر التى كانت تزداد اقفاراً :

– كلا فلن أدعك تذهبين حتى أقول لك ما أريد . على أننى لا أستطيع وصف ما يقوم بنفسى ، لأن الـكلمات تعوزنى فلا أجدها. انى أحبك ! وأريدك ! وأتوق الى معرفة أنك لى ! واقسم لك أننى لن أمضى ليلة أخرى فى هول الشك ورعبه !

وأخذها بين ذراعيه ، وضمها اليه ، وألصق وجهه بوجهها ، وحدَّق تحديقًا شديداً فى عينيها ، من وراء حجابها الرقيق :

– يجب أن تحبيننى ! أريد ذلك ! وقد أردته أنت أيضًا . فقولى أنك لى ! قولى ذلك !

فتخلصت بلطف من حضنه ، وأجابت بصوت خافت متردد:

– لا أستطيع ! لا أستطيع ! وأنت ترى أننى معك صريحة فى الغاية ، وقلت لك منذ قليل أنك لم تكدرنى ، على أننى لا أستطيع أن أكون عند إرادتك .

وتذكرت العاشق الغائب الذى ينتظرها ، فكررت قولها :

– لا أستطيع !

فمال عليها ؛ وساءل بتلهف وقلق نظرتها الزائغة المنكسرة :

– لماذا ؟ انك تحبيننى ، فلماذا تسيئين الي وتعذبيننى برفضك أن تكونى لى ؟

وذهب يضمها الى صدره ، وحاول أن يضع فمه وروحه على شفتيها المحجَّبتين يقبلهما . . .

وفى هذه المرة ، انسحبت منه بسرعة وعزمة ، وقالت :

– لا أستطيع ! فلا تسألنى فى ذلك ، فلاأستطيع أن أكون لك.

فارتعشت شفتاه ، وارتجف جسمه ، فصاح :

– أن لك محباً تحبينه ، فلِم تهزئين وتلعبين بى ؟

– اقسم أنى لم أفكر أبداً فى السخر منك أو العبث بك ، واذا كنت سأحب فى هذه الدنيا انساناً فلن يكون سواك .

لكنه لم يكن يسمعها ، وصرخ فيها :

– دعينى ! . . . دعينى ! . . .

وفرَّ نحو المزارع المظلمة ، وكان نهر « الأرنو » قد غمر شاطئه فأنشأ من الأرض المعشبة مستنقعات سكب عليها القمر ، الذى كان يحجبه السحاب ، أضواءه المرتعشة . .

فسار فى طريق هذه المستنقعات على التربة الميثاء ، سريع الخطا ، مغمض العينين ، مهتاج الفؤاد . .

فجزعت ، وصرخت ، وأهابت به تناديه فلم يلتفت اليها أو يرد عليها . ومضى لطيَّته بثبات مخيف لا يلوى على شيء . . . فأُهرِعَتْ من خلفه تجرى تَرُضُّ قدميها الأحجار ، وتُثْقِلُ ثوبها المياه ، حتى وصلت اليه ، وشدته نحوها قائلة :

– ماذا كنت ذاهبًا لتفعل ؟

فلما نظر الى عينيها ، طالع فيهما الخوف الذى تملكها ، فقال :

– لا تخافى ولاتجزعى ، فقد ذهبت بغير وعى ، وثق أننى لم أكن أريد الموت . أوه ! ألا بالله ليطمئن قلبك وليسكن روعك ! نعم ، إننى فاقد الرجاء لكننى ساكن الجأش ، وقد هربت منك فسامحيني ، بيد إننى غير قادر على احتمال رؤيتك . لا ! إنني غير قادر ؛ فأتوسل اليك أن تدعيني وشأنى . وداعا !

فأجابت مضطربة خائرة :

– تعال ، وسنرى ما يمكن عمله . .

لكنه لبث صامتًا مغمومًا ، فكررت قولها :

– هيا بنا ، هلمَّ !

وأخذت بذراعه ، فأنعشته لمسة يدها الرقيقة ، فسألها :

– هل لك . . . ؟

– لا أريد أن أفقدك .

– أتعدينني . . . ؟

— لا مناص . . .

وبسمت قليلا ، برغم قلقها وانفعالها ، لفكرة أنه نجح هـذا النجاح العاجل فى نيل مُنيته بفضل جنونه . .

فسألها :

— غداً . . . ؟

فأجابت بحدة ، كمن تدفع بالفطرة عن نفسها :

— لا ! ليس غداً !

— أراك لا تحبيننى ، وقد ندمت على وعدك . .

— كلا . لم أندم . ولـكن . . .

فما زال يتصرَّع لها ويتضرَّع ، حتى نظرت اليه ملياً ، وزوت وجهها ، وترددت ، ثم قالت بصوت أعزّ ما يكون خفوتًا :

— السبت !

١٧

جلست « مس بل » فى بهو الاستقبال بعد الغداء ترسم على « الجنفيص » أشكالا لتطرزها « مدام مارميه » على وسادة . وكان الامير « البرتنلّى » يتخير ألوان الصوف بذوق أنثوى . وكانت السهرة قد طالت عند ما ظهر « شولت » للحاضرين ، عائداً من المطعم حيث كان يلعب الورق مع الطاهى كعادته ، وظهر جذلان مَرِحًا ، بادية حصافته وفصاحته ، كأنه ممدود بروح من إلّه !

فجلس على (الكنبة) بجانب « الكونتس مارتن » ، ونظر اليها حنانًا ، وعيناه الخضراوان تشعّان بريقَ الشهوة الفائرة . . .

وغمرها ، وهو يحدثها ، بضروب الثناء الشعرية المونقة ، فكأنه كان ينظم فى مديحها أنشودة غرام . . ووصف الجمال الذى به اجتذبته ، والحسن الذى به فتنته ، فى مقاطيع مقتضبة قصيرة متألقة غريبة !

فقالت فى نفسها : « حتى هو ! » .

وسرت عن نفسها بمداعبته ، فسألته ألم يستكشف فى أحياء فلورنسا البئيسة احدى اولئك المخلوقات اللواتى تلذّ له صحبتهن وتحلو له مودتهن . ذلك أن ميوله من هذه الوجهة ، فى تفضيله هؤلاء النسوة ، معروفة مشهورة . وما كان إنكاره لينفعه أو يشفع

له ، وليس من يجهل فى أى باب من الأبواب وجد زنّار القديس « فرنسوا » ؛ وكذلك طالما رآه صحبهُ فى « بوليڤار سان ميشل » مع نساء الشوارع ، وقد أعرب فى أحسن أشعاره عن تعلّقه بهذه الخلائق الشقية . وأضافت :

— أى مسيو « شولت » ! إننى حكمت على هوى ما سمعت ، أن صواحبك المختارات آثمات خاطئات . .

فأجاب برزانة ووقار :

— سيدتى ! انك تستطيعين أن تجمعى بذور الثلب والافتراء التى بذرها مسيو « بول ڤانس » وتلقيها بالحَفَنات فى وجهى ، فلن أدفع عن نفسى ، فليس لزاماً أن تتحقق نقاء عرضى ، لكن ناشدتك الله ألاّ تتسرعى بالحكم على من سميتهن خاطئات ، وهن جديرات أن تعديهن مقدسات لأنهن تعسات . .

إى وربى ! ان النفاية ، الفتاة المحتقرة المنبوذة ، هى الصلصال اللّين بين أصابع الخزّاف الجبّار ، وهى كفّارة الاثم ، وهى القربان المضحّى به على مذبح الخطيئة . .

إى وربى ! أن العاهرات أقرب الى الله من الطاهرات ، فقد فقدن الغرور والخيلاء ، وتجردن من الصلف والكبرياء ، ولسن مكرمات عند تلك النافلة من الرجال فخر القوّادات . . .

وتجدين من طبعهن الخضوع ، وهو حجر الزاوية فى صرح

الفضائل السماوية . وستكفيهن ندامة يسيرة وتوبة قصيرة ليكنّ أول الداخلين الى دار السلام .. فقد ارتكبن خطاياهن بلا مكر ولا خباثة ولا فرح ولا لذاذة ، فهى لذلك تحمل فى ذاتهـا الكفّارة والغفران . فخطاياهن التى هى أحزان وعذابات لها أجر الحزن كما ان لها ثواب العذاب . . . أولئك النسوة اللائى حرمن أنفسهن اللذات والمسرّات ، لأنهن للشهوات البهيمية مستعبدات مسخّرات ،أصبح مَثَلُهُن مَثَل الرجال الذين يخصون أنفسهم ليدخلوا ملكوت الله . . .

حقًا أنهن مثلنا من الخاطئين . لكن الحزى الذى يصيبهن ينزل كالبلسم على خطيئتهن ، فهن يكفّرن بعارهن وفضيحتهن عن إثمهن وجريرتهن ، والأثم يُطَهِّرُ كالنار . لهذا فأول دعاء يوجهنه الى الله يستجاب ، وقد أعد لهن سبحانه عرشًا عن يمينه ؛ وفى سمواته العلية ستكون ذوات التيجان سعيدات بجلوسهن تحت أقدام نسوة الأرصفة وبنات الشوارع . فلا تحسبى البيت السماوى مشيداً طبقًا للتصميم البشرى ، كلا يا سيدتى ، فهو يخالفه من كل وجه ، ومع ذلك فقد أوافق على أن هناك أكثر من سبيل للخلاص ، فيمكن اتباع سبيل الحب ، مثلا . . .

ثم قال :

— حب الرجال خسيس ، وليس سوى جرف هار أو طريق أشجان ، لكنه يؤدي الى الله . . .

فنهض الأمير ، وقبّل يد « مس بل » ، قائلا :

— الى يوم السبت !

فكررت « مس بل » قوله :

— نعم ، الى بعد غد ، الى يوم السبت .

فانتفضت « تريز » . « السبت » ! . . . انهما يذكران « السبت » هادئين كأنه ككل الأيام ، وكأنه قريب آتٍ لا ريب فيه !

ولم ترد ، حتى لحظتها تلك ، أن تعتقد أن يوم السبت لن ينشب أن يجيء عاجلاً ، و بطبيعة الحال .

***

وكان قد مضى نصف الساعة على انصراف الجماعة و «تريز» مستلقية فى فراشها ذاهلة متعبة تفكر . . .

واذا بها تسمع نقراً على باب حجرة نومها ، ثم فتح ، وظهر رأس « ڤيڤيان » الصغير ، قالت :

— الست أزعجك يا عزيزة ؟ أنائمة أنت ؟

كلا ! فليست « عزيزة » نائمة ، بل مؤرّقة ساهرة . فنهضت على مرفقها ، وجلست «ڤيڤيان» على السرير فكانت من خفة الوزن بحيث لم تُعلِمْ عليه ، وقالت :

— أعرف يا عزيزة انك عاقلة جداً ، وانى لواثقة بذكاء نفسك

ودقة حسّك وثوقى بصواب رأيك وصحة حكمك ، لذلك أتيت استشيرك فى أمرى .

فبغتت « تريز » ، وأحسّت شيئًا من القلق يخامرها ، فأنكرت بكل قواها تهمة العقل التى الصقتها بها صاحبتها ، لـكن « ڤيڤيان » لم ترعها سمعًا ، وعادت تقول :

— لقد قرأت كثيراً « فرانسوا رابليه » يا عزيزة ، وعنه وعن « فيلون » أخذت الفرنسية ، فهما أستاذان ضليعان من أساطين اللغة القدماء . لـكن ألا تعرفين « پانتاجرول » يا عزيزة ؟ لا حرج عليك فانا أرويها لك ، ففى هذه القصة يتساءل « پانورج » أيتزوج أم يظلّ أعزب ، وهو فى هذا أبله مستوجب السخر ، لـكن لا ضير يا عزيزة ، فانا بلهاء مثله ، لأننى أوجه اليك هذا السؤال بعينه .

فاجابت « تريز » بتبرّم لم تُخْفه :

— أما عن ذلك يا صديقتى فلا تسأليننى ، فقـد صارحتك برأيى فيه من قبل .

— لـكنك يا عزيزة لم تقولى الاّ ان الرجال يخطئون بزواجهم ، فلا أستطيع أن آخذ هذه النصيحة لنفسى !

فنظرت « الـكونتس مارتن » الى رأس « مس بل » الصغير كرأس الصبى ، وقالت وهى تقبلها :

— ليس فى الدنيا رجل من الكفاية فى الظرف واللطف بحيث يستأهلك !

ثم أتمت قولها برزانة وحنان :

— انك لست طفلة، فاذا كنت محبة محبوبة فافعلى مابدالك صوابًا ، ولا تعرقلى مسير الحب بالماديّات والترتيبات التى ليس لها فى العواطف شأن ولا دخل ، وهذه نصيحة صديقة .

فلبثت « مس بل » لحظة مترددة فى الفهم ، مبهوتة ، ثم احمر وجهها ، ونهضت ، وقد صُدِمَتْ .

(رابليه)

١٨

فى الساعة الرابعة من يوم السبت ذهبت « تريز » ، وفاق وعدها ، الى باب مقبرة الانجليز ، فلقيت « دى شارتر » عند سياجها ، وكان جادًّا مضطربًا ، ولم يتكلم الاَّ قليلا ، ففرحت بأنه لم يبد لها حبوره . . .

وسار بها خلف حيطان المقبرة الى طريق ضيق تجهله ، وقرأت على لوحه : « شارع الغيبرى » .

و بعدما سارا نحو خمسين خطوة ، وقفَ أمام دهليز مظلم ، وقال :

— هنا !

فنظرت اليه بكآبة لا حدَّ لها ، وقالت :

— أتريد أن أدخل ؟

ولما رأت إصراره ، تبعته صامتة فى ظلام الدهليز الرطب ، فاجتاز فناءً مُعشِبًا فى آخره بيت صغير ذو أعمدة ونوافذ ثلاث ، منقوشة واجهته العليا بصور المعز و بنات الغاب ، فأدار المفتاح فى القفل ، فاستعصى وكان له صرير ، فغمغم قائلا :

— صَدِىء !

فأجابت غير واعية :

— كل المفاتيح فى هذه البلاد صَدِئة !

وصعدا سلماً مخيما عليها السكون ، ففتح باب حجرة دخل « تريز » اليهـا ، فذهبت تواً ، دون أن تلقى على محتوياتها نظرة ، الى النافذة المطلة على المقبرة . وكانت تعلو الجدار رؤوس أشجار الصنوبر التى لا تعد خاصة بالمدافن فى تلك البـلاد حيث يمتزج الحداد بالفرح من غير أن يعكر صفوه ، وحيث يمتد التلذاذ بالحياة حتى الى العشب النابت فوق القبور . . .

فأمسك بيدها وسار بها الى مقعد كبير ، فظلّت واقفة تتأمل الحجرة التى نسقّها على وجه لا تشعر معه بأنها غريبة عن بيتها ، أو أنها امرأة مخاطرة مغامرة . وكان قد ثبت بالحائط بعض عروض من قماش هندى قديم ، عليها رسوم هزلية تمثل مسرات الزمن الخالى وهناك مقعد مريح وكراسى بيضاء ، وعلى منضدة بضعة كؤوس ملوّنة وأقداح فينيسية .

وكانت فى جميع الأركان حواجز « براڤانات » من الورق الملوّن ، عليها رسوم وجوه مستعارة وتصاوير مضحكة ، وحظائر أغنام ، تلك الأشكال التى تمثل ما كانت عليه مدائن فلورنسا وبولونيه والبندقية ، فى عهد كبار الأمراء وآخر الأدواج ، من نفسية مرحة جذلى .

ولحظت أنه قد عُنى باخفاء السرير وراء أحد تلك «البراڤانات» البديعة رسومها . وكان كل ما هناك أيضاً مرآة وسجادة ، ولم يجرؤ

على أن يقتنى أكثر من ذلك فى مدينة يقتنى فيها الباعة الحذّاق أثره دون هوادة .

فأغلق النافذة ، وأوقد النار ، وجلست هى فى المقعد الكبير معتدلة القامة ، فجئنا أمامها ، وأخذ بيديها فقبلهما ، وشَخَص إليها باعجاب يتنازعه الخوف والفخر ، ثم انحنى فلثم طرف حذائها . . .

فصاحت فيه :

— ماذا تفعل ؟

فأجابها :

— أقبِّلُ القدمين اللتين جاءتا بك الىّ !..

ونهض ، وضمها اليه برقة ، والتمس شفتيها ، ثم طبع قبلة طويلة على ثغرها .

فلبثت ساكنة لا حراك بها ، ناكسة الرأس ، مغمضة العينين ، وانزلقت قبعتها ، وانسدل شعرها . . .

لقد وهبته نفسها واستسلمت بغير دفاع

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وبعد ساعتين ، إذ كانت الشمس الغاربة تبسط الظلّ على

فناء البيت ، وكانت « تريز » قد رغبت فى العودة الى المدينة وحدها ، ألفت نفسها أمام مسلتى « سانتا ماريا نوڤلاّ » دون أن تعرف كيف أتت حتى ذلك المكان .

ورأت فى زاوية الميدان الخصّاف الشيخ يشدّ خيطه على تلك الوتيرة الواحدة التى لا تتبدّل ، وكان يبتسم ، وقد حطّ عصفورُه على كتفه .

فدخلت « تخشيبته » ، وجلست على كرسى واطىء بلا مسند ، ثم قالت بالفرنسية :

— كانتان ما تسيس ! يا صاحبي ! ما الذى فعلتُه ؟ وما الذى سيؤول أمرى اليه ؟ ؟

فنظر اليها بهدوء وطيبة بسأمة ، من غير أن يفهم أو يشغل باله ، فلم تكن تجد الدهشه اليه سبيلا .

فهزّت رأسها ، وعادت تقول :

— إن ما فعلته ، يا عم « كنتان » ، إنما فعلته لأنه كان يتألم ، وقد أحببته ، فلست نادمة على شىء .

فأجاب على عادته ، بكلمة « نعم » الايطالية الرنّانة :

— « سى » ! « سى » !

— اننى لم آت أمراً إدًّا يا « كنتان » ، أليس كذلك ؟ لكن الآن ماذا عسى أن يكون يا ربَّاه !

ونهضت للرواح ، فأشار اليها أن تنتظر هنيهة ، ثم قطف بعناية عوداً من الريحان ، قدمه اليها قائلاً :

— خذيه . . لرائحته الزكيَّة . . يا « سنيورا » !

١٩

كان اليوم التالى .

وكانت « الكونتس مارتن » جالسة عند النافذة تقرأ ، فأتى « شولت » فحيّاها ، بعد أن وضع على المنضدة عصاه المعقدة وغليونه وكيس سجادته الأثرى . وكان على وشك السفر الى بلده « اسيز » لابساً سترة من جلد المعز جعلت منظره شبيها بالرعاة القدماء المذكورين فى قصة الميلاد . قال :

— استودعك الله يا سيدتى ، فإنى تارك « فيينزول » وتاركك ، و « دى شارتر » ، و « الأمير البرتنلى » الحلو خالص . . وتلك السعلاة الظريفة « مس بل » ، لاننى ذاهب الى زيارة جبل « اسيز » الذى يجب ، على حد قول الشاعر ، الاّ يسمى « اسيز » بل الشرق ، لان منه أشرقت شمس المحبة . وسأجثو أمام ذلك الناووس المسجّى فى حوضه الحجرى جثمان القديس « فرنسوا » العارى ، متخذا وسادة من حجارة ، إذ لم يرد أن يأخذ من هذه الدنيا ، من هذه الدنيا التى كشف لها عن حقيقة سر السعاد والقداسة ، حتى ولا الكفن ! . . .

— فى رعاية الله « يا مسيو شولت » ! هاتِ لى معك أيقونة من أيقونات القديسة « كلير » ، فلشدّ ما أحب « كلير القديسة » !

— أنت على حق يا سيدتى ، فلقد كانت سيدة ممتلئة قوة وفطنة ، ولما جاء القديس فرنسوا وهو مريض يكاد يكف بصره ، ليمضى بضعة أيام فى «سان دميان» بقرب صاحبته ، بَنَت له بيديها صومعة فى الحديقة ، فطاب نفساً ، وكان اعياؤه المؤلم وانحطاط قواه والتهاب جفونه قد اجتمعت عليه فأقضت مضجعه. وفى الليل هاجمته الجرذان الضخمة وآذته ، فنظم تلك الترنيمة الجزلة فى تمجيد «الشمس» الفخمة و «المياه» اختنا الطاهرة النقية النافعة . ولعمرى أن ابدع أشعارى حتى التى منها فى ديوان «البستان المغلق» ليعد دونها جمالا وروعة وصدق لهجة . وعدل أن يكون كذلك ، لأن روح القديس فرنسوا اسمى من روحى ، وعلى أننى افضل جميع معاصرى الذين خبرتهم وامتزت بمعرفتهم ، لا قيمة لى ولست أساوى شيئا .

فقالت «الكونتس مارتن» انها تجد فى القسيس فرنسوا أولى القديسين بالمحبة ، فعقّب شولت :

— ان عمله قد هدم وهو حى يرزق ، ومع ذلك مات قرير العين ، لأن الفرح والتواضع كانا من صفاته . ولقد كان على التحقيق مغنّى الله الرقيق ! .. فليت شاعرا فقيراً آخر يأخذ على عاتقه تتمة عمله ويعلم الناس الدين الحق والفرح الحق ، وسأكون أنا يا سيدتى

ذلك الشاعر ، لو أتيح لى التجرُّد من العقل والحكمة واستطعت نبذ الكبر والعجرفة ، لأن كل جمال أدبى فى هذه الدنيا إنما تمخَّض عنه تلك الحكمة غير المفهومة التى تأتى من الله وهى شبيهة بالجنون . .

— لن أثبط همتك يا مسيو شولت ، لكننى مشغولة البال على نصيب النساء المسكينات فى عالمك الجديد ، لعلك تضمهن جميعاً الى أديرة ! ؟

فأجاب شولت :

— أفرض أن النساء يعقن كثيرا مشروعى فى سبيل الاصلاح المنشود ، لأن الشدة والجِنَّة اللتين بهما يتعشقهن الرجال هما شدة حريرة وجِنّة شريرة . أما اللذة التى يمنحنها فلا تأتى بهدوء ولا تسبب راحة ولا تؤدى الى سرور . وقد اقترفت فى حياتى لأجلهن جريمتين أو ثلاث جرائم فظيعة لا يعلم بها انسان . إنى أشك يا سيدتى فيما اذا كنت سأدعوك يومًا الى العشاء فى « سانتا ماريا ديز آنج » الجديدة ! . .

ثم تناول غليونه وكيس سجارته وعصاه ، وقال :

— لسوف تُغتفر هفوات الحب وزلّاته ، أو بالحرى أن الانسان لا يسىء ولا يزل إذا أحب فحسبُ ، فأما الحب الشهوانى فمزيج من البغض والأنانية والسخط ، بقدر ما هو مجتمع من الحب . وحدث فى احد الامساء انْ كنتِ جالسة على هذه (الكنَبَة) ، فبدوت

لى جميلة ، فاكتنفتنى غيوم من خواطر هائجة ، وكنت عائدا من « البرجو » حيث سمعت طاهى « مس بل » يرتجل فى وصف الربيع مائتى بيت من الشعر الطلى ، فغُمر روحى بفيض من الفرح السموى الذى انمحى عند مرآك ، فلا بد أن تكون (لعنة حواء) تتضمن حقيقة عميقة ، لأننى شعرت فى حضرتك بحزن وخبث ، وكانت على شفتى كلمات رقيقة ، فلم تتحركا بغير الكذب والبهتان ، ودهمنى من رؤيتك ما شدَّ وثاق صدرى وأنفد صبرى ، فشعرت بأنى خصمك وغريمك ، فأبغضتك ، ولما رأيتك تبسمين أردت قتلك !

— أحقا ؟ !

— أوه ! إنه يا سيدتى احساس طبعى للغاية . ولا بد انك شعرت به غير مرة ، لكن الرجل العادى يشعر به دون أن يدرك كنهه ، على حين تصفه مخيلتى النيرة وصفًا جليًا . فمن عادتى التمعّن فى ذاتى ، فأجدها أحيانا مزهوَّة فرحًا ، وغالبًا مخيفة سمجة ، ولو أنه كشف لك عنها فى ذيّاك المساء لصرخت جزعًا وهلعًا . . .

فابتسمت تريز وقالت :

— مع السلامة يا مسيو شولت!.. لا تنس أيقونة القديسة كلير!

فوضع كيس سجادته على الارض ، ومدَّ ذراعه ، ورفع سبابته كمن يلقى درسا ، وقال :

— ليس ثمة ما يخيفك منى ، لكن ذاك الذى ستحبينه ويحبك هو الذى سيكون عدوك . فياسيدتى أستودعك الله !

وأخذ متاعه ، وخرج ، فرأت قامته الرشيقة الطويلة تختفى وراء شجر البستان .

* * *

وبعد الظهر ذهبت الى « سان ماركو » حيث كان « دى شارتر » فى انتظارها ، مدفوعة اليه بالحنين والخوف من العودة الى لقائه على عجل كذلك . وأخمد كربها وسكّن ألمها شعورٌ جديد مجهول بلذة عميقة وعذوبة فائقة . ولم تعد اليها تلك الغشية التى ألمّت بها أول مرة ، تلك الرؤيا الفاجئة ، رؤيا ما لا يمكن إصلاحه أو تلافيه ، عند ما أسلمت نفسها شغفاً وهياماً مذعنة للحب إذعاناً . . انها الآن أصبحت رهن مؤثرات أبطأ عملاً وأشد فعلاً وأكثر غموضاً والتباساً . . . ففى هذه المرة تنقّبت ذكرى الملاطفة ، وقوة العاطفة ، بنقاب تخيلات أخّاذ بالألباب . فكانت منهوكة خائرة ، قلقة حائرة . لكنها لم تكن خجلة مستنكفة ، ولا نادمة متأسفة . ولم تكن فى فعل ما فعلت مندفعة بمحض إرادتها بقدر ما كانت مطيعة قوة أعلى من قوتها . وبرّرت عملها بخلوه من الغاية . فلم تكن متكلة على شيء أو متوقعة شيئاً . ولا شك فى أنها أساءت باستسلامها فى حين كانت غير حرة القياد . لكنها كذلك لم تكن تطلبت شيئاً . ونعلها لم

تكن عنده ، عند « دى شارتر » ، الاَّ ميلاً طارئاً وقتياً و إن كان خالصاً قوياً . لم تعرفه . لم تكن عرفت تلك التخيلات البديعة المحلقة ، التى هى فى الخير كما فى الشر أعلى وأسمى من مستوى الاعتدال العادى . ولو حدث أنه هجرها فجأة واختفى ، لما عتبت عليه أو وصمته بسوء القصد ، أو أن هذا على الأقل كان معتقدها ، بل إنها كانت تحفظ له فى نفسها ذكرى ما يُعَدُّ أندر وأثمن شىء فى الوجود . فقد يكون صاحبها غير أهل لعلاقة وثيقة ، علاقة حب مقيم ثابت ، وحسب أنه أحبها ، وقد أحبها ساعة من دهره ، ثم انتهى . فانها لم تجرؤ على أن تؤمل أكثر من ذلك وهى واقعة فى ورطة الموقف الكاذب الزائف الذى انتُهكت فيه حرمة كبريائها وسلامة نيتها كما تكدّر به صفو فكرها وزكانتها .

وبينا كانت المركبة سائرة بها الى « سان ماركو » تَعلَّلت بأنه لن يشير فى حديثه معها الى ما وقع بالأمس ، كما أن ذكرى تلك الغرفة المطلة على أشجار الصنوبر الزمردية العالية لن تكون بالنسبة لكليهما الاّ حلم حلم فى الكرى أو خلسة المختلس ! . . .

* * *

مدَّ اليها يده وهى تنزل من العربة ، فرأت فى نظرته ، قبلما يتكلم ، أنه يهواها ، وأنه ما زال يريدها ، وكذلك أحسَّت فى الوقت نفسه أنها أيضاً تريده !

قال :

— أنت ! أنت ! أحقاً أنك أنت ! لقد كنت هنا منذ الظهر ، منتظراً ، عالماً بأنك لمّا تأتى بعد، ولكننى كنت شاعراً أننى لا استطيع العيش بعيداً عن المكان الذى أتوقع فيه رؤيتك . هأنت أنت ذى ! ناشدتك الله أن تتكلمى لكى اراك وكى اسمعك !

— أفلا تزال تحبنى ؟

— انه الآن إذ أحبك ! فقد حسبت أننى أحببتك إذْ لم تكونى الاّ شبحاً متبوعاً باشتهائى وخيالاً فى أثره أهوائى . . . والآن أراك الجسم الذى فيه روحى . أحقــاً ؟ قولى ! أحقا أنك لى وخاصتى ؟ وماذا فعلت لأتملك أبهى نساء العالمين ؟ ثم يحسب غيري من الرجال الذين يغطون سطح الغبراء أنفسهم أحياء ؟ ! اننى وحدى الذى يحيى ! قولى ماذا فعلت لأتملكك وأفوز بك ؟

— أوه ! انا التى فعلت ! و إذ قد جئنا الى هذا فأنى أصارحك القول بأن الذنب ذنبى . واعلم أن النساء لا يعترفن به دوماً لكنه ذنبهن دواماً . لذلك مهما حدث فلن أعتب عليك ولن ألومك .

وخرجت اليهما من رواق الكنيسة فرقة زائطة مهرولة من الشحاثين والمرشدين ، وأحاطت بهما فى لجاجة يصانعهــا شيء من اللطف المعروف عن الطليان الرشقاء . وكانوا من الدهاء بحيث أدركوا أنهم إزاء حبيبين ، وقد عرفوا بالاختبار أن المحبين مسرفون . فألقى

دى شارتر بضع قطع من الفضة ، فقفلوا جميعاً راجعين الى كسلهم الهنىء . وقابل الحبيبان حارساً ، فأسفت الكونتس مارتن على انه ليس راهباً !

قال دى شارتر :

— أتذكرين المساء الشتوى، إذ التقيت وإياك على الجسر الصغير القائم فوق أخدود تجاه متحف « جويميه » ، فصحبتك حتى ذلك الشارع الصغير المنمّق الجانبين بالرياض، المؤدى الى « كى دوبيلى» ثم لما وقفنا هنيهة قبلما نفترق عند حافة السياج الممتد على طوله شجر البقس ، فنظرت الى الشجر الذى أذبل الشتاء عوده وأذوى غصنه. فوقفت بعد ما ذهبت ونظرت اليه طويلا . . .

— وماذا استطعت أن تراه فىّ معجباً لك فى ذلك اليوم الذى كاد يكون حالكا ؟

— رأيتك سائرة ، وبالحركات تتكلم الاشكال. وباحت لى كل خطوة من خطواتك بأسرار جمالك الفاتن المنسجم . الا أن مخيلتى فيما يتصل بك لم تقف قط عند حد محدود من تعقل أو حذر . نعم، إننى لم اجرؤ على مخاطبتك ، وملأنى منظرك رهبة وأوجست خيفة امام التى كان يسعها أن تفعل لى كل شىء . ففى حضرتك عبدتك مرتعداً فَرَقاً ، وفى غيبتك شعرت بكل فجور الاشتهاء . . .

— ما خطر لى هذا على بال، لكن أتذكر أول مرة التقينا فيها

عندما قدمك الىَّ « پول ڤانس » ؟ وكنتَ جالسا تنظر الى الصور الصغيرة المعلقة ، فقلت لى : (هـذه السيدة المرسومة بريشة « سيكاردى » تشبه أم « اندريه شنييه » [1]) فأجبتك قائلة : (ان هذه جدة زوجي ، فكيف كانت أم « أندريه شنييه ») ؟ فقلت : (لدينا صورتها : شرقية خسيسة !)

فاحتج بأنه لم يتكلم بمثل هذه القحة ، فقالت :

— بل فعلت ! وذاكرتى أقوى من ذاكرتك !

* * *

ثم سارا فى سكون الدير العميق ، وزارا الصومعة التى زانها « انجليكو » بأبدع الرسوم . وهناك ، أمام صورة العذراء التى تتلقى التاج الأبدى من الرب فى صحو السماء الزرقاء ، أخـذ « تريز » بين ذراعيه ، وضمها اليه ، وقبلها فى ثغرها تقبيلا كاد يكون بمشهد من سائحتين انكليزيتين كانتا تجتازان الممشى تطالعان دليل السفر . فقالت له :

— أحسبنا سننسى زيارة صومعة القديس أنطونيوس

— إيهًا يا تريز ! اننى لا أحتمل ان يفلت منى أى جزء منك . اننى أتألم لفكرة انك لست عائشة فىَّ ولى وحدى . إننى أريد أن أتملكك وأتملكك بكليتك حتى فى ماضى أيامك !

---

(١) شاعر فرنسى مشهور

(تریز ودی شارتر)

— وى ! الماضى !

— الماضي وحده هو الحقيقة البشرية ، الماضى وحده هو الكائن!

فرفعت اليه عينيها ، الشبيهتى الحدقتين بتلك السموات الفاتنة التى تمتزج على صفحتها الشمس الساطعة والغيث المنهمر . وقالت :

— خير ! وأستطيع ان أقول لك إنني لا أشعر قط بالحياة إلاّ وأنا معك . . .

* * *

ولما عادت الى «فيزول» وجدت خطاباً قصيراً من «لومنيل» كله تهديد ووعيد . يقول فيه انه لم يقدر أن يفهم معنى لغيابها المطوّل ، أو لسكوتها . فاذا لم تحدد له حالا يوم عودتها أتى الى لقائها بفلورنسا .

فقرأت الخطاب بغير دهشة البتّة . ولو أنها جزعت لوقوع ما كان منظورا وحدوث ما كانت تخشاه وليس منه مناص .

على أنه لا يزال فى وسعها أن تهدئه وتطمئنه ، وما كان عليها الاّ أن تكتب اليه بأنها تحبه ، وأنها عائدة الى باريس على جناح السرعة ، وانه يجب أن ينبذ هذ الفكرة الحمقاء ، فكرة لقائها بفلورنسا التى ليست الا قرية لا يلبثان أن يُعرفا فيها. لكن كان عليها أن تكتب له : « انى أحبك ! » . كان عليها أن تطيب خاطره بعبارات التمليق والمودة ، وتخدر أعصابه وتثبط عزيمته بكلمات التعزيز والمحبة . فلم

تجد من نفسها شجاعة . وتركته يحزر الحقيقة . واتهمت نفسها بنفسها بعبارات غامضة ، وكتبت اليه كلاماً مبهماً عن النفوس التى تحملها أمواج الحياة بعيداً ، وعن عجز الانسان عن المقاومة فى محيط الدهر الحُوَّل القُلَّب . . . وسألته فى حزن ولين أن يحفظ لها ذكراً طيباً فى ركن صغير من فؤاده .

وحملت الرسالة بنفسها الى صندوق البريد بميدان فيزول ، حيث كان بضعة أولاد يلعبون على ضوء الشفق . .

فأشرفت من قمة الرابية على الحوض البديع الذى تستقر فى جوفه مدينة فلورنسا كالجوهرة . ونفضها سلام المساء وهدوءه كما ينفض القطر العصفور . فألقت الخطاب فى صندوق البريد ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، ادركت جلياً حقيقة ما صنعت ، وما قد يؤدى اليه هذا الصنيع .

٢٠

كانت شمس الربيع الساطعة تسكب أشعتها الذهبية على ميدان « السنيورا » ، لما أخذ عند الظهر تجار الحبوب والمكرونة الذين جاءوا الى السوق ينصرفون .

هناك ، تحت تمثال « لا نزى » ، وامام مجمع التماثيل ، أقام باعة الحلوى المثلجة الجوّالين على مناضد مغطاة بنسيج قرمزى قصوراً صغيرة مكتوباً على قواعدها :

مشروبات مثلجة
Bibite Ghiacciate

وكأنما الفرح والهناء هبطا الأرض من السماء ! وكانا ، تريز وچاك ، عائدين الى البيت بعد أن قضيا نزهة الصباح فى حدائق «بو بولى» . وجعلت تريز تنظر الى تمثال «الفتاة المسبية» من صنع « يوحنا البولونى » ، وتنظر بذلك الاهتمام الفضولى الذى تفحص به المرأة امرأة سواها . لكن « دى شارتر» كان شاخصاً ببصره صوب « تريز » وحدها ، فقال :

— يا عجباً لنور النهار يقبّل بشغف بياض خديك اللؤلؤى فيزيدك جمالا على جمال . . .

— نعم ، ان ضوء الشموع يخشن سحنتى، وقد لا حظت ذلك. ومن سوء حظي اننى لست من نساء المساء ، ففى الامساء تتاح غالباً الفرصة للنساء ليبدين زينتهن فيُعجب بهن . وفى المساء تبدو « الاميرة سينافين » ذات وجه جميل ملوَّن ومذهَّب ، فاذا طلعت الشمس حالت صفراء كالليمونة . ويجب أن نسلم بأن ذلك لا ينال منها ولا يزعجها ، فليست غندورة !

— وأنت غندورة أنت !

— أُوه ! . . صحيح ! . . وكنت فيما مضى غندورة لنفسى ، أما الآن فلك . . .

وعادت تنظر الى « الفتاة المسبية » التى تحاول بقوامها العادل وجسمها القوى الفرار من عناق الجندى الرومانى . ثم قالت :

— أيعوز المرأة لكيما تكون جميلة مثل هذه الصلابة فى الجسم وهذا الطول فى الاعضاء ؟ انني لست كذلك ، أنا . .

فبادر « دى شارتر » يطيب خاطرها ، لكنها كانت مطمئنة. وأخذت بعد ذلك تنظر الى قصر بائع الحلوى المثلجة الجوَّال ، ذى الحيطان النحاسية اللامعة فوق غطاء المنضدة القرمزى ، فأحست فجأة ميلا الى تذوّق الحلوى ، هناك ، وهى واقفة الى جانب المنضدة مثلما رأت عاملات المدينة يفعلن منذ قليل . فقال لها .

— مهلاً هنيهة .

وجرى الى شارع عن يسار تمثال « لانزى » ، واختفى فيه ، وعاد بعد دقيقة وقدم اليهـا ملعقة صغيرة مذهبة محا الزمن بعض طلائها ، ويدها منتهية على شكل زنبقة فلورنسا مصنوعة من الميناء الحمراء ، فتذكرت الملعقة ، وكانت حلية صغيرة لفتت نظرها بالامس فى واجهة حانوت عاديّات بقرب « لانزى » ، فقال :

— هذه لك لتأكلى بهـا حلواك ، فليس عند البائع ملاعق ، وكان عليك أن تلعقى الحلوى بلسانك وكان ذلك يكون شائقًا بديعًا ، لولا أنك لست معتادة إياه .

كانا موفورى الحظ من السعادة ، يبدو هناؤهما فى أقوال لا معنى لها . وقد ضحكا عند ما طفق بائع الحلوى الفلورنسى يقص عليهما بتمثيله الهزلى الموروث أقاصيص قدماء الطليان ، على أنها لم تفهم كل أقواله ، فسألت چاك :

— ما الذى قاله ؟

— أتريدين أن تعرفى ؟

فأرادت . فقال لها

— حسن ! يقول ما أشدّ ما يكون سعيداً لو ان براغيث فراشه خُلقت على مثالك ، وكان لها جمالك !

ولما أكلت حلواها ، استعجلها للذهاب الى زيارة « أور سان ميكيل » مرة أخرى ، وكان منهما قاب قوسين أو أدنى ، فذهبا ،

ونظرا الى تمثالى « سان چورج » و « سان مارك » المتخذين من البرنز ، فرأى «دى شارتر» على حائط الدار المنزوع طلاؤه صندوق البريد . فذكر بحزن شديد اليد الصغيرة المكسوّة بقفازها وهى تلقى الخطاب فيه ، وبدا له ذلك الفم النحاسى الذى ابتلع سرتريز بشعا مخيفا ، فلم يستطع أن يحول عنه ناظريه ، وغاب سروره ، على حين أنها كانت تبدى إعجابها بتمثال « البشير » (L'évangéliste) فقلت :

— يقينا ، إنه يبدو صريحًا أمينا ، ولو استطاع النطق لكان كل ما يقوله حقًا وصدقًا . . .

فرد عليها « دى شارتر » بمرارة بقوله :

— نعم ! فليس فمه فم امرأة ! . . .

ففهمت ما جال بفكره ، وقالت بصوت رخيم عذب :

— لمَ تقول لى ذلك يا صديقى وأنا صريحة ؟ . . .

— ماذا تسمى كونك صريحة ؟ وانت تعلمين ان المرأة مضطرة الى الكذب . .

فترددت ، ثم غامرت :

— حين لا تكذب المرأة كذبًا ليست منه فائدة ، تكون صريحة !

٢١

تغلغلت تريز تحت الخمائل ، فى ثياب رمادية قاتمة ، وكانت النجوم الفضية المتساقطة من أشجار الحناء الحمراء تغطى طرف المشرف المنحدر . ونثرت الغار على سفوح الروابى أزاهيرها ذات الشذى الزكيّ واللون الناريّ . وكان الوادى الفلورنسى كله مفروشاً ببساط من الورد .

وجاءت « ڤيڤيان بل » فى ثياب بيضاء الى الحديقة التى كانت تنطف عطراً ، وقالت :

— ها قد رأيت ياعزيزة ان فلورنسا هى فى الواقع مدينة الزهر . ولم يكن عبثًا أن تتخذ « الزنبقة الحمراء » رمزاً وشعاراً لها . واليوم ياعزيزة يوم عيد

— آه ! اليوم عيد ؟

— أفلا تعرفين ياعزيزة أننا فى أول مايو ؟ أوَلم تستيقظى هذا الصباح فى أرض الاحلام ؟ أفلا تشعرين أنك فرحة جذلة أنت يامن تحبين الازهار ؟ أنى أعلم أنك ياعزيزة تحبينها ، وتشعرين بالميل اليها ، وقد قلت لى مرة إنها تحس الفرح والحزن وتألم مثلنا سواء بسواء .

— آه ! أقلتُ أنها تتألم مثلنا ؟

— نعم قلت ذلك . أما واليوم عيدها فلنحتفل به كعادة أسلافنا على المذاهب التى قدسها أهل الفن القدماء .

وكانت تريز تسمع دون ان تعي ، وعركت فى قفاز يدها خطابا كان قد أتاها ساعتئذ ، وعليه طابع البريد الايطالى ، وليس به غير سطرين ، هما :

(نزلت الليدى فى فندق « لاجرانده بريطانيا » بلونجارنو تشيأولى . وانى منتظرك صباح الغد . رقم ١٨)

قالت الشاعرة :

— أى عزيزة ! ألا تعلمين ان العادة قد جرت بالاحتفال فى فلورنسا بفصل الربيع فى أول مايو من كل عام ؟ ألم تدركى اذاً ما أراده الفنان « بوتشلى » بصورة عيد الزهور البديعة البهيجة الخيال التى أسماها « الربيع » ؟ وقديماً فى مثل هذا اليوم كان السرور يعم المدينة ، وتسير بنات فلورنسا مرتديات ثياب العيد ، متوجات بالبشملة ، فى موكب حتى « الكورسو » فيرقصن تحت أقواس الزهر عند شجر الغار ، على العشب السندسى النضر . وسنحذو اليوم حذوهن فنرقص فى الحديقة مثلهن .

— آه ! أنرقص فى الحديقة ؟

— نعم ياعزيزة ! وسأعلمك بعض رقصات تسكانية يرجع

عهدها الى القرن الخامس عشر، وقد استكشفها المستر موريسون شيخ كتبي لندرة فى متن مخطوط . فعودى سريعًا ياحبيبتى لنضع من الزهر قبعات ونرقص . . .

ودفعت باب الحديقة ، وأسرعت فى الممر الصغير الذى مهده هبوط مياه الامطار ، واختفت حصباؤه تحت براعم الورد ، ثم قفزت الى أول عربة صادفتها ، وكان الحوذى قد وشّع بالزهر قبعته ومقبض سوطه . قالت

— فنـدق لاجراند بريطانيـا . لونجارنو أتشياؤلى ! . . . . « لونجارنو أتشياؤلى » ! . . .

أنها كانت تعرف أين هو رصيف النهر ذاك الذى ذهبت اليه فى أحد الامساء ، ورأت بعين بصيرتها ألواح الذهب تمزّقها الشمس على غطاء النهر الخفاق . . . ثم دخول الليل ، وخرير المياه المبهم فى ذلك السكون الشامل . وذكرت الاقوال والنظرات التى هاجتها ، كما ذكرت قبلة العاشق الأولى التى كانت فاتحة غرام لايمكن تلافيه

إى والله ! لقد ذكرت « لونجارنو أتشياؤلى » وشاطىء النهر بعد « پون ڤيو »

. . . فندق « لاجراند بريطانيا » !

أنها تعرفه : نُزلاً ذا واجهة حجرية على الميناء .

أما وقد وجب حضوره ، فان من سعد الطالع نزوله بهذا الفندق ، و إلا فقد كان يمكن ان يذهب الى فندق « دى لاڤيل » بميدان منّان حيث يقيم دى شارتر . وكذلك من حسن الحظ ان غرفتيهما ليستا متلاصقتين ، فى ممشى واحد . . .

« لونجارنو أتشياؤلى » ! . . .

وتلك الجثة التى شاهداها تمر مسرعة يحملها الرهبان المقنعون ، قد ثوت الآن واستراحت ، فى جهة ما ، من حديقة مقبرة صغيرة مزهرة . . .

— رقم ١٨

وكانت حجرة نزل مجردة ، بها مصطلى ، على الطراز الايطالى وقد نظمت على المنضدة عدة كاملة من فرشاة الرسم ، والى جانبها دليل سكة الحديد . وما من كتاب أو جريدة .

وكان هناك . . .

فقرأت ما ارتسم على وجهه النحيل من سطور الألم المبرح وعوارض الحمى ، فانتابها من ذلك ضيق . . .

ولبث ينتظر كلمة أو اشارة ، لكنها ظلت لا تجرؤ على شىء ، كأنها غريبة عنه . فقدم اليها مقعداً أبعدته جانباً وبقيت واقفة ، فقال :

— تريز ! ان وراء الاكمة ما وراءها . . فتكلمى !

فأجابت بتردد موجع ، بعد لحظة سكوت :

— سبحان الله ! ولم رحلت عن باريس لما كنت فيها ؟

فجعلته نغمة الحزن التى فى صوتها يعتقد ، وأراد أن يعتقد ، أنها تعتب عليه عتب المحبة . فتورد وجهه ، وأجاب بحمية :

— يا ليتنى كنت حزرت ! وأنت تعرفين مبلغ عدم اكتراثى بتلك الجماعة المتصيدة ! لكنك أنت .. وخطابك المؤرخ ٢٧ (وكانت له موهبة حفظ تواريخ الأيام !) أنه أوقعنى فى قلق مروع ، فقد جدَّ عند ما كتبته أمر من الأمور ، فاخبرينى بكل شىء

— حسبت ياصديقى أنك لم تعد تحبنى .

— والآن وقد عرفت ما ينفى ذلك ؟

— الآن . . .

وكانت مرتخية الذراعين ، مشتبكة اليدين ، فقالت بهدوء مصطنع . . .

— ربّاه ! لقد قامت علاقتنا على جهالة ، فياويح الانسان ما أجهله ! انك فى ريعان شبابك ، أنضر منى عوداً ، ولديك بلا شك مشاريع لمستقبل حياتك .

فحدق فى وجهها بغطرسة ، فأتمت كلامها ، وقد قلّ اطمئنانها :

— ان لدى أهلك ، من أمك وعماتك وعمك الجنرال ، مشروعات لك ، وهذا أمر طبيعى فى الغاية ، ويمكن أن أكون عقبة

فى طريقها ، فالأولى أن أختفى من حياتك وأذهب عن طريقك ، وسيحمل كل منا لصاحبه طيّب الذكرى .

ومدت اليه يدها ، فى قفازها ، فشبك ذراعيه على صدره ، وقال

— فأنت على ذلك لاتريدينى ؟ وتحسبين أنك بعد ما جعلتنى أسعد رجل فى الدنيا عرف معنى السعادة ، تستطيعين ان تضعينى جانبًا ، وينتهى بذلك كل شىء ! أحقًا تحسبين أنك قد انتهيت منى ؟ ! وماذا الذى أتيت تقولينه لى ؟؟ أنْ قد انقطعت علاقتنا ، وأنْ قد وصلت ثم هجرت ؟؟ لا بأس ! وهأنذا أقول لك : كلا ! أنك لست من نوع النساء الذى يفترق منه الانسان . . أنت !

— نعم ، يجوز أنك أحببتنى حبًا أقوى مما جرت به العادة فى مثل هذه الاحوال ، فكنت لك اكثر من سلوى وملهى . لكن ماذا يكون الرأى لو أنى لم أكن المرأة التى زعمتنى ؟ لو أنى كنت عابثة خدعتك ونكثت عهدك ؟ نعم ! فماذا يكون لو أنى لم أكن معك ما كان ينبغى ان اكون ؟ . . .

وترددت ، ثم عادت تتكلم بلهجة جدية رزينة تناقضت وأقوالها:

— لنفرض أننى لما كنت لك استسلمت الى جاذبيات وتعلقت بأميال أُخر ؟ . . . أحسب عواطفى لم تخلق للجد

فقاطعها بقوله . . .

— تكذبين ؟

— أجل ، أنى أكذب ، ولا أحسن الكذب ، أردت أن أتلف ماضينا ، فكنت مخطئة ، فهو الذى تعرفه . . . ولكن . . .

— لكن ؟ . . .

— ذلك الذى قلته لك دائمًا ، وهو أننى لست مستوثقة من ذات نفسى ، فان هناك كما يقولون نساء سيدات مشاعرهن وأمرهن بين أيديهن ، وقد أنذرتك أننى لست مثلهن ، فلست ممن يضمنّ عواطفهن . . .

فلوّى عنقه يمنةً ويسرةً ، كحيوان هيج هائجه ، وما إن يزال يتحفّز للوثوب ، وقال :

— ما قصدك ؟ إنى لا أفهم ، إنى لا أفهم شيئًا . . فأفصحى ، أفصحى عمّا فى ضميرك . فان فيما بيننا شيئًا لا أعرفه ، لكننى مصرّ على معرفته . فما هو ؟

— قلت لك ياصديقى اننى لست بالمرأة الواثقة من نفسها . فما كان لك قط أن تعتمد علىّ أو تركن الىّ . لا ! ما كان لك ذلك ، أننى لم أعدك بشىء ، وعلى فرض أنى كنت قد وعدتك ، فما قيمة الألفاظ ؟

—أراك لم تعودى تحبيننى . أوّاه ! . . أرى جليًا أنك زهدت فى حبى . لكن سوأة لك فالغبن عليك ! أنى أحبك ، وما كان لك

ان تهبيني نفسك ، فلا تؤملي استرداد هبتك ، اني مستهام بك واني لحفيظ عليك . . .

اذاً قدزعمت أن في إمكانك تسوية الأمر في سكون والتخلص مني بسهولة ؟ الآن اصغي الىّ قليلا . لقد بذلتِ ما في وسعك كيما أحبك وأهيم بك ولا أستطيع العيش من دونك . ولقد عرفنا معاً مسرات الحب التي لا يتصورها عقل أو يحيط بها فكر ، فلم ترفضي نصيبك منها بل تمتعت به ونحن في عالم من اللاب المخلوب والعقل المسلوب . ولم أنلك قسر إرادتك بل عن طيبة خاطرك . ومنذ ستة أسابيع لم تكوني تطلبين خيراً مما كنت فيه . وكنت لى كل شيء كما كنت لك كل شيء ، ومرت بنا لحظات امتزجت فيها روحانا واختلطت فيها نفسانا ، حتى لم نعد نعرف إذا كنت أنا أنت أو أنت أنا ! !

ثم يبدو لك فتأتين تسألينني على غرة مني أن أنساك وأتجاهلك وأعدك غريبة عني لا تجمع بيننا إلا محض معرفة ؟! الله ! الله ! ما أجمل ثبات جنانك ! . . أنت ياهذه ! يا أيتها الأحاذة النباذة ! خبريني ! أكنتُ حالما ؟ قبلاتك ! . . أنفاسك التي كانت على عنقي ! . . صيحاتك ! . . ألم تكن تلك إذاً حقائق !؟ تكلمي ! رُدّي على الجواب ! أخترعت ذلك كله باطلاً وتوهمته ؟؟؟ أجل . ليس شك في أنك أحببتني ، وإني لا أزال أشعر بغرامك لاصقاً بكياني

آخذاً بجَنَانى . فلا ضيرْ ! إننى لم أتغيّر ولم أتبدل خلقاً آخر . إننى . الرجل الذى كنته . وليس لديك ما تؤاخذيننى به ، فلم أخنك قط مع امرأة غيرك ، وليس الفضل فى ذلك لى ، فما كنت لأقدر على الخيانة لأن الذى يعرفك لا يرى أجمل النساء بالقياس إليك إلا تافهة . ولم تخطر أصلاً على بالى فكرة خديعتك ، ولقد سلكت معك دائماً مسلك الرجل الشريف . فليت شعرى ! كيف انصرفت عن حبى ؟ وما صدَّك عنى ؟ . . أجيبينى ! بربك تكلمى ! قولى أنك ما زلت على محبتى ! قولى ذلك ما دام حقاً وصدقاً . تعالى إلىَّ تعالى ! . .

ثم ألقى بنفسه عليها بشوق وحرارة ، وطوقها بذراعيه الشرهتين القويتين ، فدفعته عنها فى برود ، وعيناها مملوءتان بالذعر .

ففهم ، وتوقف ، وقال :

— ان لك عاشقاً !

فأطرقت فى بطء ، ثم رفعت رأسها فى وقار وصمت .

فذهب يضربها فى صدرها وكتفها ويلطمها على وجهها . وما لبث ان تراجع خجلا ، وأطرق لا ينبس بكلمة . ووضع أصابعه بين شفتيه يقرض اظافره . فلاحظ ان بيده خدشاً من دبوس فى مشد وسطها أدماها . فألقى بنفسه على مقعد واخرج منديله يضمد جرحه وظل كأنه غير مكترث ، وكأنه فقد الحواس .

أما هى فقد استندت الى الباب ، شاحبة اللون ، رافعة الرأس زائغة البصر ، تحل نقابها الممزّق ، وتعيـد وضع قبعتها بالاعتناء الغريزيّ فى بنات حواء.

وعند ما سمع حفيف ثيابها الخفيف، ذلك الحفيف الذى كان الى عهد قريب يلذّه سماعه ، أجفل وحدجها بنظره مرتعداً ، وارتدّ هائجًا محتدًّا ، يسألها :

— من يكون ؟ اريد أن أعرفه !

فلم تحرك ساكنًا ، وظهرت على محياها الناصع علامة ملتهبة من أثر اللكمة التى أصابتها . وأجابت فى رقة وحزم :

— لقد أخبرتك بكل ما يسعنى أن اخبرك به ، فلا تكثر من سؤالى . لانه يكون عبثًا لايجدى نفعًا .

فنظر اليها نظرة قاسية ، لم تر منه مثلها من قبل ، وقال :

— لا حاجة لأن تخبرينى باسمه ، فلن تصعب علىّ معرفته .

فلبثت صامتة مغتمة ، قلقة على سواه . . . وملء نفسها كرب ورعب ، لا أسف معهما ولا مرارة ولا أسى ، فقد كان فؤادها في غير ذلك المكان . . .

و بدا عليه كأنه يشعر شعوراً خفيًا بمـا يخالجها . ولما رآها بالغة هذا المبلغ من الملاحة والصفاء ، لما رآها هكذا جميلة ، لـكن لا كما

عرفها ؛ لأن جمالها لم يعد له لأنه لسواه ، استخفَّته طيرة الغضب ، وشعر فى وطيس غضبه بالرغبة في قتلها ، فصرخ فيها :

— اذهبى ! اذهبى !

ثم غلبته على أمره عاطفه ذلك البغض ، الذي كان خارجا على طبعه ، فاعتمد رأسه بيديه ، وظل يبكى ويصعد الزفرات من كبد حرّى . .

فأثَّر فيها هذا الحزن ، ومدَّ لها فى أمل أن تهدئه وتروّح عنه وتخفف من وطأة فراقها إياه ، فيكون أقل إيلامًا . وخيل اليها انها قد تجد سبيلاً الى عزائه عن فقدها . فجلست الى جانبه آمنة متوددة ، وقالت :

— لك علىّ ياصاحبى الملامة ، فأنى جديرة بها ، وان كنت بالشفقة أجدر . فاحتقرنى اذا شئت واذا كان فى مكنة امرىء أن يحتقر مخلوقة شقية تُعَدُّ العوبة فى يد الحياة ، ثم احكم على بما تشاء ، لكن احتفظ لى في سَوْرة غضبك بشىء من الصداقة ، ودعنى اكون ذكرى حلوة مرة كأيام الخريف تلك التى تكون فيها الشمس ساطعة وريح الشمال عاصفة . هذا ما استحقه . فلا تكن صلبًا مع الزائرة الخفيفة الطائشة التى عبرت سبيل حياتك ، وودعنى كما لو ودعت امرأة راحلة الى حيث لا تعلم ولا تدرى وهى حزينة . . . فليس أحرَّ من يوم الفراق . وقد كنت الآن غاضبًا

منى ، ولست أعتب عليك فى ذلك ، ولكن غضبك آلمنى ، فاظهر لى من الشفقة شيئًا . . فمن يدرى ؟ ! ان المستقبل مجهول ابداً ، وهو امامى مظلم غامض ، فقدّرنى على أن اقول لنفسى انني كنت معك طيبة القلب سليمة القصد صريحة القول ، وانك لم تنسني . وسوف يهىء لك الزمن أسباب الفهم والصفح . أما اليوم ، فحنانيك كن رحيما !

أما هو فلم يكن صاغيا لها ، الاّ ان نغمة صوتها العذبة الرخيمة وحدها سكّنت من حدته وكسرت من شِرَّته ، فقال منفزعًا :

— انك لا تحبينه ! ولكنى أنا الذى تحبين ! . . . وعلى ذلك ؟ . . . .

فترددت ، ثم غامرت :

— واهف نفسى ! . . ليس باليسير على المرأة ان تقول من ذا الذى تحبه ومن ذا الذى لا تحبه ، أو على الاقل ليس هو علىَّ هيِّنًا ، فما أعرف حال الأُخريات . وأرى الحياة غير رحيمة فيها تُقذف ، وتُدفع ، فتتخبط . .

فنظر اليهـا بهدوء تام ، وقد عنّت له فكرة واعتزم امراً كان غاية فى البساطة . . ذلك انه سيعفو وينسى على شريطة أن تعود اليه توًّا :

— تريز ! انك لا تحبينه ! أليس كذلك ؟ لقد كانت غلطة . .

لحظة نسيان . . شيء مروع أخرق فعلته ضعفاً ودهشاً وربما كان نكاية وكيداً . انك ما كنت إلاّ أسيرة فِتْنة ، وأخيذة مِحْنه ! فاقسمي انك لن تريه مرة اخرى .

وأمسك بذراعها قائلا :

— اقسمي !

فلزمت الصمت ، وصرَّت على اسنانها ، واكمدّ وجهها ، وهو يلوى ذراعها ، حتى صرخت :

— انك توجعني !

فلم يكف عنهـا ، وجرّها حتى المنضدة ، حيث كانت الى جانب فرشاة الرسم دواة وورق رسائل مزدان بصورة زرقاء تمثل واجهة الفندق ذات النوافذ العديدة ، وقال .

— اكتبي ما أمليه عليك ، لابعث بالخطاب .

فلما قاومته ، قهرها على الجثو على ركبتيها ، فقالت في سكون وعزّة :

— لا أقدر ! لا اريد !

— ولماذا ؟

— لأنني . . أتريد أن تعرف ؟ . . لأنني أحبه ! . .

فأفلت ذراعها ، ولو ان مسدسه كان في متناول يده ، فربما كان أرداها قتيلة . لـكن سخطه ما عتم أن تبدّل حزناً ؛ فخار قانطاً آيسا ، فودّ لو يضع لذات حماته حدّاً . . .

— أتقولين حقًا ؟ . . أهذا ممكن ؟ أهذا صحيح ؟

— وهل أعرف أنا ذلك ؟ وهل أنا استطيع أن اقول ؟ وهل يسعنى أن افهم ؟ وهل فى قدرتى ان افكر ، أو أن اشعر ، أو ان أرى للنور أى شعاع ؟ هل فى قدرتى ؟

ثم اضافت بشىء من الجهد :

— وهل اشعر فى هذه اللحظة بغير حزنى و يأسك ؟

فزعق قائلا :

— أنت تحبينه ! أنت تحبينه ! فما عنده ؟ وما هو حتى تعشقيه ؟؟

وخبلته الدهشة وغمرته الحيرة ، على أن ما قالته قد صرم حبالها وفرق بينهما ، فما عاد يجرؤ على أن يمسها فى خشونة ، أو يمسك بها ، أو يضربها ، أو يعاملها كشاة له إن كانت عنيدة فهى له دون منازع . فكرر قوله :

— أنت تحبينه ! تحبينه ! فما قال لك ؟ وما فعل بك لتعشقيه ؟ ! أننى أعرفك ، ولم أخبرك بما صدمنى من أفكارك ، فأراهن على أن عشيقك ليس بالرجل ذى المكانة . أفتحسبين أنه يحبك ؟ أهذا زعمك ؟ ألا ساء فألك ! فانت مخطئة ، فهو لا يحبك ، وهو بكل بساطة قد خُدع عنك ، وسينبذك عنـد أول فرصة نبذ النواة ، وسيصدّ عنك حين يجعلك مضغة فى الأفواه ، فتتمرغين وتتدهورين بانتقالك كل يوم فى شأن . وسيقولون فيك فى العام القابل :

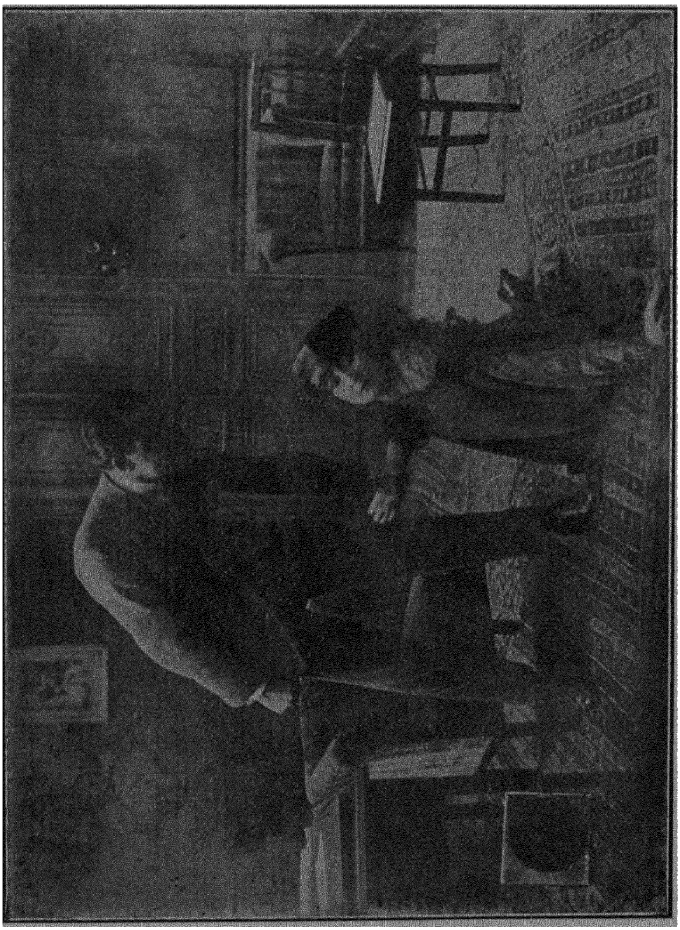

« إنها لا تردّ يد لامس » ، وهـذا ما يسوءنى لأجل أبيك ، وهو صديقى ، وسيبلغه سلوكك ، فلا أمل لك فى أن تخدعيه .. هو ...

فصغت مستخذية ، ولـكن متعزية ، إذ فكرت فى عظم ما كان ينالها من الألم لو أنها وجدت فى صاحبها هذا شهماً كريماً . .

أما هو فقد ازدراها حقا ، ورفه عنه هذا الازدراء ، فاحتسى كأسه حتى الثملة . وعاد يسألها :

— كيف وقع ذلك ، أخبرينى ولا تكاتمينى شيئاً .

فهزت كتفيها بأشفاق ظهر حتى لم يعد يجسر على الاسترسال فى نغمته ، فعاد يقول بمرارة :

— أيقع فى وهمك أننى أعينك على التستر وإخفاء الحال ؟ أو أننى أعود فأزور بيتك ؟ أو أتردد على زوجك ؟ أو أمسك الشمعدان ؟ !

— أعتقد انك ستفعل ما تقتضيه شهامة الرجال . ولست أسألك شيئاً . وأحب أن أعتز بذكرك باعتبارك صديقاً كريماً . وقد كنت أحسب أنك ستكون متسامحاً معى رءوفاً بى ، وهذا عسير ، فانى أرى الفُرقة دائماً مُرَّة . على أن رأيك فىَّ فيما بعد سيكون خيراً منه اليوم . فاستودعك الله.

فنظر اليها،وقد اغبرَّ وجههمن الحزن اكثر مما اغبر،ن الحقد ، ولم

ترقط عينيه كما رأتهما وقتئذٍ جامدتين ذابلتين، ولا صدغيه كما بصرت بهما غائرين ضامرين، وكان يبدو عليه كأنه شاخ وهرم فى ساعة، قال:

— أوثر محاذرتك. فمحال علىّ أن ألقاك بعد اليوم. فلست بحيث يمكننى بعد ما كان بيننا أن ألقاك بين الناس. لانك كما قلت لك، امرأة غير الأُخريات. أن فيك سماً وقد نفثته فىّ، وانى لأشعر به فى باطنى وفى عروقى وفى كل موضع. فلماذا قُدّرت علىّ معرفتك؟

فنظرت اليه عاطفة عليه وقالت:

— وداعا! هوّن عليك، اننى لا أستحق مثل هذه الحسرات..

فلما رآها و يدها على مفتاح الباب، وشعر أنه على وشك أن يفقدها، وأنه لن يحظى بها بعد، صرخ ووثب جزعا، ولم يعد يذكر شيئًا، و إنما كان كل ما أحسّه ذلك الدوار الذى ينشأ عن مصاب عظيم أو عن خسارة لا تعوض. وزيّن له الخبلُ فهمّ بها، يريد الحظوة مرة أخرى بالعشيقة الذاهبة التى لن تعود...

فشدّها اليه، وأراد منها، بكل ما فى طبيعته الحيوانية من رغبة وقوة، فذهبت تقاومه بكل قوى إرادتها الحاضرة الطليقة اليقظة الحذرة، وتملّصت منه دون أن تستشعر أى خوف، بعدما تشعّث شعرها، وتمزّق ثوبها.

فأدرك أن كل محاولة لا نفع منها، وذكر بقية الحقائق المنسية، وأنها لم تعد له، لأنهـا صارت لسواه.. فارتدّت عليه أوجاعه،

فكال لها الشتائم جزافا ، ورماها بكل سبة ، ثم دفع بها خارج الغرفة . .

فتوانت فى الممشى هنيهة ، منتظرة فى كبرياء كلمة أو نظرة خليقة بأن تُلقى على غرامهما الماضى

لكنه صرخ فيها صرخة أخرى :

— إمشى !

ودفع الباب بشدة .

* * *

شارع الفيبرى ! . . .

ها هى ذى قد عادت الى البيت الصغير القائم فى آخر الفناء ، حيث ينبت العشب الأخضر الباهت . فتمثّلته فى سلامه وسكونه ، وفيًّا لمن سكنه من العشاق منذ الأيام الخالية . وأحسّت أنها نجت من عالم موجع وحشى ، فكأنها حُملت خلال الأحقاب الى حيث لم يُعرف نكد العيش و بأساء الحياة .

وكان دى شارتر فى انتظارها ، عند أول السلم المفروشة درجاته بالورد .

فارتمت بين ذراعيه ، ولبثت فى حضنه مستسلمة اليه ، غائبة عن الصواب . فحملها وهى ساكنة كأنها الغنيمة الثمينة التى غنمها من تلك المرأة التى وقف مرة شاحبًا مرتعشًا أمامها . . .

وذاقت ، وهى مغمضة العينين قليلا ، خضوع العاتية الشاعرة بأنها فريسته الجميلة !

أما تعبها وحزنها ومكاره يومها وذكر عنيف مقاومتها وحريتها المستردّة وحاجتها الى النسيان و بعض أثر من خوف ما زال بها ، أما هذه كلها فقد أذكت حنانها وأثارت عطفها ، فطوّقت بذراعيها عنق حبيبها ، وهى مستلقية فى الفراش على ظهرها .

ولما ثابا الى رشدهما ، كانا كطفلين فى جذلهما وفرحهما ، يضحكان و يقولان عبثًا و يلعبان ، وهما يمتصان الليمون والبرتقال والبطيخ الموضوع بقربهما فى صحاف مصوَّرة بالألوان .

وكانت قد نضت عنها ثيابها وتجرَّدت إلا من قميص رقيق هفهاف بلون الورد ، هفت عنه إحدى حمالتى الكتفين ، فكشفت عن ثدى وحجبت ثديًا ، كانت تتأجَّج من وراء النسيج الوردى حلمته البارزة الحمراء . . .

فتورّد وجهها فخرًا وفرحًا ببضاضة الجسم الذى تقدمه على هيكل الغرام . وأبانت شفتاها المفتوحتان قليلا عن لؤلؤ ثناياها . فسألته فى دلّ وغنج اذا لم تكن قد خابت آماله فيهـا بعد كل أحلامه المضطرمة بها . . .

وكانا فى أضواء النهار التى أضعفها وخفضها بالستائر التي وضعها .

فأمعن النظر فيها واستوعبها ، بكل ما فى شبابه من فرح وحرارة وشغف ، ومزج بالقبلات إطراءه جمالها وثناءه على حسنها

وقضيا النهار يتلاطفان فى رقة ويتحاوران فى مودة ، ويتبادلان نظرات الهناء . ثم جدَّ بهما الأمر بغتة ، فأظلمت عيونهما ، والتصقت شفاههما ، تعبداً لذلك الغضب القدسى الذى جعل الحب شبيهاً بالبغض ، وتماسكا . . وتمازجا . . وهَوَيا فى هوة الهوى والهيام . . .

وكانت ملقاة الرأس على الوسادة ، محلولة الشعر ، عند ما فتحت عينيها المغرورقتين . وافترَّ ثغرها عن ابتسامة حلوة ، ابتسامة من نقمت غلتها ، وبرئت من علتها ! . .

فسألها من أين أتتها تلك العلامة الصغيرة الحمراء التى على صدغها . فأجابت بأنها لا تعرف وليست شيئاً ، وتكاد هذه لا تكون كذبة منها ، لانها فى الحق لا تعرف . . لقد نسيت !

وذكرا حكايتهما الهنيئة ، القصيرة على أنها شغلت كل حياتهما ، لأن حياتهما بدأت من يوم لقائهما الأول ، فقالت :

— أتذكر يوم كنا على المشرف غداة وصولك ، وحدثتنى بكلام متقطع غامض ، فخزرت أنك أحببتنى !

— خشيت ان تكونى حسبتنى غبياً عييًّا !

— لقد كنت كذلك هَوْناً ما . . . لكن ذلك كان فوزى ،

فانى كنت بدأت أتبرَّم بتحفظك ورزانتك فى حضرتى ، وقد أحببتك قبلما أحببتنى ، ولست من هذا خجولا !

ثم صبَّ بين ثناياها قطرة من النبيذ اللؤلؤى المزبد . وكان على الخوان زجاجة من سُلافة «ترازيمين» . فأرادت تذوّقها تذكاراً لتلك البحيرة ، المعروفة بهذا الاسم ، التى رأتها راقدة فى مساء فى كأسها الطبيعية ، حزينة جميلة ، منـذ ست سنين عند زيارتها ايطاليا أوّل مرة .

فعتب عليها تقديرها واعتزازها بجمال الاشياء من دونه ، فقالت له :

— ولـكنى من دونك لا أرى قط شيئًا . فلمَ لم تأت إلىّ من قبل ؟

فختم على ثغرها بقبلة ثقيلة . . .

ولما ثابت إلى رشـدها ، منهوكة القوى ، من فرط الفرح والضنى ، صاحت به :

— نعم إنى أحبك ! نعم ولم أحب احداً سواك !

٢٢

كتب إليها « لومنيل » :

« أسافر غداً فى السابعة مساء ، فأجرك فى المحطة » .

فذهبت ، فرأته واقفاً أمام مركبات الفنادق الكبيرة ، هادئاً وادعاً ، فاكتفى بأن قال لها :

— آه ! أنت هنا ؟

— لكنك أنت يا صديقى الذى طلبت منى المجىء !

ولم يكن ليعترف بأنه كتب خطابه مؤملا باطلا انها قد تعود فتحبه ، وأن ما بقى ينسى ويمحى ، وانه قد يسمعها تقول له : « تلك كانت تجربة » !

أجل ، لو انها خاطبته بمثل هذا لصدقها من فوره ، لكن صمتها أيأسه ، فقال فى جفاء :

— ما وراءك ؟ عليك أنت أن تتكلمى لا علىّ . فليس عندى أنا ما أوضحه لك أو أبين أسبابه ، ليس عندى خيانة أعتذر عنها أو أتبرّأ منها .

— لا تكن قاسيا أيها الصديق ، ولا تكن جاحداً حق الماضى ، وهذا ما عندى لك من القول . وأريد أن أقول لك أيضاً إننى أفارقك بحزن صديقة وفية .

— أهذا كل شيء ؟ اذهبي فأعيديه على مسمع من الآخر ... فذلك يلذّه أكثر مما يلذني ويستميله اكثر مما يستميلني .

— لقد دعوتني فجئت ، فلا تجعلني أندم على ما فعلت .

— آسف لأنني أزعجتك ، ولا شك في أنه كان في إمكانك أن تشغلي يومك بخير من هذا ، ولست أستبقيك أو أمنعك ، فاذهبي الى لقائه ، فإني أراك تذوبين شوقاً اليه !

فلما ذكرت تريز ان في هذه الكلمات البئيسة تتمثّل لحظة من لحظات الألم الانساني الأبدي ، وأنه قد تكرر في مأساتهما من هذا شيء كثير ، شعرت بمزيج من الحزن والاستهتار ، بدا في تقلص شفتها ، فحسبها تبتسم ، فقال لها :

— لا تضحكي واصغي إليّ . إني أردت أول من أمس في حجرة الفندق أن أقتلك ، ودنوت من هذا الفعل دنوًّا أعرف الآن مبلغه ومعناه ، ولن أفعله ، فيمكنك أن تطمئني . وفضلا عن ذلك ، فلمَ فعله ؟ وما غناؤه ونفعه ؟ إني سأزورك في باريس ، لأني — رغبة مني في الاحتفاظ بكرامتي الذاتية — أريد أن أظلّ محافظا على الظواهر مراعيا ما يليق ، فيبلغني مع الأسف أنك لا تستطيعين استقبالي ، فأرى زوجك كما أرى أباك ، وتكون تلك الزيارة استئذانا في سفر طويل ، فوداعاً أيتها السيدة !

وما إن طوى كشحه عنها ، حتى رأت تريز صاحبتها مس بل

والامير البرتنلى خارجين من محطة البضائع متجهين صوبها . وكان الامير يبدو فى جمال وفتنة ، وكانت ڤيڤيان سائرة بجانبه فى مَرَح وغبطة . فقالت مس بل :

— إيهًا يا عزيزة ! ان لقاءك هنا مباغتة سعيدة ! لقد كنت مع الامير في الجمرك فى طلب ناقوسى الذى وصل ؟

— آه ! أَوَصَل الجرس ؟

— إنه ها هنا يا عزيزة ، ألفيته فى صندوقه الخشبى ، لا يدق لأنه سجين ، لـكننى سأسكنه برجا فى بيتى بفيزول ، فاذا استنشق نسيم فلورنسا العليل سَعِدَ بأن يُسمع الرائح الغادي صوته الفضى الشادى ! . . فيدق مثلنا أفراحنا وأحزاننا جميعا . وسيدق لك ، ولى ، وللأمير ، ولمدام ما رميه الصالحة ، وللمسيو شولت ، ولأصحابنا كافة . .

— ان الأجراس يا عزيزتى لا تعلن بدقها أفراحا ولا أحزانا . ما الأجراس الاّ موظفين أمناء لا يعرفون غير مشاعر الوظائف . .

— انت مخطئة يا عزيزة ، فالاجراس تعرف أسرار القلوب وخفايا الصدور ، وتعرف الأشياء كلها . لـكن ما أسعد حظى بلقياك ! . . أوه ! انى أعلم يا حبيبتي ما جاء بك الى المحطة ، فقد خدعتك وصيفتك ، وقالت لى أنك منتظرة على الجمر قميص نوم

وردى اللون ، لما يأت بعد ، فلا تكدرى خاطرك ، انك دائماً يا عزيزة آية الجمال الساحر والحسن الباهر .

وأصعدت « الكونتس ما رتن » الى العربة قائلة :

— هيا يا عزيزة اسرعى ! فالمسيو « دى شارتر » سيتعشى معنا الليلة ، ولا أريد أن يطول انتظاره .

وبينما كانوا يسيرون فى سكون المساء فى الدروب المشبع جوها بعطر أزاهير البريّة ، قالت الشاعرة :

— أترين هناك يا عزيزة أشجار سرو المقبرة ؟ . . اننى أرغب فى الرقاد تحتها هناك . . .

لكن تريز كانت تقول فى نفسها وهى مضطربة وجلة :

— « لقد شاهداه ، فهل عرفته ڤيڤيان ؟ ما أظن . فقد كاد المكان يكون مظلما ، تفرقت فيه الأنوار الصغيرة التى تأخذ بالابصار . وموضع التساؤل هو أتعرفه ؟ . لست أذكر هل رأته بمنزلى فى العام الماضى » .

وكان أشد ما شغل بالها ذلك الفرح المكتّم الذى كان يبدو على الأمير . وعادت « فيفيان بل » تقول :

— عزيزة ! هل لك فى موضع الى جانبى ، فى هذه المقبرة القروية الخلوية ، تحت جزء صغير من الأرض وفضاء كبير من السماء ؟ الا انى أعدها جهالة منى أن اوجه إليك دعوة لا يمكنك

قبولها . فان يسمح لك يا حبيبتى بأن تثوى ثواءك الاخير الأبدى عند سفح تلال فيزول ، إذ يجب أن يكون مثواك بباريس فى رمس جميل ، مع « الكونت مارتن بليم » ، جنبًا الى جنب . . .

— ولماذا ؟ أفتحسبين إذاً يا عزيزتى ان واجب الزوجة يقضي عليها بأن تظل مرتبطة بزوجها حتى بعد الموت ؟ ؟

— يقيناً يا عزيزة ، ذلك يجب عليها ، فالزواج هو على طول الآماد والآباد . . .

ولما تجاوزوا « بادوا » بقليل ، رأوا موكبًا صاعداً منحدرات التل ، وكان نسيم المساء يطفىء ذبالات الشموع المرتعشة المغروسة فى شمعدانات من خشب مذهَّب . وكانت البيارق الملونة محيطة بصفوف من البنات المرتديات ثياباً زرقاء أو بيضاء ، تبعًا للجماعات الدينية ، وأولئك كانوا أهل فيزول سائرين أفواجًا ، فعرفت « الكونتس مارتن » بينهم « شولت » رافعًا عقيرته بالغناء ، وفى إحدى يديه شمعة وفى الأخرى كتاب ، وعو يناته الزرقاء على طرف أنفه ، وكانت الشمعة تلقى ضوءاً أصفر على تقاطيع وجهه المسطحة ونتوء جمجمته البارزة ، وشعره الأشعث الأغبر ، وكانت لحيته المنفوشة تعلو وتنخفض على نغم النشيد . وفى تلك الأضواء الضئيلة والظلال الكئيبة لاح كهلا قويًا كأولئك النساك القادرين على قضاء قرن تكفير وتوبة . فقالت « تريز » :

— لله درّه ! إنه شاعر مطبوع وفنان عظيم .

— عجبًا يا عزيزة ! كيف لا تسلمين بأن مسيو « شولت » رجل وَرِع ؟ كيف لا ؟ ان فى الاعتقاد جمالا وفرحًا ممتعين . والشعراء يعرفون ذلك حق المعرفة ، ولو لم يكن مسيو « شولت » مؤمنًا لما استطاع نظم ما نظم من الشعر المجيد .

— أو مؤمنة أنت يا عزيزتى ؟

— أجل ، انى أؤمن بالله و بكلام المسيح .

والآن ،وقد اختفت المظلّة العالية والبيارق والخُمُر البيضاء فى منعطفات الطريق الجبلى ، كان لا يزال يُرى على جمجمة « شولت » الحا سرة ضوء الشمعة وهو يتفجّر فى أشعة من ذهب . . .

* * *

فى تلك الاثناء كان « دى شارتر » منتظراً وحده فى الحديقة، فألفته « تريز » متكئًا على الشرفة التى أحسّ فيها قلبه أول هزة من هزات الحب . . .

وبينا « مس بل » والامير يتخيران مكانًا يضعان فيه قبة الجرس الجديد ، أخذ صاحبته لحظة تحت الخمائل ، وقال لها :

— مع ذلك قـد وعدتنى بأن تكونى فى الحديقة فأجدك عند وصولى ، وقد بقيت منتظراً ساعة من الدهر حسبتها أبدية غير متناهية ، ولم يكن لك أن تخرجى،وقد أدهشنى وأيأسنى غيابك ...

فأجابت جواباً مبهماً ، انها اضطرت للذهاب الى المحطة ، وأن « مس بل » عادت بها معها فى عربتها . فاعتذر لها مما بدا من قلقه، لأن كل شيء أزعجه ، حتى هناءه أخافه وروّعه . .

وكانوا قد سبقوا فجلسوا الى المائدة ، عند ما ظهر « شولت »، وكأنما وجهه من الدمى الاثرية العتيقة ،وعيناه الفوسفوريتان تبرقان بريق فرح مرعب غريب . . وكان « شولت » قد خالط الناس مذ عودته من « اسيزى » فكان يقضى سحابة نهاره فى شرب نبيذ الكيانتى مع بنات الهوى وأهل الحرف يرشدهم الى السرور البرىء وينصحهم بكف الايدى عن الاذى ليسعدوا ، ويبشرهم بقرب ظهور المسيح وإلغاء الضرائب والخدمة العسكرية !

وبعد انفضاض الموكب ، جمع الحشد فى خرائب التياترو الرومانى،ووقف يعظه بلغة مكرونية هى خليط من الفرنسية والتسكونية وطاب له ان يعود فيكرر عظته ، فقال :

— يقول الملوك والنواب الشيوخ والقضاة :«ان حياة الشعوب فينا » . كبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ! فليسوا سوى النعش الذى يقول : « أنا المهد » ! ألا إن حياة الشعوب هى فى الحقول التى تأخذ فى الاصفرار عند الحصاد تكلؤها عين الله . وحياة الشعوب فى عناقيد العنب المتدلية من الكروم ، وفى البسمات والعبرات التى تسكبها السموات على الثمار والاشجار فى

الغياض والرياض .. ان حياة الناس ليست فى اللوائح التى يضعها الأقوياء والاغنياء محافظة على القوة والثروة . ان ذوى السلطان واصحاب التيجان فى الممالك والجمهوريات قد وضعوا فى ناموسهم ان الحرب هى سُنّة الخلق ، ومجدوا الشدة ورفعوا قدر القوة ، فتراهم يعلون مقام الفاتحين فيقيمون فى الميادين العامة تمثالا للرجل وحصانه الظافرين ! .. لكن معاذ الله . فليس لانسان كائنًا ما كان حق القتل ، لذلك يأبى الرجل المنصف سحب رقم قرعته العسكرية أو دفع الضرائب أو إعطاء الجباة شيئًا من ماله . أمّا فى ظل السلام فيستمتع بثمرة عمله وكده ، فيخبز القمح الذى زرعه ، ويأكل ثمر الشجر الذى غرسه وشذ به .

فقال « الأمير البرتنلى » بوقار :

— لافُضَّ فوك يامسيو شولت ! وأراك على حق فى التدخّل فى شؤون مملكتنا الشقية التى نهكتها الضرائب فتركتها خَرابًا يَبابا . إذ ما الفائدة التى يجنيها الانسان من ارض ضريبتها ثلث دخلها ؟ ؟ ولعمرى ما السادة والدهماء إلا عبيد جباة الاموال على السواء !

فدهش دى شارتر والكونتس مارتن من لهجة الاخلاص غير المنتظرة منه ، فزاد على ذلك قوله :

— إنى أحب الملك ، وليس ثمة موضع للشك فى ولائى ، لكن آلام الفلاحين تحزننى .

وفى الحق إنه كان متمسكاً بأهداب غرض واحد وهو استرداد ضيعته . وكان أبوه الأمير كارلو أحد ضباط المدفعية فى جيش ڤيكتور عمانوئيل قد ترك ثلاثة أرباعها فى أيدى المرابين ، ولم يدع للرذائل سبيلا الى نفسه إلا ما كان منها ذا نفع وفائدة فيفضى الى نيل غرضه وهو العود الى صف كبار الممولين وأصحاب الاطيان التوسكانيين ، فتاجر فى الصور و باع خفية سقوف قصره الشهيرة ، وغازل العجائز وترضّاهن ، وأخيراً خطب « مس بل » التى عرف مهارتها فى ادخار المال وتدبير المنزل . فهو قد أحب الارض وفلاحيها حقاً ! وأثارت عاطفة هذا الحب عنده أقوال شولت الحماسية التى فهم شيئاً منها . فذهب يقول ما يجول بفكره :

— فى البلاد التى يكون فيها السيد المطاع والخدم الأتباع أسرة واحدة ، يتوقف حظ كل منهم على حظ الباقين . إى وربى إن الضريبة تخربنا ، فأنعم بهمة فلاحينا إنهم فى عزّق الأرض لا يشق لهم غبار !

فشهدت « الكونتس مارتن » أنها لم تكن تظن ذلك ، فلم تر الحقول المخصبة والقنوات الوافرة الاّ فى « لومبارديا » ، أما « توسكانيا » فقد بدت لها روضة بديعة مهملة . .

فأجابها الأمير مبتسما أنها ربما غيرت فكرتها إذا شرفته بزيارتها

مزارعه فى « كزانتينو » على ما عانته هذه المزارع من الدعاوى الطويلة المرهقة . فهناك تجد الفلاح الايطالى القح :

— أننى أهتم كثيراً بضيعتى التى كنت عائداً منها فى هذا المساء عند ما تضاعف سرورى بلقاء «مس بل» فى المحطة تطاب جرمها ، كما لقيتك يا سيدتى تتحدثين وصديقًا من باريس . . .

أدرك أنه قد يضايق « الكونتس مارتن » بالكلام عن ذلك اللقاء ، ونظر حول المائدة فلاحظ الدهشة المحزنة التى كان «دى شارتر» عاجزاً عن إخفائها ، فمضى فى كلامه يقول :

— غفرانك يا سيدتى لفلاح مثلى يخدع النفس بأنه أوتى شيئًا من التميز الاجتماعى . لكنى رأيت أن السيد الذى كان يتحدث اليك لا بد أن يكون باريسيًا لطلعته الانكليزية ، ولأن تكلفه البرود الانكليزى قد شَّف عن خفة روح الفرنسى .

فقالت « تريز » بلا مبالاة :

— أُوه ! إننى لم أره من زمن طويل ، وقد أدهشنى كثيراً لقاؤه فى فلورنسا ساعة رحيله عنها . . .

ونظرت الى « دى شارتر » الذى تظاهر بعدم الاصغاء ، فقالت مس بل :

— لكنى أعرف هذا السيد ، فهو « مسيو لومنيل » وقد جلست مرتين بقربه على مائدة « الكونتس » ، فحدثنى حديثًا

مستطاباً ، وأخبرني أنه يحب كرة القدم وقد أدخلها فى فرنسا فأصبحت الآن شائعة جداً . وكذلك قص على أنباء رحلاته فى الصيد والقنص ، وهو يحب الحيوانات حباً جماً ، وأؤكد لك يا عزيزتى أن « مسيو لومنيل » يتكلم معجباً بالأرانب التى يعرف عاداتها ، وقال لى أنه مما يسر الخاطر رؤيتها ترقص على ضوء القمر فى البرية ، كما أكد لى أن لها ذكاء حاداً ، وأنه رأى مرة أرنباً طاعناً فى السن تطارده الكلاب فأرغم أرنباً آخر على الخروج من مخبئه ومبادلته موقفه !.. فهل حدثك « المسيو لومنيل » حديث الأرانب يا عزيزة ؟

فأجابت « تريز » أنها لا تعرف ، وأنها تجد جميع الرياضيين ثقلاء مضجرين !

فردت عليها «مس بل » قائلة أنها لا تعتقد أن « مسيو لومنيل » يمكن أن يضجر أحداً عندما يصف له الأرانب الراقصة فى الكرمة والبرية تحت ضوء القمر . . وتود لو أُتيح لها مثل « فنيون » أن تربى أرنباً صغيراً . قالت :

— أفلا تعرفين « فنيون » يا عزيزة ؟ انى واثقة من أن « مسيو دى شارتر » يعرفها ، فقد كانت حسناء محبوبة من الشعراء وقد عاشت فى جزيرة « كوص » فى بيت على سفح رابية مغطاة بأشجار الليمون والتربنتينا ، وعلى شاطىء بحر أزرق ، وقيل أنها

كانت تطيل النظر الى الأمواج الصافية الزرقاء . وقد قصصت على « مسيو لومنيل » حديثها فسرّه ذلك . ومداره على أن صياداً أعطاها أرنباً صغيراً ذا أذنين طويلتين أُخذ عن صدر أمه وهى ترضعه ، فوضعته « فنيون » فى حجرها ، وأطعمته أزهار الربيع ، فأحب « فنيون » ونسى أمه . ثم مات من بشم الزهر . فبكته « فنيون » وحزنت عليه ، ودفنته بحديقة الليمون في قبر كانت تراه من مضجعها . . ورثى الشعراء الأرنب الصغير وعزّوا « فنيون » عنه !

فقالت مدام مارميه أن « مسيو لومنيل » يُرضى النفوس بما أوتيه من فطنة ورقة قلما تتوافران للشبان ، وكانت تود من كل قلبها لو اتيحت لها رؤيته ، لأنها تريد أن يسدى اليها معروفاً ، وقالت :

— وهذا المعروف لابن اختى ، الكابتن فى المدفعية ، الشاب الحسن الأحدوثة ، المحبوب من رؤسائه . وكان قائده فى وقت ما تابعا للجنرال « دى لا بريش » عم « مسيو لومنيل » ، فلو تفضل « مسيو لومنيل » فسأل عمه بضعة سطور يرسل بها الى القائد توصية بابن أختى لكنت شاكرة له فضله .

وعادت « مس بل » فأبدت شديد أسفها على أن « عزيزة » لم تعرّفها أن « مسيو لومنيل » فى فلورنسا ، فقد كانت تود لو علمت ذلك أن تضيّفه فى فيزول .

وظلّ « دى شارتر » مكتئبًا واجمًا بقية السهرة . فلما همّ بالانصراف ، ومدت إليه « تريز » يدها ، أحسَّت أنه تحاشى الضغط عليها .

٢٣

فى اليوم التالى ، وجدته فى بيت شارع « الفيرى » الصغير قلقا مشغول البال . فحاولت بادىء بدء أن تسليه بأفراطها فى إظهار الفرح ، ومبالغتها فى إبداء خضوع العاتية التى تهب نفسها وحنانها ، لكنه على ذلك ظلّ مكتئبًا .

وكان قد قضى سواد ليله يتأمل ، ويفكر ، ويعمل ، ويكون حزنه وضجره ، لأنه وجد أسبابًا للألم . وأدرك بثاقب فكره الصلة بين اليد التى ألقت الخطاب فى صندوق البريد الذى أمام التمثال البرنزى لسان مارك ، وبين المجهول الخامل المهيب المنظر الذى شوهد فى محطة سكة الحديد . وعلى ذلك يكون « جاك دى شارتر » قد وجد لغمه رسما ولأمله اسما .

وكان جالسًا على المقعد الكبير المريح الذى أهدته تريز إليه وجلست عليه يوم زيارتها الاولى السارة . ولبث ساكنا وقد دهمته التصورات القاتمة واكتنفته الخواطر المظلمة ، فى حين كانت تستند إلى ذراعه وقد ألصقت به جسمها الدافىء ، وأحاطته بروحها المتيم ...

وكانت فى غير حاجة الى سؤاله عن أسباب حزنه لأنها تعرفها حق المعرفة ، فحاولت أن توجه تيار أفكاره الى ذكريات سعيدة ، فذكرته اسراراً اشتملت عليها جُدُرُ الغرفة التى تحتويهما ، وذكرته

جولاتهما في أنحاء المدينة ، وأسرفت فى الإلطاف له والعطف عليه ، وقالت :

— أتذكر الملعقة الصغيرة المصنوعة يدها على شكل « زنبقة حمراء » التى أعطيتنيها تحت تمثال « لا نزى » ؟ إنى أشرب بها الشاى كل صباح ، وما استيقظت إلا أذكرتنى اللذة التى أحسها حالما أراها مبلغ حبى لك . . .

فلما أجاب بكلمات غامضة حزينة ، قالت :

— انك غير معنىّ بى على قربى منك ، فقد أراك مشغولا بفكرة أجهلها ، ولكنى على أى حال موجودة باقية ، فأما الفكرة فليست شيئًا . . .

— ليست الفكرة شيئًا ؟ ! أيخيل إليك ذلك ؟ إن فكرة ما قد تجعل المرء سعيداً أو شقيًّا ، وربما أماتته وربما أحيته ، ولذلك أفكر . .

— وفيم تفكر ؟

— ولم تسألينني ؟ وأنت تعرفين اننى أفكر فيما سمعت مساء أمس ، مما سترته منى وأخفيته عنى . أفكر فى اللقاء الذى تمّ لك بالأمس فى المحطة ، والذى ليست للمصادفة يد فيه . لكنما سبق الى ترتيبه خطاب ، خطاب ألقى — أتذكرين ؟ — فى صندوق بريد سان

ميكيل ؟ . . لا والله انني لا ألومك ، فلا حق لى فى لومك ، ولكن لماذا صرت إلىّ ما دمت غير خالية ؟

فرأت أن الكذب أولى ، فقالت :

— إذا كنت تعنى الشخص الذى لقيته فى المحطة أمس الدابر فأؤكد لك أن ليس لهذا اللقاء قيمة بتاتا .

فلاحظ بحزن أنها لم تجرؤ على أن تسمى الذى تتكلم عنه ، وتجنب هو أيضًا النطق باسمه ، وقال :

— تريز ! أو لم يجىء هنا ليراك ؟ أو لم تعرفى أنه فى فلورنسا ؟ أليس هو عندك غير رجل تلقينه فى المجتمع وتستقبلينه فى منزلك ؟ أو لم يكن بسببه ، وفى غيبته ، قولك لى ونحن على شاطىء الأرنو « لا أستطيع ! » ؟ أهو لا شىء عندك ؟ ؟

فأجابته بحزم :

— إنه يزورنى أحيانًا ، وقد قدمه إلىّ الجنرال لاريفيير . وليس عندى ما أقوله لك غير ذلك . وثق أننى لا أجد فيه ما يستميلنى على الاطلاق . فلا أقدر أن أتصور ما يمكن أن يكون عالقًا بأوهامك . .

وشعرت بضرب من المسرة وهى تجحد بهذا السياق معرفة الرجل الذي كان يدعى عليها ، بكل شدة وفظاظة ، حقّ الملكية !

وسرعان ما عادت الى الصدق ، ووقفت في طريق المين ،

فنظرت الى حبيبها بعينيها الدعجاوين الثابتتى النظرات التى فى بريقها معانى الانعطاف ، وقالت :

— اصغ إلىّ ! اننى من اليوم الذى صرت فيه إليك صارت حياتى كلها خاصة بك ووقفا عليك . وإذا كان يخامرك أدنى ريب أو يساورك أى قلق فاسألنى . فان لك الحاضر كله . وأنت تعلم بيقين أن ليس ثمّ سواك ، وحدك ، فأنت من الحشاشة فى الصميم ! . . . أما ماضىّ فلو عرفت إلى أىّ حدّ كان فارغًا لابتهجت ، وإنى لأعتقد أنه ليس فى الدنيا امرأة مثلى خلقت للحب كانت تستطيع أن تأتيك بروح أكثر جدة من روحى ، أو تزفّ إليك قلبا هو بمجامعه لك كقلبى . هذا ما أقسم عليه . وفى خلال الأعوام التى سبقت معرفتى بك لم أذق للحياة طعماً . فلا تدعنا نتكلم عنها أو نشير إليها . وإن لم يكن فيها ما يندى له جبينى . أما الأسف ، فشىء آخر . فأنا آسفة لأنى عرفتك هكذا آخراً . فلماذا ياحبيبى ، لماذا لم تأت إلىّ من قبل ؟ فلو أنك أتيت منذ خمس سنوات لوهبتك نفسى ، كما أهبها لك اليوم طيبة الخاطر . لكن صدقنى ، ولا تجعلنا ننبش ما لم يبق له أثر من الماضى ، أو نتعب أنفسنا بسؤال الزمن الخالى . تذكر « لوهنجرين » فاذا أحببتنى كنت لك بمنزلة « فارس البجعة » . إننى ما سألتك فى شىء ، وما أردت معرفة شىء . ألم تر كيف لم أجادلك فى أمر الآنسة

« چان تانكريد » ؟ ذلك أننى رأيت أنك أحببتنى ، وأنك قد عانيت ، وهذا يكفينى ، لأننى أحببتك . . .

— لا تقدر المرأة أن تكون فى حالة الغيرة والرجل سواء . ولا تقدر أن تشعر بما يسبب لنا نحن الرجال أشد تباريح الآلام .

— ما أدرى ! ولماذا ؟

— لماذا ؟ لأنه ليس فى دم المرأة ، ولا فى لحمها ، شهوة الملكية ، تلك الشهوة السخيفة النبيلة معًا ! . . تلك الشهوة الطبيعية ، العريقة فى القِدَم ، التى جعلها الرجل من حقوقه ، فما الإنسان إلاّ الآلة الذى يريد أن تكون خليقته كلها له وحده ، وحظ المرأة من قديم الأزل أن تُقتنى . فهو الماضى ، الماضى القصىّ المجهول الخفىّ الذى يتحكم فى عواطفنا ، فنكون حين نولد كأننا بلغنا الكبر !

أما غيرة المرأة فليست سوى تجريح كرامتها ، أما غيرة الرجل فعذاب عميق ، فيه كل ما فى الألم الأدبى من حدة ، كما فيه كل ما فى الألم الجسدى من استمرار . . . أتسألينى لماذا ؟ ؟ . . لأنه على خضوعى لك واحترامى إيّاك ، وعلى الخوف الذى تسببينه لى ، فأنت المادة وأنا الفكر ، وأنت الجسم وأنا الرُّوح ، وأنت الصلصال وأنا الخزّاف . على أنه لا حق لك فى الشكاية . فما قدر الخزاف الخشن الذليل بجانب الزهرية المستديرة المكللة هامتها بالتيجان ؟ هى

هادئة جميلة وهو شقى بائس . هو يعانى ، وهو يرغب فيتعذب ، لأن الرغبة هى العذاب . نعم انى غيور . وأعرف ما غيرتى . فاذا حللتها وجدتها مركبة من أحكام موروثة مبتسرة : كبرياء وحشى ، وإحساس مريض ، ومزيج من عنف أحمق وضعف قاس ، وتمرد أخرق أثيم على سنن الحياة والكون . ولكن عبثًا أقف على حقيقتها العارية . فهى كائنة ، وهى ترهقنى من أمرى عسرا . . وما مثلى إلا مثل الكيمائى الذى يدرس خواص الحمض الذى شربه، فيعرف بماذا يمكن أن يمتزج ، وأية أملاح يمكن أن يكوّن ، بَيْدَ أن الحمض فى خلال ذلك يحرقه وسيحرقه حتى نخاع عظامه . . .

— يالك حبيبًا أبله !

— نعم إنى أبله ، وأشعر ببلهى أكثر مما تشعرين . فاشتهاء امرأة فى زهرة جمالها وذروة ذكائها ، سيدة ذاتها ، مالكة قياد نفسها ، تفهم وتجسر وهى فى فهمها وتجاسرها أحلى وأشهى ما تكون ، امرأة تستطيع أن تتخيَّر بحرية وفى غير تقييد ، وأن تختار بمعرفة ودقة نظر - يكون اشتهاؤها وحبها لكل ماهى عليه ، والتألم لما ليس فيها من سلامة نية الطفلة التى مع ذلك تهول المرء لو وجدها فيها ، اشتهاء امرأة هذا شأنها ، وسؤالها أن تكون فى وقت واحد نفسها وليست نفسها ، وعبادتها لما جعلتها الحياة له ، ثم التأسف مع

الأسف على أن الحياة التى جعلتها هكذا جميلة قد لمستها بأن خلقتها . . . آهٍ ! إن ذلك لبله شديد !

إنى أحبك ، أفتدركين ؟ إنى أحبك بكل ما تحملين الىّ من مشاعر وعادات ، وكل ما يأتى من تجاريبك ، وكل ما قد اكتسبته منه . . منهم . . . من يدرينى ؟ إن فى هذا الذى وفيه تعذيبى . فليس بد من أن يكون ثمة معنى عميق فى ذلك البله الشائع الذى يعتبر غرامنا إثمًا وأمراً إدًّا . فالفرح إذا تجاوز حده صار جُرما . . . هذا الذى من أجله أعانى وآلم ، أيتها الحبيبة .

فجثت بين يديه ، وأخذت براحتيه ، وجذبته إليها قائلة :

— إننى لا أحتمل أن أراك متألمًا ، ولا أريد ذلك . فهذا جنون . إنى أحبك ولم أحب أحداً سواك ، وفى وسعك أن تصدقنى ، والله يعلم أننى لا أفترى عليك كذبًا .

فقبلها فى جبينها ، قائلا :

— إذا كنت تخدعيننى أيتها العزيزة فلن أرجع عليك فى ذلك باللائمة ، بل على الضد أمتنّ وأشكر . فأى شىء يمكن أن يكون أحلّ وأكثر انسانية ومشروعية من خداع الحزن ؟ ؟ وارباه ! ماذا يصير حالنا لو أن النساء لا يشفقن علينا فيكذبن ؟ ؟ فاكذبى يا حبيبتى ! اكذبى رحمة منك وإحسانًا ! . . امنحينى الحلم الذى

يكشف ليل أحزانى ! اكذبى فى غير ما خوف أو تردد ، فانما أنت لا تضيفين بالكذب الاّ وهماً آخر الى وهم الحب والجمال . . .

وتنهد قائلا :

— آهٍ لما فى ذلك المثل السائر من شعور صادق !

فسألته عما يعنيه وعن ذلك المثل السائر ، فأجاب إنه مثل رشيد لكنه وحشى ويؤثر الاّ يكرره .

فقالت له :

— اخبرنى به .

— أتريدين أن أقول لك : « الثَّغر الذى يُقَبَّل لا يفقد طلاوته » ؟

وأردف قائلاً :

— حقًا أن الحب يصون الجمال ، وأن المرأة تغتذى بالاعزاز والملاطفة كما تغتذى النحلة بالزهر . .

فأجابته :

— اقسم لك أننى لم أحب قط سواك . ألا أنه لا الملاطفة ولا الاعزاز هما اللذان صانا هذا القليل من الجمال الذى أنا سعيدة به لتقديمه اليك ، فأنى أحبك ، وبالحلف أعزز حبي !

وختمت يمينها بقبلة طبعتها على شفتيه . على أنه عاد فتذكر خطاب « سان ميكيل » ورجل المحطة المجهول . . فقال :

— لو أحببتنى حباً صفواً لما أحببت أحداً سواى .

فنهضت متبرّمة ساخطة تقول :

— أفتظن اذاً انى أحب غيرك ؟ ألا ان ما ترمينى به هائل فظيع . أذلك الذى تراه فىّ ، وتقول أنك تحبنى ؟ إليك ! إننى أرثى لك لأنك رجل مخبول !

— أحقاً انى مخبول ؟ قولى ذلك ! وكررى هذا القول على سمعى ..

فجثت ، وأخذت وجهه فى يديها الناعمتين ، وقالت له ثانية أنه مجنون لتلك الأكدار كلها بسبب لقاء عادى لا يعتدُّ به ولا يؤبه له . وحملته على تصديقها ، أو بالأحرى على النسيان . .

فلم يعد يرى ، أو يعرف ، أو يشعر بغير هاتين اليدين الرقيقتين وتينك الشفتين الملتهبتين ، وذلك الثَّغر الشَّرِه المشوق ، والنحر الممتلىء ، وكل هذا الجسم الرائع الحسن المقدم اليه . وانصرفت كل تفكيراته الى فكرة واحدة ، هى أن يتلاشى ويفنى فيها .

وزالت مرارة حزنه وغضبه ، وبقيت الرغبة الشديدة الملحَّة عليه فى نسيانه كل شىء وإنسائها كل شىء كذلك ، بسقوطهما معاً فى غشية أبدية .

وكذلك هى ، نخسها القلق والاشتهاء وحرَّضاها ، فأحسَّت العاطفة الأزلية التى نفثتها فيه ، بكل قوتها وكل ضعفها جميعاً ، فأعطت حباً نظير حب ، فى هياج لم تعرفه من قبل ، وفى سُعار غريزى ،

و إرادة دفينة صمّاء تدفعها الى بذل أحسن وأكثر مما بذلت فى أى وقت مضى، تجاسرت على ما كانت تحسب فى غير إمكانها التجاسر عليه..

وكانت الحجرة فى أحضان ظل دافىء ، وأشعة الشمس الذهبية الساقطة على أهداب السجوف تضىء سلالا مملوءة من الشليك موضوعة على الخوان بجانب زجاجة من نبيذ آستى . وعند رأس السرير، كان يُرى الظل الجلى للغادة الڤينيسية التى ارتسمت على شفتيها الذابلتين بسمة . وكانت صور المساخر المرسومة على (البراڤان) المصنوعة فى « بجرامو » و « ڤيرونا » تجر ذيول فرحها الصامت . . .

وهناك وردة كبيرة نضرة تتساقط ورقة ورقة . وكان الصمت يفوح حُباً . وقد نهكت الشهوات قوى العاشقين . . .

ونامت على صدر حبيبها ، وأطالت غفوتُها الخفيفةُ تلذذَها بالغرام . فلما فتحت عينيها قالت مبتهجة :

— أهواك !

وكان مستنداً بمرفقه الى الوسادة ، ناظراً اليها بكآبة خرساء . فسألته عن سبب حزنه قائلة :

— انك كنت سعيداً مغتبطا منذ هُنَيَّة ، فلِمَ لا أراك كذلك الآن ؟

فهزَّ رأسه ولم ينبس .

— عزمت عليك إلا ما قلت ! فأنى أوثر أن أسمعك شاكيا على أن أراك صامتًا .

فقال :

— أفتريدين أن تعرفى؟ ؟ فلا تغضبى إذاً ! إن حزنى أشد منه فى أى وقت مضى ، ذلك إذ عرفت الآن ما يمكنك أن تمنحيه . .

فابتعدت عنه بسرعة ، وامتلأت عيناها ألما وتوبيخًا ، ثم قالت :

— أفيمكن أن يدور بخلدك أننى كنت يومًا لانسان كما كنت لك ؟ إنك تصيبنى وتجرحنى فى أرق مشاعرى وأخلصها : فى حبى لك . ولست أغفر لك ذلك ، فانى أحبك ، ولم أحب غيرك ، وأنت وحدك الذى جعلتنى آلم . فاسعد واهنأ ، فقد أصابنى منك شرٌ كثير . . ترى . . أتكون قاسيًا خبيثًا ؟

— تريز ! إذا أحب المرء لم يكن شفيقًا !

وكانت جالسة فى الفراش ، كمن تستحم ، وقد تركت ساقيها العاريتين متدليتين ، وبقيت طويلا بلا حراك ، وراحت فى تفكير . .

ثم تضرّج محياها بحمرة الخجل ، وكان الهوى جعله شاحبًا ، واغرورقت عيناها ، فصاح بها :

— تريز ! أتبكين ؟

— عفواً أيها الصديق ! إنها أول مرة أحببت وأُحببت فيها حبا صادقًا . وانى أوجس خيفة وأحاذر !

٢٤

بينا كان دويّ الحقائب وهى تتدحرج على الدرج يملأ ڤيلاّ الأجراس ، والوصيفة « پولين » تهبط السلم بخفة وهى محملة حزمًا ، و« مدام مارميه » الصالحة ترقب فى يقظة هادئة تصدير الأمتعة ، و« مس بل » تُنهى ارتداء ملابسها فى حجرتها – كانت « تريز » فى ثياب السفر الرَّمادية متكئة على سياج المشرف تلقي النظرة الأخيرة على « مدينة الزهرة » .

فقد اعتزمت الرحيل ، ذلك أن قرينها كان يريدها على العودة في كل رسالة منه إليها . فاذا عادت الى باريس فى أوائل مايو ، كما رجا منها ملحفًا ، فانهما يقيمان مأدبتين أو ثلاث مآدب سياسية ، لأن حزبه اشتد ساعده ورجحت كفته ، ومن رأى « مسيو جران » أن صالون « الكونتس مارتن » قد يكون له نفوذ كبير وتأثير فى مستقبل البلاد . فلم تؤثر فيها كثيراً أمثال هاتيك الحجج ، لكنها شعرت بالرأفة بزوجها وأرادت إرضاءه . وكذلك أتتها أول من أمس رسالة من أبيها « مونتسوى » الذى لم يتدخل فى خطط صهره السياسية ، ولم يوجه الى ابنته نصيحة ما ، وانما جعلها تفهم أن الناس يلغطون فيما بينهم بسفر « الكونتس مارتن » الى فلورنسا و إقامتها فيها ، تلك الاقامة المحوطة بالأسرار ، حيث تعيش

فى ڤيلاّ الأجراس عيشة تتقسّمها العواطف والأهواء ، بين الفنانين والشعراء . . .

وهى نفسها شعرت أنها تُراقب عن كثب فى محيط « فيبزول » المحدود ، وقد ضايقتها « مدام مارميه » وسبب لها الأمير « البرتنلى » القلق والانزعاج فى حياتها الجديدة . وأخذت مواعيدها فى بيت شارع الفيبرى تمسى صعبة خطرة . وحدث أن الاستاذ الريغى ، وهو صديق الأمير وعشيره ، قابلها ذات مساء في طريق مقفر تسير ملتصقة « بدى شارتر » عالقة بذراعه . . . وكان الاستاذ الريغى ، وهو واضع رسالة فى الزراعة ، من الطف الحكماء . فزوى وجهه الباسل الجميل ذا الشارب الابيض الجليل ، واكتفى فى اليوم التالى بأن قال للسيدة الشابة :

« كنت فيما غبر أستطيع التكهن باقتراب المرأة الجميلة وهى لا تزال بعيدة ، أما الآن ، وقد جاوزت السن التى تميل السيدات الى النظر فيها إلىّ ، فأنى أرى الله رحيما بى ، لانه قد كفانى رؤيتهن ، وأصبحت عيناى من قصر النظر بحيث لا تستطيعان تعرف حتى أجمل الوجوه ! . . . »

ففهمت كلامه ، وتقبلته على أنه تحذير . وها هى ذي يلجُّ بها الحنين الى إخفاء سعادتها فى لانهاية باريس . . . .

ولما أخبرت « ڤيڤيان » بسفرها القريب ، ألحت عليها فى البقاء

بضعة أيام أخر ، لـكن « تريز » ارتابت فى ان صاحبتها ما زالت متأثرة من صدمتها لها بنصيحتها التى أسدتها اليها ذات ليلة فى غرفة نومها فلم تعد جدّ سعيدة بعشرة صفيّة لا توافقها على اختيارها . كما خيل اليها أن الأمير يشبهها بامرأة غندورة ، وربما شبهها بامرأة خليعة . فحددت لسفرها الخامس من شهر مايو .

وكان يومًا صحواً بسّامًا فى وادى الأرنو . ورأت تريز من المشرف وهى سابحة فى عالم الاحلام نور الصبح غير المحدود منبثقا بلون الورد على حوض فلورنسا الأزرق . فأشرفت عليه تحاول ان يدرك طرفها فى سفح المنحدر المغطّى بالزهر تلك البقعة الخفية حيث عرفت الهناء الذى لا حدّ له . هنالك رأت بقعة صغيرة مظلمة هى حديقة المقبرة ، فحزرت بقربها موقع شـارع الفيرى ، ثم تراءت لخيالها تلك الحجرة العـزيزة التى لن تعود قدمها فتطؤها . عادت تلك الساعات التى مضت بلا رجعة فتمثّلت فى ذاكـرتها مجللة بالسواد . فأحسّت غشاوة فى عينيها وارتخاء فى ركبتيها ، كما أحسّت فى نفسها خَوَراً ، وبدا لها كأنما حياتها لم تعد فيهـا ، وأنها تاركتها وراءها في ذلك الركن من الأرض حيث تُشاهد أشجار السرو القاتمة شامخة الذرى الساكنة . فلامت نفسها على شعورها بهذا الاضطراب الذى لا سبب له على حين كان ينبغى لها

أن تطمئن وتفرح . فقد عرفت أنها ستلقى « جاك دى شارتر » فى باريس. وكان بودهما لو وصلا فى وقت واحد أو بالحرى لو سافرا معا . ثم آثرا أن يبقى هو ثلاثة أيام أخرى أو أربعة فى فلورنسا ، ذرًّا للرماد فى العيون ، على أن يكون لقاؤهما قريبًا ، فضُرب له موعد . وكانت تحيامذ ذاك بالتفكير فيه . وكان حبها حياتها ، مختلطًا بلحمها ، جاريًا فى دمها . ومع ذلك كانت تاركة وراءها جزءاً من نفسها فى البيت الصغير ذى الواجهة المزدانة بصور المعز وبنات الغاب ، جزءاً من نفسها لن يرجع إليها أبد الدهر . وفى عزَّة الحياة وحميَّاها كانت تموت شوقًا الى أشياء لا تقـدَّر . فذكرت ان « دى شارتر » قال مرة :

« إن الحب إلاّ عبادة أوثان وعقيدة فى التمائم والرُّقى . . فقد جمعت من الحديقة بعض حبَّات سوداء جافة من شجرة التوت التى كنتِ قد نظرتِ إليها ! . . . » . فكيف لم يخطر لها أن تتزوَّد بحصاة من البيت الذى نسيت فيه العالم ؟ ! . .

قطعت عليها أحلامها صرخة صدرت من « پولين » إذ فجأ « شولت » الوصيفة بقبلة وهى حاملة المعاطف والحقائب الى لعربة . ثم راح يركض فى الممشى مهرولا ، وأذناه منتشرتان على جانبى جمجمته اللامعة كأنهما قرنان ناتئان .

فقال مخاطبًا الكونتس مارتن :

— إذن وجبَ أن أودّعك يا سيدتى ؟

ذلك أنه كان على نية المكث فى إيطاليا ، لأن السيدة — كما قال — قد دعته إليها ، وهذه السيدة هى « روما » ، وهو يريد أن يزور الكرادلة إذ قيل أن فيهم رجلا عاقلا قد يتقبل رأى « شولت » فى الكنيسة الاشتراكية الثائرة ، وكان غرض « شولت » أن يغرس على أنقاض المدينة القاسية الظالمة صليب الجلجلة ، الذى لم يعد عاريًا ميتًا ، وانما حيًّا يضوى العالم تحت ذراعيه المزهرتين ! ولكيما ينفذ غرضه كان يسعى فى تأليف جمعية وتأسيس جريدة ، أما الجمعية فالكونتس « مارتن » تعرفها ، وأما الجريدة فيكون ثمنها صلديًا واحداً ، ومحررة بالجمل المقفّاة وقصائد الشكاة ، فيمكن التغنى بها ، وذلك سيكون . فان الشعر السهل سواء أكان ترحًا أم فرحًا ، جديًّا أم هزليًّا ، هو فى الحقيقة اللغة الوحيدة التي تصلح للتداول بين الناس ، أما النثر فلم يجعل لغير ذوى الذكاء الحاد ، ولقد قابل « شولت » فوضويين بين الباعة المقايضين فى شارع «سان جاك» ، فكانوا يمضون سهراتهم يلقون و يستمعون المواويل . . .

ثم عقّب على ذلك بقوله :

— إن صحيفة تكون مجموعة أغان تصل الى أغوار أفئدة الجماهير . يقولون أننى عبقرى ، ولست أعرف هل هم صادقون ،

لـكن يجب على الاقل أن تعترفى بأن لى عقلية محنَّـكة عملية غير نظرية !

ونزلت « مس بل » السلم وهى تلبس قفازها وتقول :

— أى عزيزة ! إن البلد والوهاد والسماء كلها قد اجتمعت على أن تحملك على بكائها ، فلبست فى يومها ثوب الجمال القشيب لتبعث فيك الأسف على مغادرتها فتحنى الى لقائها .

على أن « شولت » كان قدملّ أناقة أصقاع « توسكانيا » اليابسة ، وتاق الى « أومبريا » الخضراء وجوها الرطب . وذكر « أسيزى » ، قائمة كأنها فى صلاة ، فى مرعاها الخصيب وسط أرض أكثر لينا وأشد اتضاعا . .

فقال :

— هناك غابات وصخور ومعابر تُرى فوقها السماء ذات السحب التى كأنها العهن المنفوش . . ولقد قفوت أثر القديس « فرانسوا » الصالح ووضعت نشيده « الشمس » فى قافية فرنسية عتيقة بسيطة فقيرة . .

فأبدت الكونتس « مارتن » رغبتها فى سماعها ، وكانت « مس بل » صاغية سلفًا ، وقد أشرق وجهها حتى كأنه وجه تمثال ملك من صنع « مينو » !.. فأنذرهما « شولت » أن قصيدته لا فنّ

فيها ولا صقل لها ، ثم ألقاها متئداً بصوت ذى نغمة واحدة .

فصاحت « مس بل » :

— أى مسيو « شولت » ! ان هذا النشيد يصعد نحو السماء صعود الناسك الذي شوهد فى « كامبو سانتو دى پيزا » متسلقا الجبل الذى تحب المعز الرعى فيه ، وكان متكئاً فى صعوده على عصا الأيمان ، غير متساوى الخطا ، لان عصاه كانت على أحد جانبيه ، فكانت إحدى قدميه أسرع من الاخرى ، وهذا هو السر فى أن أشعارك مرسلة غير منظومة . . نعم ! أنا فاهمة ! . .

فتقبل الشاعر هـذا المديح مقتنعاً بأنه يستحقه من حيث لا يحتسب ! . . فقالت تريز :

— إنك مؤمن يا مسيو شولت ، فعلام كان يحملك إيمانك لو لم يحملك على نظم ممتع القريض ؟

— كان يحملنى على الاثم يا سيدتى !

— وي ! إنا لنرتكب الآثام من دونه !

* * *

وظهرت « مدام ما رميه » متأهبة للرحيل ، وكانت تشعر بمسرة وديعة لعودتها الى مسكنها الصغير فى شارع « دى لا شير » ، والى كلبها الصغير « توبى » والى صاحبها الشيخ مسيو « لاجرانج » .

و بعد « إيتروسكي فيزول » ستسعد برؤية فارس بيتها الواقف بين علب الحلوى مطلاً من النافذة على ساحة البون ما رشيه !

وحملت مس بل صاحبتيها فى عربتها الى المحطة .

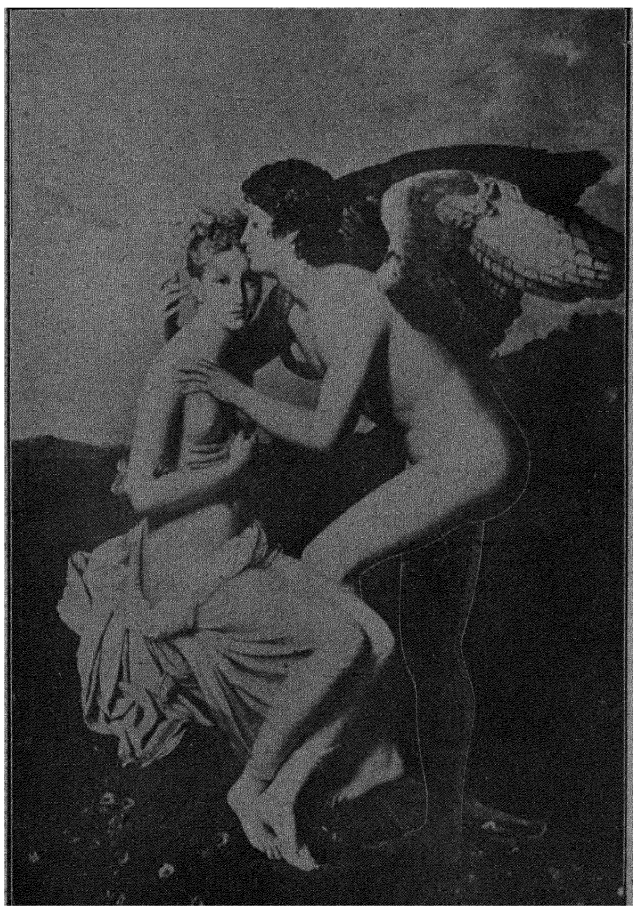

أتى دى شارتر الى القاطرة يودع السيدتين الراحلتين . . وقد « صَدَعَ الظعائنُ يوم بِنَّ فؤاده ! . . . » فأدركت تريز وقد حال الفراق بينها وبينه ما كان لهـا . إنه جعل لحياتها طعماً طريفاً لذيذاً طلياً حقيقياً إلى حد أشعرها بمذاقه على شفتيها . وقد كانت عائشة تحت تأثير سحر ، وفى حلم ، على رجاء أن تعود فتراه .

وجعلت «مدام ما رميه» تنازعها أحلامها الهنيئة طوال رحلتهما بما تبديه من ملاحظات كقولها : « أظننا نجتاز الحدود ! » أو « انظرى الى شجر الورد المزهر على شاطىء البحر » .

وظلت تريز محتفظة بهذا الفرح الداخلى حتى رأت ، بعد ليلة قضتها فى فندق بمرسيليا ، أشجار الزيتون الرمادية فى حقولها المجرية ، ثم شجر التوت وجبل « بيلات » البعيد ، ونهر الرون ومدينة ليون ، ثم الريف المعهود ، والأشجار الرافعة رءوسها المضمومة فى طاقات ، وكانت منذ قليل قاتمـة بنفسجية فحالت خضراء سندسية ، والوهاد تنحدر مفروشة بخطوط صغيرة من الأرض المزروعة ، وصفوف شجر الحور الممتدة على طـول ضفاف الأنهار . وكذلك قطعت المرحلة ، وكانت تتذوق ملء الساعات الماضية بالعواطف ودهشة الفرح العميق .

وعند ما وقف القطار فى نور المحطة الـكابى ورأت زوجها المغتبط بعودتها ، حيته بابتسامة المستيقظة من النعاس . . .

ثم قالت لمدام مارميه الصالحة وهى تقبلها ، أنها تشكرها بكل جوارحها . وحقا انها كانت تردد الشكر لـكل الـكائنات .

و بينا العربة تسير والأرصفة على نور الغروب المغبر ، صغت تريز صابرة الى زوجها وهو يفضى إليها بأخبار نجاحه الخطابى ، وخطط حزبه السياسى ، ومشاريعه الخاصة ، وأمانيه ، وضرورة إقامة مأدبتين أو ثلاث مآدب سياسية كبيرة . فأغمضت عينيها لتفكر قائلة فى نفسها : « سيجيئنى منه خطاب غدا ، وسأراه ثانية فى ثمانية أيام » . وعندما اجتازت العربة الجسر نظرت الى تلك المياه التى جعلتها الشمس الغاربة كأنها تتأجج ناراً ، والى تلك الأقواس (البواكى) المظلمة ، والى صفوف أشجار الجنّار ، والى رءوس أشجار الـكستنا المزهرة فى وسط مخمس أشجار « كورلارين » وأركانه الأربعة .

ان كل هذه المناظر المألوفة لديها قد اكتست ثوباً قشيبا من الملاحة فى عينيها . و بدا لها أن حبها قد صبغ الـكون بلون جديد . وسألت نفسها ترى أعرفتها الأشجار والاحجار ؟ وعجبت كيف أن صمتها وعينيها وكل جسمها والسماء والأرض جميعاً لم تهتف بسرها ؟ !

فظنها السكونت « مارتن بليم » متعبة فأشار عليها بالراحة . وفى الليل ، وقد أوصدت حجرتها عليها ، وحاطها السكون الشامل بحيث تكاد تسمع همس خواطرها وخفقان قلبها ، كتبت الى حبيبها الغائب خطاباً فائضاً بتلك الكلمات الشبيهة بالأزاهير فى نضرتها الدائمة : « إنى أحبك .. إنى فى انتظارك . انى سعيدة . أشعر بك قريباً منى ، وليس فى الوجود غيرنا ، أنت وأنا ! . . أرى من نافذتى نجماً ذا زرقة صافية يتلألأ ، فانظر إليه مفكرة فى أنك قد تكون ناظراً إليه مثلى من فلورنسا . ولقد وضعت على منضدتى الملعقة المصنوعة يدها على شكل « زنبقة حمراء » . فتعال ! إنك على بعدك تلهبنى شوقاً إليك . إلىَّ ! »

وهكذا وجدت تلك العواطف والخواطر الأبدية دائمة الطلاوة فى نفسها ، وظلت تعيش لأسبوع هذه الحياة المقصورة على داخلها ، وتشعر فى صميمها بالحرارة العذبة الباقية بها من غراميات شارع الفيبرى ، وما تزال تحس أثر ما نالها من قبلات ، وشغفت بنفسها لأن إنساناً آخر مشغوف بها حباً . وبذلت العناية العظمى وجهد الذوق المصفى فى انتقاء الجديد من ثيابها وزينتها . وبهذا أيضاً أرضت نفسها ، وأصابت . وكانت تجنّ قلقا وتلهفا اذا لم تجد خطاباً لها بمكتب البريد . وكانت تطير فرحاً عند ما تسلم إليها من

الكوة الصغيرة فى السياج الحديدى رسالة تعرف على غلافها خط صاحبها الجميل . فتلتهمها الذكريات والرغبات والنزعات التهاما . . . وبذا تمر الساعات الضائعة الحارة اللاعجة سراعاً .

أما صباح اليوم المحدد لحضوره فقد بدا لها بخاصة طويلا طولا ممقوتاً مملاً . فذهبت الى المحطة قبل موعد وصول القطار . فأُعلن تأخيره ، فأسقط فى يدها ، ولما كانت كأبيها من أهل التفاؤل تعتقد بأن كفة سعدها فى ميزان القدر هى الراجحة على الدوام ، خالت هذا التأخير غير المنظور غدراً !

ولثلاثة أرباع الساعة سقط عليها الضوء الكابى من وراء بلور فناء المحطة كأنه حبات لا عداد لها من الرمل فى ساعة رملية تقيس لها دقائق هنائها المفقودة ! . .

فاغتمت . واذا بها ترى ، فى أشعة الغروب الحمراء ، القاطرة الهائلة تقف وادعة على الرصيف ، وترى «چاك» يشق غمار جمهور المسافرين المزدحمين سراعاً الى العربات . فنظر اليها بذلك الفرح المكفهرّ القوى الذى تعرفه ، وقال :

— أهذه أنت أخيراً ! . . لقد كنت أخشى أن أموت قبل ان أعود فأراك . إنك لا تعرفين ، وأنا نفسى لم أكن أعرف ، أى عذاب هو عذاب العيش أسبوعاً فى بعادك ! ولقد عاودت زيارة

بيت شارع الفيرى الصغير ، وهناك . . فى الغرفة الصغيرة المعهودة ، أذرفت دموع الجوى وصحت من لوعتى وصرخت كمداً ! . .

فنظرت اليه وملء نفسها الغبطة وقالت :

— وأنا ، أفلا تحسبنى ناديتك ، وأردتك ، وأننى حتى فى وحدتى قد مددت ذراعىَّ نحوك ؟ . . ولقد أخفيت رسائلك حيث أحفظ حلي ، وأخذت على نفسى إعادة تلاوتها كل ليلة . فما أطيب ذلك لولا خلوه من الفطنة ! . إن رسائلك هى مثلك وحذوك ، ومع ذلك فليس فيها غناء !

* * *

قطعا ساحة المحطة بين العربات المكدسة بالأمتعة ، فسألته ألا يركبان عربة . فلم يجب ، ولاح عليه كأنه لايسمع . فعادت تقول :

— ذهبت أرى بيتك ، فلم أجرؤ على الدخول . فنظرت من خلال السياج ، ورأيت فى آخر ساحة الدار وراء شجرة دلب نوافذ ذات عوارض تتسلق حولها شجيرات الورد . فقلت لنفسى : « أنْ هناك . . . ! » . فشعرت باضطراب غريب .

وكان قد كفَّ عن الاصغاء لها ، أو النظر اليهـا . فاجتازا الرصيف مسرعين ، وخرجا من سلم ضيقة الى شارع مقفر يتاخم فناء المحطة وينخفض عنه . وكان بين أكواخ خشبية ومخازن للفحم الحجرى نُزُل قاعته الارضية مطعم صُفّفت موائده على الرصيف ،

وعلى نوافذه ستائر بيضاء . فوقف « دى شارتر » عند بابه الصغير ، ودفع تريز الى الدهليز المظلم ، فسألته :

— إلى أين تسوقنى ؟ كم الساعة الآن ؟ يجب ان أعود الى البيت فى منتصف الثامنة ! . . ويحنا من مجنونين ! . .

. . . . . .

. . . . . .

وهنـاك ، فى غرفة بلاطها احمر اللون ، وأثاثها سرير من خشب الجوز وسجادة عليها صورة سبع ، ذاقا لحظة نسيان ربّانية .

. . . . . .

. . . . . .

قالت وهما ينزلان الدرج :

— حِاك ! ياحبيبى ! إنّا سعيدان جَهْدَ السـعادة ! . . لنحن نختلس الحياة ! . . .

٢٦

وفى اليوم التالى ، استقلت مركبة درجت بها فى طريق آهل ، عليه من سيما الفرح وكآبة الترح معا ، وان كان وقتئذ مقفرا . وكانت أسوار حدائقه الغناء تتخلل بيوته الحديثة البناء . فوقفت عند الرصيف الذى يعلوه طنف نزل على طراز العهد « الريجنسى » ، يعترض الطريق زينة ناشزة ، وقد علاه التراب وعفت عليه يدا الحدثان والنسيان . . . وفيما بين ههنا وههنا تمتد الأغصان الخضراء بين الأحجار فتبعث البهجة فى هذا الركن من المدينة .

وبينما كانت « تريز » تدق جرس الباب الصغير ، دارت ببصرها فيما حولها ، واستوعبت المحيط المحدود من البيوت ، ورأت فيما رأت بكرة معلقة فى طاق ومفتاحاً كبيراً مذهبا هما شارة صانع اقفال . فامتلأ ناظراها بهذه الأشياء التى كانت جديدة عليها ثم ألفتها . وحلق الحمام فوق رأسها ، وسمعت نقنقة الدجاج . ففتح لها الباب خادم عظيم الشاربين كأنه جندى فلاح . فألفت نفسها فى فناء رملى تظلله شجرة دُلْب . وكان مسكن البواب الى اليسار على مستوى الطريق ، معلقة فى نوافذه أقفاص الكنار . والى هذا الجانب كان برج الدار المجاورة مغطى بتعريشة خضراء يستند اليها مشغل مثّال تظهر من وراء زجاجه أشكال الجصّ مغطاة

بطبقة من الغبار . وفى آخر الفناء ، قام ذلك البيت المتوسط الحجم ، وكان لواجهته ست نوافذ ذات قضبان يحجبها الورد واللبلاب قليلا. وكان لهذا البيت بتهدمه وستاره السندسى قدر من جمال . وما لبثت « تريز » أن تبينت فيه حسن الانسجام ، وتوسمت فى هذا الاهمال الممتد من الجُدر المكسوّة لبلابا الى زجاج المشغل المعتم وشجرة الجنّار المنحنية تنثر قشورها على عشب الفناء - روح الأستاذ ، المتهاون ، غير الحريص ، الذى يحمل بين جنبيه كآبة المتذمرين ذوى النزوات والبدوات . .

وفى سرورها انقبض صدرها لحظة إذ تحققت من عدم الاكتراث الذى يترك به محبها محيطه ، وعلى ما كان فى ذلك من الظرف والنبل كان فيه كذلك روح انفصال لا يتفق وطبعها الخاص، إذ كان على النقيض من نفسية « آل مونتسوى » النفعية ذات العناية . ثم تمنت على دهرها لو تدخل الى هذا المكان الموحش روح النظام من دون ان تتلف ملاحته الشعرية . إذاً لفرشت الممشى بالرمل ، وغرست فى الركن الذي تسقط عليه الشمس بهجة الأزهار ! ونظرت بعطف الى دمية تمثل (فلورا) ملكة الربيع راقدة على الأرض ويداها الى جانبها . وعنّ لها أن ترفعها وتضعها على قاعدة منقوشة بالأكاليل كانت قد رأتها فى متجر عاديات .

وكان « دى شارتر » يرقب منذ ساعة محضرها ، فاستخفّه

الفرح وإن كان القلق ما برح يسومه سوء العذاب . فنزل الدرج ليلقاها . فوقفت فى ظل الدهليز الرطب حيث كان يحسّ من يقربه ما في داخله من فاخر تماثيل البرنز والمرمر ، ووقفت متصدعة من ضربات قلبها التي تدق سراعًا فى صدرها . فضمها اليه ، وقبلها قبلات طويلة . فسمعته فى تأثرها وطنين أذنيها يذكّرها متع اليوم الماضى ولذاته الباغتة ، فعادت فقامت أمام ناظريها صورة السبع الأفريقي المرسومة على سجادة غرفة السرير ، وردّت الى « چاك » قبلاته بأناة لذيذة . . .

فصعد بها من سلم خشبية الى حجرة كبيرة كانت فيما مضى مشغل أبيه ، وأتخذها هو للرسم وصنع المُثُل ، وللقراءة بخاصة ، فقد كانت القراءة عنده بمثابة الأفيون ، توحى اليه الصفحة المفتوحة الأحلام . فقادها الى أريكة واسعة واطئة على وسائدها أغطية أندلسية فاخرة وحال استانبولية ، لكنها جلست في مقعد مريح ، فقال :

— أهي أنت ! . . أنت هنا ! . . أنت حسبى ! . . فليأت الموت اذاً ! !

فأجابت :

— لقد استعرض فكرى فيما مضى فناء الكون ، ولم أخش ذلك الفناء ، الذى وعدنى به المسيو « لاجرانج » متظرفًا ! فبقيت

فى انتظاره . . يالله ! لشدّ ما كنت قبل أن أعرفك ملولا نافدة الصبر ضائقة الصدر !

ونظرت حولها الى المناضد المحملة أوعية زهر ، ودمى ، والى الديباج الموشّى ، والى مجموعة الأسلحة الفخمة اللامعة ، والى الزخارف ، والمرمريات ، والصور ، والكتب القديمة ، وقالت :

— ان لديك أشياء جميلة .

— جُلها لأبى ، الذى عاش فى عصر جمع التحف الذهبى .

على أنها كانت متلهفة على شىء لم تجده فأسقط فى يدها ، فقالت :

— انى لاأرى هنا شيئًا من صنعك ، فلا تمثالا ولا نقشا ، ولا شكلا من أشكال الشمع المرغوب فيها كثيرا فى بلاد الأنكليز ، ولا دمية رقيقة ، ولا لوحا أو مسكوكة واحدة !

— وكيف يخطر لك أننى أحتمل العيش وسط ماصنعت يداى ؟!؟ إنى أعرف أشكالى حق المعرفة ، وهى تضايقنى . ومالا سرّ فيه يخفيه فلا جمال له يبديه !

فنظرت اليه متظاهرة بالكيد منه ، وقالت :

— انك لم تذكر لى قط ان الشىء يفقد جماله عندك إذا لم يعد له سر يكتمه عنك .

فأخذها بخصريها ، قائلا :

— إن لكل حي سرًّا معمًّى ! وأنت عندى ياحبيبتى لغز

سحر الغرام

غير محلول ، فيه لذات الحياة وأهوال المنون، فلا تخشى أن تكونى لى . فسأظل أنشهاك أبداً ، وسأظل أجهلك أبد الدهر . وهل نال أحد يوماً من يحبه ؟ ؟ هل القبلات والملاطفات والمعانقات غير جهد يأس لذيذ؟ ؟ إننى إذ آخذك بين ذراعيّ لا أفتأ باحثاً عنك مشوقاً اليك . ولن أنالك أصلا ، ما دمت أريدك وما دام مرادي منك هو المستحيل استحالة مطلقة . . أما ما أنت فعلمه عند ربى .

أفتحسبين أننى أعد مثالا لأننى صنعت بضعة أشكال عادية ؟! أولى ثم أولى أن أكون حزباً من شاعر أو فيلسوف يبحث في الطبيعة عن مسائل ستبقى حيرته وعذابه . أن الشعور بالأشكال لا يكفينى ، ورفقتى المثالون يضحكون منى لأننى لا أقدر أن أكون بسيطاً مثلهم وهم محقون . وذلك الحيوان «شولت» محق أيضاً . وصاحبنا اسكاف « سانتا ماريا نوڤلا » الذى لا يعرف شيئاً من كل ما قد يجعله يظنى أو يشقى هو استاذ فى فن الحياة . فينبغى لى أن أحبك بالبساطة المطلقة البريئة من تلك النظريات الغرامية التى تحيلنى باطلا وتجعلنى سخيفاً . وليس خيراً للانسان من الجهل والنسيان . فتعالى ، إلي ، فلشد ما فكرت فيك قاسى الفكر فى عذاب بعادنا . . فإلىّ ياحبيبتى ففيك وحدك أستطيع أن أنسى نفسى وأنساك !

وأخذها فى حضنه ، ورفع حجابها ، وقبل ثغرها . فجزعت

قليلا من خشية هذا البهو الكبير الغريب عنها ، كأنما ضايقتها الكائنات الأجنبية منها . فأسدلت على وجهها حتى ذقنها خمارها التُّل الاسود ، وقالت :

— هنا ؟ إنك لا ريب ساه !

فقال لها انهما وحدهما ولا ثالث لهما . فقالت :

— وحدنا ! . . وذلك الرجل ذو الشوارب المخيفة الذى فتح لى الباب ؟ ؟

فابتسم قائلا :

— ذلك « فوزلييه » خادم أبى القديم . ومنه ومن زوجه يقوم بيتى . فاطمئنى . إنهما فى مسكنهما ، مخلصان على سوء خلقهما ، وسترين « مدام فوزلييه » ، وهى مقرَّبة . . فاحذرى ! . . .

— لكن يا صديقي كيف تكون شوارب هذا المسيو «فوزلييه» وهو بواب ووصيف مائدة ، كشوارب التتر ؟ ! !

— لقد نفحته الطبيعة إياها يا حبيبتى ، فتركتها له عن طيب خاطر ، وانى ممتن لما هو عليه من منظر (باشجاويش) على المعاش عاد شتَّالا . . لأنه يلقي في روعى أحيانًا أنه جاري الريفي ! . .

وجلسا فى ركن من الإيوان ، فجذبها على ركبتيه ، وراح يقبلها قبلات ردَّتها اليه . .

ثم نهضت بسرعة ، قائلة :

— أرنى بقية الغرف ، فأنى متشوّفة ! أريد رؤية كل شيء !

فسار بها الى الدور الثانى ، وكانت تغطى حائط الممشي ألواح مصورة بالألوان بريشة « فيليب دى شارتر » . ففتح بابًا وأدخلها حجرة أثاثها من خشب الورد . وتلك كانت حجرة امه . وقد احتفظ بها أشد احتفاظ كما كانت فى أمسها الغابر ، الماضى الذى يؤثر فينا وحده حقًا ويحزننا . . وعلى أنه مضت عليها تسع سنين وهي غير آهلة لم يكن يبدو عليها أنها استسلمت بعد الى الوحشة . . فمرآة المشجب كانت ترقب نظرة السيدة العجوز . وعلى ساعة حائط دمية تمثل « سافو » مفكرة مهمومة عليها مخايل العجز والقنوط لأنها لم تعد تسمع حركة رقّاص الساعة . . وكان على الحائط صورتان احداهما « لفيليب دى شارتر » ، شديد شحوب الوجه ، أشعث شعر الرأس ، زائغ البصر فى حلم روائى ، وملء فمه البيان والسحر ودماثة الأخلاق . والأخرى لسيدة مشتبهة العمر ، تكاد تكون جميلة فى هزالها الفوّار . وهى مدام «فيليب دى شارتر» .قال چاك :

— إن حجرة امى المسكينة هى مثلي ، تتذكّر . . . .

فقالت تريز :

— ما أشبهك بأمك.فان لك عينيها. وقد أخبرنى «پول ڤانس» أنها كانت تعبدك . . . .

فأجاب مبتسما :

— أجل ، كانت أمى شائقة ، زكية ، سليمة الذوق ، ولكن غير ذات رأى راجح . فان حبها الأمومى كثيراً ما بلغ حدّ الجنون . فلم تكن تدعنى لحظة واحدة مستريحًا . لقد نغّصت عيشها ونغّصتنى .

فنظرت « تريز » الى دمية من البرنز موضوعة على المشجب ، فقال « دى شارتر » :

— هذا التمثال هدية من نابليون الثالث ، وكان من عادة والدىّ زيارة « كومبين » ، وبينا كان البلاط فى « فونتنبلو » رسم أبى القصر ، فأتى الامبراطور فى الصباح مرتديًا بذلته « الردينجوت » وفى فمه غليونه ، ووقف بالقرب منه ، كأنه الطائر الأكتع حطّ على صخر . . . وكنت حينذاك تلميذاً بمدرسة بونابرت . وكنت أصغى الى تلك القصص على المائدة فلم أنسها قط . وكان الامبراطور يقف هناك هادئًا وادعا ، وربما قطع سكوته الطويل ببضع كلمات تختنق تحت شاربه الثقيل . ثم يتحمس قليلا . . ويبسط آراءه فى الآلات لأنه كان ميكانيكيًا مبتدعًا . ثم يخرج قلمه الرصاص من جيبه وينشىء يرسم أشكالا على رسوم أبى اليائس المغموم . فكان يتلف على هذه الطريقة رسمين أو ثلاثة فى كل أسبوع . . وكان يحب أبى كثيراً ووعده بوظائف ورتب غير أنه لم ينجز منها عدة ، وكان الامبراطور رضيّ الخلق ، وإن لم يكن ذا نفوذ ، كما كانت امى تقول . وفى ذلك العهد كنت صبيًّا ، وما زال فى نفسى من حينها شعور

عطف مبهم على ذلك الرجل الذى كان على قلبه الرحيم الكريم يعوزه النبوغ . وقد سلك إبّان تقلبات الدهر وصروف الزمان مسلك الشجاعة الساذجة ، مع الإيمان الظريف بأن المكتوب على الجبين تراه العيون . . .

وكذلك أثار عطفى عليه ما قام ضده من المعارضة وما رُمى به من سباب مصدرها أولئك الذين كانوا يريدون أن يشغلوا مكانه وليس لهم حتى ولا حبه الشعب . ورأيناهم مذ ذاك قابضين على زمام السلطة . فأف لهم ! ما أخسّهم ! . . خذى مثلا ذلك العضو فى مجلس الشيوخ « لوبيه » فقد كان وهو فى قاعة التدخين بمنزلك يحشو جيوبه باللفائف ويدعونى لأفعل فعله (لندخن فى الطريق) ! . . . و « لوبيه » هذا رجل خبث وشر ، قاس على التعساء والضعفاء والفقراء . ثم « جران » ؟ أفلا يستثير نفورك ؟ لعلك تذكرين يوم تناولت الطعام فى بيتك أوّل مرة ودار الحديث حول نابليون . وكان شعرك معقوصا بشكل بديع ، فوق منبت الشعر من نحرك ، عقصة واحدة مغروسة بسهم من الماس . . وتكلم « پول ڤانس » بلباقة وحذق . فلم يفهم « جران » . . وسألتنى أنت عن رأيى . . .

— ذلك أننى أردت لك الظهور ، فقد كنت أتسلّف الفخر بك ! . .

• •

— أوه ! . . ما كنت لأستطيع أن أقول جملة واحدة في حضرة مثل أولئك القوم الجادين. ومع ذلك كنت أود لو أقول أن نابليون الثالث يروقني اكثر مما يروقني نابليون الأول ، لأنه كان أقل هياجًا ، و بالحرى اكثر إنسانية . . لكن لعل تلك الكلمة كانت تحدث أثراً سيئًا . على أنني لست محرومًا كل موهبة فأعنى بالسياسة !

وكان يدور فى الحجرة ناظراً الى الأثاث بميل وعطف . ثم فتح درجا فى المكتب وقال :

— دونك عوينات أمى . إليكها . ما أكثر ما كانت تبحث عن هذه العوينات ! . . . والآن سأريك حجرتى ، واذا لم تكن مرتَّبة فاعذري « مدام فوزليه » التى أمرتها أن تحترم إهمالى !

***

كانت ستائر النوافذ مرخاة ، فتركها كذلك . و بعد ساعة ، أزاحت هى ثنيات الحرير الأحمر فبهرت عينيها أشعة الضوء التى سطعت على شعرها المنفوش . . فبحثت عن المرآة ، فلم تجد غير مرآة ڤينسية ، كابية فى إطارها الاسود الكبير ، فوقفت على إخمص قدميها لترى نفسها ، وتساءلت :

— أهذه أنا ، ذلك الطيف المظلم البعيد ؟ ؟ ان اللواتى وقفن أمام هذه المرآة رأين أنفسهن فيها كما أرى نفسى . فما أبشع إرضاءك من تناهن بتحويلهن على نحوى إلى ظلال كئيبة ! !

ثم اعتراها هاجس فجأة فصاحت :

— ربّاه ! ماذا يظن فىّ مسيو « فوزلييه » وزوجته ؟

و بصرت على الحائط بدمية من صنع «دى شارتر» تمثل صبية من بنات الشوارع لعوب فاجرة ، فسألت :

— ما تكون هذه ؟

— هذه « كلارا » الصغيرة بائعة الجرائد بشارع دمورس . وكانت تحضر لى صحيفة « الفيغارو » لمطلع كل صباح . وكان على خديها طابعا حسن خُلقا عُشّين للقبل . . .

فقلت لها يوماً: « أريد رسم صورتك» . فجاءت صبيحة يوم من أيام الصيف ، مزيّنة بالاقراط والخواتم المشتراة فى سوق « نوابى ». ثم اختفت فلم أعد أراها . ولا أدرى ما جرى لها . لقد خُلقت مسوقة بفطرتها لتكون فاجرة كبيرة . . أفتريدين أن أرفعها ؟

— كلا ، فدعها ! إنها حسنة المنظر فى هـذا الركن ، ولست غيورا من كلارا !

. . . . . .

حان وقت عودتها الى بيتها ، لـكن لم يكن قد استقرّ بعد عزمها على فراقه ، فطوّقت بذراعيها عنق حبيبها ، وقالت :

— آه ! أحبك ! أنك كنت اليوم ضاحك السنّ منشرح الصدر . . . ولله ما أبهى سرورك ! إنه متألّق . . رشيق . . فليتك تكون دائمًا مسروراً ! فأن حاجتى الى الفرح تكاد تَعْدل حاجتى الى الحب . . ومنذا الذى يمنحنى الفرح إن لم تمنحني أنت إيّاه ؟ !

٢٧

مضت على « تريز » ستة أسابيع منذ عودتها الى باريس ، وكأنها كانت تعيش فى غفوة حارّة من الهناء ، وحلت عندها الأحلام السعيدة محل الفِكرَ . وكانت تلقى « جاك » كل يوم فى بيته الصغير . فاذا جاء المساء ، وانتزع كل منهما نفسه من صاحبه آخر الأمر ، ذهبت حاملة فى قلبها تذكارات غرامها المعبودة . اما تعبها اللذيذ واشتهاؤها المتجدد فقد ربطا ساعات الهوى بعضها ببعض . وكانا فى الأذواق صنوين . تملكهما مشاعر واحدة وتصورات واحدة ، وتحملهما معا أجنحة الأهواء الواحدة . وكان يسرها أن يجوسا خلال الأصقاع الخلوية البهيجة الخفية فى ظاهر المدينة ، وأن يغشيا الشوارع حيث الحانات الملوّنة حيطانها بلون عكارة النبيذ ، المظللة بأشجار الطلح . والطرقات الحجرية التى ينمو العوسج فيها على سفل الجدران . والغابات الصغيرة ، والحقول التى تمتد فوقها سماء شفّافة يخططها الدخان المتصاعد من مداخن المصانع . وكانت « تريز » سعيدة بأحساسها إياه قريبًا منها فى هذا الريف حيث أنكرت ذاتها وأطلقت خيالها فأحست أنها فقدت مع صاحبها نفسها ...

فى ذلك اليوم بدالهما أن يركبا الزورق الذى طالما رأته يمر تحت نوافذها . ولم تخف أن تُعرف . فلم يكن الخطر كبيراً ، فقد أغفلت كل محذور مذ عرفت الهوى . . « وصريع كل هوى صريعْ

هوان » ! . ورأيا الشواطىء تضحك هاربة من قحولة الضواحى المتربة . وجانبا الجزائر ذات الغياض التى تظلل أشجارها حانات الأطراف ، والزوارق التى عداد الحصى مربوطة تحت الصفصاف . فنزلا عند « ميدون » السفلى . وإذ قالت أنها ظمآنة حرَّى أدخلها من باب جانبى حانة فيها غرف مفروشة . وكانت بناء ينوء بالشرفات الخشبية ، جعله الفراغ يبدو أكبر مما هو ، وكأنه نائم فى سلام الريف منتظرا يوم الأحد أن تملأه ضحكات الصبايا ، وصيحات المتنزهين ، ومجذفى القوارب ، ورائحة الطهى ، ونَشْنَشَة السمك المقلى.

فرقيا درجات على شكل سلم طقطقت تحت أقدامهما ، وخلصا الى حجرة فى الدور الأول حيث واقتهما خادم بنبيذ و بسكويت .

وكانت ستر من الصوف تغطى سريراً من خشب « الأكاجو ». وفوق المصطلى الذى يشغل ركنا من الحجرة علّقت مرآة بيضاوية الشكل فى إطار برسم الزهر . وكان يرى من الشباك المفتوح نهر السين بشاطئيه الأخضرين ، وتلوح الربى البعيدة كأنها تسبح فى الجو الدافىء ، والشمس تجنح إذ ذاك الى قمم أشجار الحور ، والبعوض يرقص جماعات على ضفة النهير . وكان سلام المساء الصيفى الراجف قد شمل السماء والأرض والماء جميعاً .

فنظرت « تريز » طويلا الى النهر يعب عبابه ، وقد مخر الفلك يدق رفاصه الماء دقاً ويشقه شقاً ، والزخير يترامى على الساحل

فيهزّ البيت القائم على الضفة هزًّا كما لو كان زورقا . . فالتفتت الى حبيبها وقالت :

— إنى أحب الماء . . يا فرحًا بسعادة حالى وهناء بالى !

وتلاقت شفاههما .

ثم غاصا في لجة من يأس الغرام المسحور . فلم يلحظا مرور الوقت عليهما ، الاّ من صوت تكسر الأمواج تحت الشباك الموارَب ، عقب مرور الزورق فى كل عشر دقائق . وكانت ثيابها المنزوعة بنافذ الصبر ملقاة بلا مبالاة على أرض الغرفة الخشبية . فرفعت رأسها عن الوسادة ، ورأت فى المرآة جسمها الغضّ العارى ينازع الزهر بهاءه والبدر سناءه . فأجابت عن عبارات الثناء التى نثرها عليها صاحبها بلسان غرامه قائلة :

— ومع كل . . . فخمًا اننى قد خُلقت للحب ! . . .

وفي حسّ صادق بسلطان جمالها ، تأملت شكل قدّها ، وصورة وجهها ، على النور الأرجوانى الذى زاد الورد الشاحب أو القرمزى — ورد خديها وشفتيها ونهديها — زهوة ونضرة . . . وقالت

— أهوى نفسى لأنك تهوانى !

انه قد هويها بيقين . ولم يكن فى وسعه أن يفسر لنفسه لمَ كانت محبته لها شفقة لاعجة وضربًا من الهيـام المقدس . . . إن محبته لم تكن بسبب جمالها ، و إن كان مع ذلك أندر وأثمن ما يكون

عليه الجمال الأنثوى . لقد كان لوجهها أسارير . بيد أن الأسارير تتبع الحركة وهى دائمًا فى هروب . تغيب وتبدو . تُفتقد ثم توجد ... مدعاة لفرح علم الجمال تارة أو قنوط فلسفة الفن تارة أخرى . . إن الأسارير الجميلة هى البرق الذى يشعل العين بالنار الآكلة اللذيذة. فأنت ترغبها . . وأنت ترهبها . . لأنها داعية الاعجاب ودعوة العذاب . وإن ما يحتثّ قوادم الاشتهاء والحب انما هو قوة حلوة مروعة ، أقوى من الجمال وأشد بأسًا وبطشًا . فقد تجد امرأة واحدة من بين ألف امرأة اذا نلتها مرة لا تستطيع قط أن تتركها . . فتشتهيها دائمًا ، وتريدها أبدا . إنه زهر لحمها سبب هذا الداء ، داء الحب ، الذى ليس له دواء . وهناك سبب آخر لا تفسير له ، وهو روح جسمها . إنها كانت تلك المرأة التى لا يمكن هجرها ولا خيانتها فى غيرها .

صاحت هذه اللعوب وهى طروب :

— قل ! أليس هجرى غير ميسور ؟

ثم سألته ، ماباله لا يصنع تمثالها النصفي ما دام حسنها يروقه .

— لماذا ؟ لأننى لست إلاّ مثّالا متوسطا ، كما أعرف ، وليست معرفتى بهذا من عقل متوسط ! على أنك إذا أصررت على اعتبارى مثّالا عظيما فلدى أسباب أخر . فلكيما يخلق شكل فيه نسمة الحياة يجب معاملة المِثَال باعتباره مادة دنيئة تُسحق وتُسبك حتى يُستخرج

منها أوفى معانى جمالها . وليس فى شكلك ولا فى جسمك ولا فى كيانك كله إلا ما هو عزيز علىّ . فأذا أخذت فى صنع مثالك ، أتنبه انتباهًا خسيسًا الى هـذه التوافه ، التى هى عندى كل شىء ، لأنها شىء منك . ولا طاقه لى بذلك ، ولا حيلة لى فى الوصول الى استكمال التناسب ، وهو قوام العمل .

فنظرت اليه بشىء من الدهشة ، فاستطرد قائلا :

— ولا أقول أن الحال يكون كذلك إذا كان النقل عن الذاكرة . ولقد حاولت الرسم بالقلم الرصاص محاولة أحملها معى على الدوام . . .

فلما أصرّت على رؤيتها ، أراها إيّاها . وكانت على ورقة من « ألبوم » تخطيطًا بسيطًا جريئًا . فلم تعرف فيـه صورتها أصلا ، ووجدته خشنًا ، ذا ملامح غريبة عنها . . فأنكرتها :

— آه ! أهكذا ترانى ؟ أهذا مبلغ تأثيرى فيك ومبلغ إيحائى ؟

فأطبق « الألبوم » قائلا :

— كلا ، ان هـذه محض تذكرة ، إنها سِمَة ، ليس إلاّ . . . بيد أنى أظن السِمَة صادقة . ومن المحتمل انك لا ترين نفسك مثلما أراها تمامًا . فلكل كائن ذاتية تختلف باختلاف من ينظرون اليه .

وأردف بضرب من الابتهاج :

— ويمكن القول ، من وجهة النظر هـذه ، بأن المرأة ذاتها لا تكون قط خليلة رجلين . وهذا رأى پول ڤانس.

فقالت « تريز » :

— هذا صحيح !

ثم سألت :

— ما الساعة الآن ؟

كانت السابعة ، فاستعجلته فى الخروج ، فهى فى كل مساء يزداد تأخيرها فى عودتها الى البيت . ولاحظ ذلك زوجها ، فقال : « اننا دائماً فى كل عشاء آخر من يصل.. وهذا كتابٌ محتوم ! » لـكنه هو نفسه كان كثيراً ما يتأخر ، لما يعوقه فى قصر البوربون (مجلس النواب) حيث كانت تُناقش الميزانية . وقد شغله عمل اللجنة الفرعية التى عُيّن مقرراً لها . وهكذا غطت الاسباب الحكومية على عدم مواظبة « تريز ». وتذكرت مبتسمة مساء وصولها الى دار « مدام جران » فى منتصف الساعة التاسعة ، وكانت تخشى حدوث ما لا تحمد عقباه ، على أن ذلك اليوم كان يوم الاستجواب العظيم فى البرلمان . فعاد زوجها من المجلس فى الساعة التاسعة بصحبة « جران » . وتعشيا دون أن يغيرا ملابسهما . وقد أنقذا الوزارة !

ثم راحت تفكر وتقول :

— لن أجد يا حبيبى عذراً انتحله للبقاء فى باريس اثناء العطلة

البرلمانية ، فأن أبي لا يفهم الآن الولع الذى يستبقينى هنا ، ولا مفرّ من اللحاق به فى « دينار » فى خلال ثمانية أيام . فما عسى أن يكون حالى بدونك ؟

وشبكت يديها ونظرت اليه بحزن لا حدّ لحنانه ، لكنه كان أشد اكتئاباً بل كان من أمره فى غُمَّة لامتجه للرأي فيها ، فقال :

— إنه أنا يا تريز ، أنا الذى يجب أن أسأل نفسى ما يكون مصيرى من غيرك . . إنك عندما تتركينى وحدى ، تحاصرنى الخواطر المحزنة ، وتأتى الأفكار السود فتحفّ من حولى .

فسألته ، وما هذه الأفكار ؟ فأجاب :

— اننى يا حبيبتى قد قلت لك ذلك من قبل ، إنه يجب أن أنساك فيك ، فاذا ما ذهبت عنى ، جاءت ذكراك تعذبنى ، وعلىّ عدلاً أن أؤدى ثمن ما تمنحيننى من سعادة .

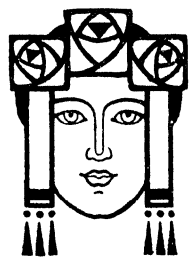

٢٨

كان البحر الأزرق ، الذى تتخلله شعب وردية اللون ، يصب لجته الفضية برفق على رمال الساحل الناعمة الممتدة على طول الجون المنتهى بشبه قرنين من ذهب . .

وكان اليوم صحوا، حَسَرت فيه الشمس قناعها وذكت ذكاء .. وفى حجرة تعطرها الزهور ، ذات شرفة مطلة على حديقة يفوح منها أريج الإثل والآس ، ووراءها المحيط بشاطئه وجزره وخلجانه جلست « تريز » تقرأ الرسائل التى ذهبت فى طلبها فى الصباح من مكتب بريد « سان مالو » ولم تشأ أن تفتحها في المعدّية الغاصة بالركاب . .

وقامت بعد الغداء من فورها فأوصدت حجرتها على نفسها ، ثم نشرت رسائلها على ركبتيها وقرأت متلهفة ، متذوقة بسرعة شرهة فرحها المختلس المنهوب . . . وكان عليها فى الساعة الثانية أن تخرج للنزهة فى عربة البريد مع أبيها وزوجها والأميرة « سينافين » « ومدام برتيه ديزل » زوج النائب المعروف ، « ومدام رايمون » زوج عضو الأكاديمى ، وكانت قد تلقت فى ذلك النهار خطابين ، تلت أولهما فكان يتضوّع منه عبير فرح الهوى، ولم يلح لها «جاك» قط أشد مما لاح لها منه فَرَحا و بساطة وهناء وفتنة . .

فقال انه مذ أحبها وهو يسير بخفة ورفعة الى حد أن قدميه تكادان لا تمسّان الارض ... وما كان جزعه الا لشيء واحد ، هو أن يكون حالما . فاذا استيقظ ألفى نفسه مجهولا منها . . أجل ! أنه لا بد حالم ! وأى حلم ! بيت شارع الفيبرى الصغير ، وحانة ميدون ، والقبلات ، وذانك الكتفان الآهيان ، وكل ذلك الجلد الذى يضحك فوقه « طابع الحسن » ، وذلك البدن الرَّخص الرطب المعطَّر كجدول يسيل بين الأزاهير . فاذا لم يكن حالما ، فهو النؤوم المستيقظ . . السكران الذى يغنى . . .

ولقد خرج لحسن الحظ من عقله ، وكانت على غيابها لا تفارق بصره : « أجل ، انى أراك بقربى ، وأرى أهدابك مرسلة على عينيك أشد بهاء من كل زرقة فى الزهر أو فى السماء ... وشفتيك اللتين لهما لحم وطعم أشهى من الفاكهة العجيبة ، وخديك اللذين وضع الضحك فيهما غمّازتين معبودتين . أراك جميلة ومشتهاة ، لكنك هاربة مختفية ، فاذا فتحت ذراعىّ ، وجدتك قد ذهبت ، وتبينتك بعيداً ، بعيداً جداً على الضفة الصفراء الطويلة ، لا تزيدين وأنت فى ثوبك الوردى وتحت مظلتك على برعم مزهر من الخَلَنْج . أوّاه ! . . صغيرة ، كما رأيتك يوماً من قمة برج الناقوس المشرفة على ساحة القبة بفلورنسا : وأقول كما قلت يومها لنفسى : « ان قشّة من

العشب تكفى لحجبها عنى تماماً ، ومع ذلك فهى عندى أبد الفرح والترح » .

وكان كل ما يشكو منه عذاب البعاد ، وكذلك مزج بشكواه بسمات الحب الهنىء . وهددها ممازحا بالذهاب لمباغتتهـا فى « دينار » . .

« لا تخافى ! . . فلن يعرفونى . . فسأتنكر فى زى بائع تماثيل جص. وليس فى هذا افتآت . وسأرتدى سترة رمادية وسروالا من الـكتان ، يغطى لحيتى ووجهى عثير أبيض ، وسأقرع جرس الباب الخارجى لقيلا مونتسوى . فتعرفينى يا تريز من التماثيل الصغيرة التى تملأ لوحا أحمله على رأسي . وستكون كلها تماثيل « الحب » . فيكون فيها الحب الوفى ، والحب الغيور ، والحب العطوف ، والحب المتيم . وسيكون معى الـكثير من تماثيل الحب المتيَّم. وسأصيح بلهجة فنانى « بيزا » أو « فلورنسا » قائلا :

Tutti gli Amori per la signora Teresina !

« كل حبى للسنيوره تريزه ! »

وكانت آخر صحف هذا الـكتاب رقيقة جامعة ، وقد فاضت بالتعبدات الحارة التى أذكرت « تريز » كتب الصلوات التى طالعتها وهى طفلة .

« أحبك ، وأحب كل شيء فيك : الافاريز التى تحملك ، وتجملك .. والنور الذى عليه أتبيّنك : . أحب شجرة الجنّار المنحنية فى ساحة بيتى ، لأنك قد رأيتهـا . . . والليلة تنزهت فى الطريق الذى لقيتك فيه مساء يوم من أيام الشتاء ،وقطفت غصناً من البقس الذى كنت قد نظرت اليه . . انى فى هذه المدينة التى لا تحتويك لا أرى سواك . فلم يَحْلُ للعينين بعدك منظرُ ! » .

وقال لها ختاماً،أنه سيذهب للغداء خارجا فان الحَلَّة قد كُمئت فى غياب مدام « فوزليه » التى ذهبت الى « نيڤير » مسقط رأسها، وسيذهب الى حان فى شارع رويّال اعتاد التردد عليه . وهناك ، وسط لجب الجمهور ، سيكون وإياها على انفراد ! . . . »

فذهب فؤاد « تريز » فى أثر هذه الملاطفات الخفية ، فأغمضت عينيها ونكست رأسها على مضطجعها .

وإذ سمعت دوى عربة البريد وهى آتية تقف بالبـاب ، فتحت الخطاب الثانى ، فقلقت لما رأت من تغير الخط ، وطلوع السطور ونزولها ، وأبصرت الصفحة تشف عن حزن وعنف .وكانت الفاتحة الغامضة تنمّ عن غصة باغتة ، وشكوك مظلمة . . « تريز ! تريز ! تريز ! لماذا كنت لى مادمت غير قادرة على موهبة نفسك كلها بأسرها ؟ ماذا يكون أمرى وقد خدعتنى ، الآن إذ أعرف ما لم أكن أشاء معرفته ؟ »

فتوقفت . وضربت على بصرها غشاوة ، وقالت فى نفسها: لقد كنا الآن سعداء حقّ السعادة ! ربّاه ماذا جرى ؟ كنت أنعم بفرحه فاذا به أثر بعد عين ! فالأولى عدم الكتابة ، ما دامت الرسائل لا تعبر الاّ عن مشاعر زائلة وخواطر حائلة .

ثم قرأت . وقرأت أنياب الغيرة تمزقه شر ممزق. فقنطت وقالت:

— اذا لم أكن قد برهنت له بكل قواى على محبتى وعلى اننى أحبه بكل نفسى ، فكيف السبيل الى إقناعه يوما ؟

وخفّت الى استجلاء سبب هذه الحماقة الداهمة . . فأخبرها بها « جاك » : « بينا كان يتغدى فى حان بشارع رويال التقى وصاحبا قديمًا كان مارًّا بباريس فبدآ يتحادثان ، وشاءت المصادفة ان هذا الرجل الواقف على دخائل الناس ، يذكر الكونتس مارتن التى يعرفها ، وقطع جاك حديثه فجأة بقوله : تريز ! تريز ! فيم الكذب على ما دمت سأعرف حتما يومًا ما كنت أجهله وحدى ! على أن الذنب ذنبى اكثر مما هو ذنبك . . وخطابك الذى وضعته فى صندوق بريد سان ميكيل ، وموعدك فى محطة فلورنسا قد أنذرانى بما فيه الكفاية ، لو انى لم استسلم استسلامًا أعمى الى أوهامى ، مع جلاء البينة ونصاعة البرهان .. فقد أبيت ، نعم قد أبيت معرفة انك كنت لرجل آخر فى اللحظة التى تعطيننى فيها نفسك بذلك اللطف الجسور ، ذلك الاشتهاء الكامل الذى سألقى منه حتفى . . لقد

آثرت التجاهل . . ولم أسألك تفسيراً خشية الا تجدى سبيلا الى الكذب . وكنت فطنا حتى جاء أحمق على حين غفلة ، وفى غلظة ، وأمام خوان مطعم ففتح عينى وعرفنى به وأنى راغم ! أواه ! الآن إذ أعرف ، الآن إذ لا أجد بعد محلا للشك يخيل الى أن الشك كان لذيذاً ! وقد فاه بالاسم ، الاسم الذى سبق أن طرق سمعى فى فيزول ، على لسان « مس بل » ، وأردف قائلا :

« تلك حكاية معروفة » .

« أكذا أحببته ، وما زلت على حبه ! وفى حين انى وحدى ؛ أعض الوسادة التى توسَّدها رأسك ، قد يكون هو بقربك ! ليس ريب فى أنه بقربك ! فهو يذهب دائمًا الى سباق الخيل فى دينار ، كما قيل لى . انى أراه ! انى أرى كل شىء ! ولو عرفت التصورات التى تلازمنى لرميتنى بالجنون ، ولأشفقت على ورثيت لحالى ، أواه ! لشد ما أتمنى نسيانك ، أنت ، ونسيان كل شىء ! لكننى لا أستطيع . وأنت تعرفين اننى لا أستطيع أن أنساك الا فيك . . انى أراك ملازمة له كظله . . فيا للعذاب ! حسبت نفسى تعسًا فى تلك الليلة ، التى تعرفين ، على شاطىء الأرنو . . لكننى حينذاك لم أكن عرفت بعد معنى الألم » .

ولما فرغت « تريز » من قراءة هذه الرسالة ، ناجت نفسها

قائلة : « إنها كلمة أُلقيت اتفاقاً فأدّت به الى هذه الحال . إنها كلمة رمت به فى ظلمات القنوط ومهاوى الجنون . . . »

وتساءلت عمن يكون ذلك الشقى الذى ذكرها بمثل ذلك السوء . واشتبهت فى شابين أو ثلاثة كان قد قدمهم لومنيل اليها فيما مضى محذرا أياها منهم . . وأصابتها نوبة غضب قارصة من تلك النوبات التى ورثتها عن أبيها ، وقالت لنفسها « سأعرف ! » لكن ماذا تفعل فى فترة الانتظار ؟ إن صاحبها كان آيسا مهوسا مريضاً وليست تستطيع الاسراع اليه ، ومعانقته ، والقاء نفسها بين ذراعيه تاركة جسمها وروحها له باستسلام تام الى حد يشعر معه انها كانت له بأسرها وإلى حدّ أن تكرهه على الوثوق بها . . .

تكتب ! .. لكن ما أفضل الذهاب اليه ، والسكون الى فؤاده فى صمت ، وبعد ذلك تقول له : اجرؤ على الظن بأنى لست لك وحدك !

بيد أنها لا تستطيع غير الكتابة اليه ، وما بدأت رسالتها حتى سمعت أصواتا وضحكات فى الحديقة وكانت الأميرة سينافين تصعد عربة البريد ، فنزلت تريز ، وظهرت على الدرج هادئة باسمة . وكانت قبعتها المتخذة من القش متوجة بالاقاحى ، تلقى على محياها ظلا شفافا تتألق فيه عيناها الرماديتان . . .

فصاحت الاميرة سينافين :

— لله ما أبدعها ! ويا أسفا على أننا قلما نراها ! ففى الصباح تعبر النهر وتقفز الى شوارع « سان مالو » الضيقة . . وفى الأصيل تقصر نفسها فى حجرتها ، فهى تتجنبنا .

* * *

دارت العربة حول دائرة الساحل الكبرى أمام الفيلات والحدائق المصفوفة على سفح الأكمة ، وكان الى اليسار أسوار « سان مالو » ومنار كنيستها كأنه ناتىء من البحر الأزرق . ثم مرت العربة بطريق موشى بالشجر النضر كانت تسير فيه نساء من « دينار » على رءوسهن قلانسهن الكبيرة ذات الأجنحة المهفهفة من « الباتيستة »

فقالت مدام ريمون ديزل :

— لقد ذهبت الأزياء القديمة ، والذنب ذنب سكة الحديد ! . .

فقال مونتسوى :

— حقا ، فلولا سكة الحديد لظل الفلاحون يرتدون ملابسهم القديمة البديعة . . لكننا ما كنا لنراهم . .

فأجابت مدام ريمون :

— وأى ضيْر فى ذلك ! انّا كنا نتخيلهم !

فسألت الأميرة سينافين :

— أرأيت مرة مايدعو الاهتمام ؟ أما انا فما رأيت قط !

وكانت مدام رايمون قد اكتسبت من مؤلفات زوجها لمحات فلسفية ، فاكّدت أن ما من شيء له وزن الاّ الفكر .

فتمتمت الكونتس مارتن قائلة :

— نعم ! ان الناس لا يرون الاّ رأيهم ولا يتبعون إلا فكرهم .. ويمضون عمياً وكأن فى آذانهم وقرا ، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ، وليس من يستطيع أن يفقهم .

فقال الكونت مارتن ، الجالس قبالتها الى جانب الاميرة :

— لكن المرء ياعزيزتى ، بغير الافكار المرشدة ، يخبط فى حياته خبط عشواء . . .

***

وقطعت العربة المروج المحفوفة بالصفصاف ودرجت صعداً فى الآجام . . ثم عادت بهم الى القصر . فاعتذرت تريز بأنها تشعر بصداع فلا تستطيع تناول الغداء . وذهبت فاحتجزت نفسها فى غرفتها ، وأخرجت من صندوق حليها الخطاب المحزن وأعادت تلاوة الصفحة الاخيرة :

« ان فكرة انك كنت لغيرى تحرقنى وتمزقنى . وكذلك لا أحتمل أن يكون الغير هو ذاك ! . . »

تلك كانت فكرة ثابتة تلازمه . وقد كرر ثلاثا ، فى الصفحة الواحدة ، هذه الكلمات .

« — لا أحتمل أن يكون هو ذاك ! »

وكانت تريز ايضاً مأخوذة بفكرة واحدة : هى أن عليها الاّ تضيعه. وأن تقول كل شىء وتفعل كل شىء حتى لا تفقده . فجلست الى المنضدة وكتبت فى سورة عاطفة مشبوبة ملؤها الشجون ، رسالة كررت فيها القول كالنواح :

« إنى أحبك ، أحبك ، ولم أحب أصلا سواك . انك وحيد وحيد ، أفاهم انت ؟ وحيد فى فؤادى ، وحيد فىّ ! فلا تستمع قول ذلك الشقى واستمع قولى . واقسم لك انني لم أحب إنسانا قبلك »

و بينا هى تكتب ، كانت زفرات البحر المهولة تصاحب تنهدات صدرها . وقد أرادت أن تكتب الحقيقة ، واعتقدت انها تكتبها ، وكان كل ما قالته صادقاً بصدق حبها . وسمعت وقع اقدام ابيها الثقيلة الثابتة على السلم . فأخفت رسالتها وفتحت الباب . فسألها موتنسوى وهو يدللها و يمازحها ، أليست أحسن حالا . وأردف قائلا :

— أتيت أمسّيك بالخير وأسألك شيئا . يحتمل أن ألقى غداً «لومنيل» فى سباق الخيل لأنه يذهب هناك دائما ، فهو رجل صارت عاداته طبائع ثابتة . أفترين إذا لقيته يا بنيتى الحبيبة أن أدعوه الى المجىء

ليقضى بضعة ايام هنا ؟ فزوجك يظن انك تسرين برؤيته . ونستطيع أن نعد له الحجرة الزرقاء .

— كما تشاء . غير أنني أوثر أن نحتفظ بالحجرة الزرقاء « لبول ڤانس » ، الشديد الرغبة فى الحضور . كما يحتمل أن يأتى شولت دون سبق اعلان ، فتلك من عاداته . فلا نلبث أن نراه ذات صباح يدق جرس الباب الخارجى كأنه شحاث . وزوجي مخطىء فى زعمه اننى أستطيب عشرة لومنيل . دع أن لدىّ فى الاسبوع القادم ما يستدعى ذهابى الى باريس لقضاء بضعة ايام .

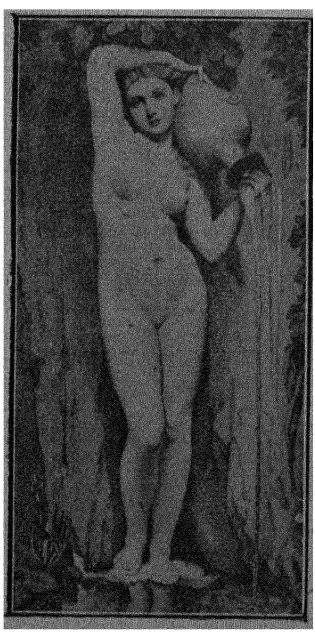

٢٩

بعد أربع وعشرين ساعة من تحبير تريز خطابها الى « دى شارتر » ، وصلت من « دينار » الى بيت « دى شارتر » الصغير فى حى «لوترن ». ولم تجد عناء فى اختلاق عذر لذهابها الى باريس وسافرت بصحبة زوجها الذى أراد زيارة ناخبيه بولاية «الاين » ، فبغتت جاك فى مشغله صباحًا ، بينا كان يصور صورة كبيرة لفلورنس على شاطىء الارنو تبكى مجدها القديم . وكان المِثال فتاة طويلة سمراء ، متخذة مكانها على كرسى مرتفع كثيراً بـلا مسند . وكان الضوء الساقط من النافذة على جسمها العارى قد زاد جلاء تقاطيعه وخشونة بشرتها وشحوب جلدها وعروق صدرها . .

فاستقبل « دى شارتر » الزائرة بنظرة ملؤها الغبطة الحزينة ووضع أداة الرسم جانبًا ، وغطى الصورة بنسيج مبلل ، وقال للفتاة المِثال وهو يغسل يديه فى آنية خزفية :

— حسبنا اليوم يا ابنتى .

فوثبت الى الارض ، وجمعت فى قبضة ثيابها القاتمة القذرة وقامت وراء الستر ترتديها .

ثم خرج « دى شارتر » و « تريز » من المشغل ، فقالت :

— انك لم تعد عند ظنك ، أليس كذلك ؟

فسار بها الى حجرته . وكان خطابها الذى ارسلته من « دينار» قد خفف نوعاً من وساوسه الأليمة . وقد أتاه فى عين اللحظة التى نهكته فيها الأوجاع المضنية ، فكان بحاجة الى الهدوء والحنان . فكتابة بضعة سطور قد سكّنت فائره وأخمدت ثائره . . ولكن ما زال في قلبه لوى وفى جسمه ضنى .

وفى الحجرة ، حيث يحادثها كل شىء ، وحيث الأثاث والستائر والبسط تبوح بحبها ، همست بألفاظ حلوة معسولة :

— انك قدرت على الظن . . فلست إذاً عارفاً قدر نفسك ؟.. انها كانت حماقة ! كيف يسع امرأة عرفتك احتمال رجل بعدك ؟

— وقبل ذلك ؟

— كنت من قبل في انتظارك !

— أو لم يكن فى سباق « دينار » ؟

فقالت انها لا تظن ذلك . ولكن المؤكّد انها لم تكن هى هناك . . فما أثقل ما تجد الخيل ورجال الخيل !

— حاك ! لا تخش انسانا فى العالمين فما لك من قرين !

أما هو ، فعلى الضد من ذلك ، قد تصاغرت عنده نفسه ، وتضاءل فى نظره شأن الانسان فى هذه الدنيا حيث الخلائق تضطرب كأنها الحبوب والتبن فى المنسف ، تتصل أو تنفصل بهزة من فلاح أو من إله ... و بدا له أن الناس كالحبوب فى حوض طاحون التبن

وقد خطر له ذلك أول من أمس حيال رؤيته مدام فوزلييه تطحن بنفسها .. فقالت تريز :

— لم حُرمتَ الكبرياء ؟

وأردفت كلمات قليلة ، لكنها تكلمت بلحظات عينيها ، بذراعيها ، بالأنفاس التى يعلو و ينخفض بها صدرها . . .

وفى غمرة الدهشة السارة من رؤيته إياها ، وسماعه صوتها ، استسلم اليها وخفض جناح المحبة . فسألته عمن قال ذلك القول الحقود . فلم يجد داعياً لأخفائه عنها ، فذكر «دانيل سلمون» . فلم تدهش لأن دانيل سلمون هذا الذى أخفق فى أن يكون محبوب أية امرأة أراد على الأقل أن يحظى بمودة جميع النساء وأن يعرف اسرارهن . فحزرت السر فى كلامه عنها ، فقالت :

— چاك ! لا يغضبنك ما سأقوله لك ، انك لست ماهراً فى اخفاء عواطفك ، فتقسّس أنك تهوانى ، وأراد أن يتحقق . وانى واثقة من أنه الآن لا يخالجه أى شك فى علاقتنا ، لكن سيان عندى ، فلست ألقى الى ذلك بالاً ، بل على الضد لو أنك كنت أمهر فى الخديعة لكنت أقل اطمئنانا ، ولظننت أنك لا تحبنى كفاء حبى .

ثم أسرعت فغيرت الموضوع خشية أن تساوره الشجون فقالت

— لم أحدثك عن مبلغ اعجابي بصورتك . . انها فلورنسا على ضفة الارنو ، فهي أنت وأنا !

— نعم ، لقد وضعت في هذه الصورة لوعة غرامي . انها حزينة ، وأردت أن تكون جميلة ، فتأملي ياتريز ترى أن الجمال حزين . وهذا هو السر في انني مذ صارت حياتي جميلة ، جعلت أتألم .

وبحث في جيب سترته الفلانلا واخرج علبة سجائره . لكنها استحثته على ارتداء ملابسه ، على أن تأخذه الى بيتها ليتغدى عندها . فلا يفترقان سحابة نهارهما وفي هذا هناؤهما . ونظرت اليه بفرح الطفلة . ثم مرت بها غمة ، إذ تذكرت أن عليها الرجوع الى «دينار» بعد اسبوع ثم الذهاب الى جوانفيل ، وانهما في خلال هذا الزمن يضرب الفراق بينهما . . وستسأل والدها أن يدعو صاحبها الى جوانفيل لتمضية بضعة ايام فيها ، لكنهما لن يجدا هناك المجال لحريتهما وانفرادهما كما يجدانه في باريس . فقال :

— صدقت ، ان باريس بلا نهايتها المبهمة خير لنا .

وأضاف :

— حتى في غيابك ، لا أستطيع مغادرة باريس . فأمقت السكنى في بلاد لا تعرفك . فأن سماء وجبالاً وأشجاراً وجداول وعيونا وأنصابا لا تقدر على التحدث الي عنك ليس لديها ماتقوله لي !

وبينا كان يرتدي ثيابه ، قلبت صفحات كتاب وجدته على

المنضدة ، وكان « الف ليلة وليلة » ، مزينا بصور خيالية لمن جاء ذكرهم فى أثنائه من وزراء وسلطانات وخصيان سود وأسواق وقوافل فسألته :

— أيروقك « الف ليلة وليلة » هذا ؟

— كثيراً ، فانى اذا شئت اعتقدت باولئك الامراء العرب الذين حالت سيقانهم رخاماً أسود ؛ وبنساء الحريم أولئك اللواتى يجسن دائما خلال المقابر فى دجى الليل . . هـذه القصص تلقى إلى أحلاماً سائغة تنسيني عبء الحياة . . . ولقد ذهبت مساء أمس لأنام وبى حزن شديد، فقرأت فى فراشى حكاية القلندريات الثلاث العور فعتبت عليه بقولها :

— أنت تنشد النسيان ! أما أنا فوالله ما تطيب نفسى بشىء فى الدنيا عن ذكر ألم أصابني منك . . .

ونزلا الى الشارع ، على أن تركب عربة بعد قليل فتصل بها الى بيتها قبيله ببضع دقائق . قالت :

— ان زوجى ينتظرك على الغداء .

وتكلما فى الطريق عن أمور توافه ، بدت لهما على نور حبهما عظيمة القدر لذيذة الأثر . ورتبا أصيل يومهما بحيث يقضيانه مستسلمين الى الأفراح الفائقة والمسرات الحاذقة . واستشارته فى ثيابها وزينتها .

ولم تعزم بعد على فراقه ، سعيدة بسيرها معه فى الطرق التى ملأتها الشمس بنورها فى الظهر البهيج .

ولما بلغا شارع لوتيرن وجدا أمامهما صفاً من الحوانيت العارضة بضائعها بوفرة . . فكنت ترى سبح الطيور بباب بائع الكباب كما تجد صناديق المشمش والخوخ وسلال العنب وأكوام الكمثرى عند بائع الفاكهة . وكانت عربات الفاكهة والأزهار تحف بالرصيف . وفى مطعم زجاجي الصدر كان رجال ونساء جالسين يتناولون طعام الغداء ، فعرفت تريز بينهم « شولت » جالساً بمعزل عن الناس الى خوان صغير ، يشعل غليونه . .

فلما رآها ألقى على الخوان فى خيلاء قطعة ذات مائة دانق ، ثم نهض مسلماً . وكان شديد الرزانة وأظهرته بذلته الراديدنجوت الطويلة مظهر الحشمة والتقوى . فقال أنه كان يود أن يزور الكونتس مارتن فى دينار لولا أن استبقته المركيزه دى ريو فى ڤانديه وأعاد فى تلك الأثناء طبع كتابه « البستان المغلق » مضيفاً اليه « روضة القديسة كلير » ، فأثر فى القلوب التى كان يظن فيها " لابة ، وفجَّر الصخر عيوناً . . وقال :

— وبذلك كنت من أحزاب موسى !

ثم ضرب فى جيبه وأخرج من محفظته خطاباً قذراً وقال :

— هذا ما كتبت اليّ به مدام رايمون قرينة عضو الأكاديمى وانى أنشر كلامها لأنه ثناء عليها !

ثم فضّ الوريقات الرفيعة ، وقرأ :

« — لفتُّ نظر زوجى الى كتابك فصاح : « هذا تصوّف خالص ! وهذى حديقة مسوّرة ، فى رأيى أنه يجب أن يكون بين زنابقها وورودها البيض باب صغير يؤدى الى الأكاديمى » !

ولما تذوق شولت طعم هذه الأقوال فى فمه ممزوجاً بطعم الرحيق، طوى الخطاب بعناية وأودعه محفظته .

فهنأت الكونتس مارتن الشاعر على أنه مرشح مدام رايمون ، وقالت :

— ستكون مرشحى يا مسيو شولت اذا عنيتُ بانتخابات الأكاديمى . لكن أترغب حقاً فى عضوية المجمع العلمى ؟

فلزم الصمت بضع لحظات بوقار ثم قال :

— انى ذاهب ياسيدتى لأتباحث فى هذا الصدد مع أعيان السياسة والدين الذين يقطنون « نوابى » . والمركيزه دى ريو تحثنى على الاسراع الى الوقوف بجانبها كمرشح لعضوية مجلس الشيوخ فى مقعد خلا بوفاة شيخ هرم قيل أنه كان قائداً بينا يحيا حياة الوهم تلك . . وأنا ذاهب الى بوليڤار « بنوه » لأستشير القسوس والنساء والأولاد فى هذا الخصوص . . أيتها الحكمة الأزلية !

وأشار بعصاه صوب « نوايى » قائلا :

— دى شارتر ! يا صديقى ! أفليس ذاك «بوليڤار بنوه» الذى يثور منه التراب الى اليمين ؟

فقالت تريز :

— الى الملتقى « يا مسيو شولت » ، لا تنسنى اذا ما صرت عضو مجلس الشيوخ !

— أى سيدتى ! اننى أذكرك فى كل صلواتى ، سواء التى منها بالعشىّ أو الأبكار . . . وأقول لله تعالى : « سبحانك رب إذ وهبتها فى سخطك وغضبك المال والجمال ، فاكلأها بعين رأفتك ، واشملها برحمتك فى كل حال » .

ثم مضى على وجهه وهو يعرج بصلابة فى الشارع المزدحم .

٣٠

نزلت تريز الدرج مع دى شارتر وهي متدثرة بدثار وردىّ اللون ، وكان قد وصل الى چوانفيل فى ذلك الصباح ، لأنها عملت على إلحاقه بجماعة الأصدقاء الأخصاء قبل حلول موسم الصيد خشية أن يُدعى « لومنيل » الذى غابت أخباره عنها ، كما جرت العادة بدعوته كل عام ، وهبَّ نسيم سبتمبر العليل فداعب خُصل شعرها ، وجعلت الشمس الجانحة الى المغيب عينيها العسليتين تألقان ببريق من ذهب . . .

فأشارت تريز الى نصب فى الحديقة يمثل عذراء من عذارى الغاب ، وقالت :

— لقد راقبتْنى إذ كنت طفلة وتقت الى الموت . . وكنت نهباً مقسما بين الخوف والشهوة . وكنت فى انتظارك . لكن ما كان أبعدك عنى !

ثم أشارت الى ممشى يبدأ من البحيرة حتى يغيب فى الريف من ناحية المشرق . وقالت :

— هذا ممشاى ، ما أكثر ما سرت فيه حزينة الفؤاد ، فانى كنت قبلما عرفتك حزينة . .

وساقتهما الحاجة الى الظل والعزلة الى مسلك من الخمائل

والأدغال . . لكن وقع خطى آتية من الممشى المغطى وقفهما لحظة . فرأيا من خلال ورق الشجر « موتسوى » مطوقا بذراعه خصر الأميرة « سينافين » وهما يسيران بهدوء تام نحو القصر . فاختفى چاك وتريز وراء تمثال ضخم حتى مرا . . ثم قالت لدى شارتر الذى كان ينظر اليها صامتاً :

— فهمت الآن لم كانت الأميرة سينافين فى هـذا الشتاء تستشير أبى فى شراء الخيل . . .

ومع هذا فلم تستطع إخفاء إعجابها بأبيها لنيله هذه المرأة الجميلة المشهورة بالغنى على الأزمات العارضة نتيجة سرفها الجنونى .

وسارت وچاك فى روضة القصر الغناء ، ببحيرتها المصقولة المياه وسمائها المجلوَّة كالمرآة ، ومماشيها المنمَّقة ، وتماثيلها المرمرية ، وأشجارها الباسقة ، ثم اجتازاها الى الغابة ، فى صمت وسكون ، يسودهما حفيف ورق الشجر الخفيف . . وأسبلت الأشجار ستور الزمرد ، وامتدت أدغال الحور ، تضىء لحاءها الشاحب أشعة الشمس الأخيرة .

فضغطها بين ذراعيه . وأمطر جفنيها قبلات . وانحدر الليل من السماء فارتجفت الدرارى الأولى متألقة بين الأغصان ، ونقيق الضفادع يصعد من العشب المبلول . . فوقفا . ولما عادت أدراجها بصحبته الى القصر ، فى دجى الظلام ، كان لا يزال على شفتيها طعم القبل ، وفى عينيها صورة حبيبها الذى استند الى جذع صفصافة ،

فكان كآلة الحقول عند القدماء ، بينا حملها بين ذراعيه ، ويداها تطوقان عنقه ، وقد أغمى عليها غلمة واشتهاء . . .

وابتسمت تحت ظلال الزيزفون لعذارى الغاب اللواتى رأين دموع طفولتها ، والقمر يذر قرنه الفضى فى حوض البحيرة ، والهوام تغنى فى السكلأ أغانى الحب . . . واستبان چاك وتريز كتلة القصر السوداء تبدو من خلال نوافذ دوره الأرضى ، على النور الأحمر ، أشكال تتحرك ... وقرع الجرس مؤذنًا بميقات العشاء. فصاحت تريز :

— ليس لى من الوقت الا ما يكاد يكفى لتغيير ثوبى

وهربت من حبيبها ، أمام الأسود الحجرية ، وسرعان ما اختفت عنه وخلفت له رؤيا « عروس الماء » أو « عذراء المغاور والجبال » فى أساطير القدماء .

* * *

جلس مسيو « برتييه ديزل » فى البهو بعد العشاء يطالع جريدة ، وأقبلت الأميرة سينافين على منضدة اللعب تستنبىء الورق عن بختها ، وأغمضت تريز على كتاب عينيها بعض إغماض . . وهى ما برحت شاعرة نخسات فى كعبيها من الأشواك التى خدشتها فى الأدغال . . وتذكرت فى رجفة صاحبها الذى أخذها فى الغابة كما له الحقول يلاعب البتول . فسألتها الأميرة سينافين أيروقها كتابها الذى تطالعه . . ؟

— ما أدرى ؟ انى كنت أحلم بينا أقرأ ، وقد أصاب پول ڤانس كبد الحقيقة بقوله « إنّا لا نجد فى الكتب غير أنفسنا » .

وكانت تسمع من وراء السجوف أصوات اللاعبين وصدمات الكرات آتية من قاعة البلياردو

ثم قالت تريز أنها تلقت رسالة من فيزول أعلنت اليها فيها « مس بل » زواجها القريب من الأمير أيوزبيو البرتنلى دلا سپينا ! فجعلت الأميرة سينافين تضحك وتقول « ذلك رجل سيسدى اليها خدمة عظمى » فسألتها تريز :

— وما هذه الخدمة ؟

— هى أن تنبو عنها وايم الحق أنظار الرجال !

ودخل مونتسوى البهو وبه مراح شديد . فقد رجحت فى اللعب كفته . واقترب من ابنته قائلا :

— جاءنى خطاب غريب من لومنيل

فذهبت تريز فأقفلت الباب الفاصل البهو عن قاعة البلياردو قائلة أنها تخشى تيار الهواء . . .

فاستطرد مونتسوى قوله .

— خطاب غريب ، ومحصّله أن لومنيل لن يحضر الصيد فى جوانڤيل ، وقد اشترى يختًا حمولته ثمانون طنًا اسمه « **زر الورد** » وهو يمخر به عباب البحر الأبيض المتوسط ، ولا يريد بعد العيش

على غير سطح اليم . وهذا من دواعى الأسف ، فانه الرجل الوحيد الذى يعرف كيف يقود الصيد . . .

وفي تلك اللحظة دخل دى شارتر البهو مع الكونت مارتن الذى بعد أن غلبه فى البلياردو عدّه صاحبًا ، وجعل يشرح له خطر فرض الضرائب على مصروف البيت وعدد الخدم !

سطعت شمس الشتاء الشاحبة من خلال ضباب نهر السين على باب غرفة المائدة فى قصر الكونتس مارتن . . وجلس الى يمين الكونتس النائب جران حامل الأختام السابق ورئيس الوزراء كان ، والى يسارها مسيو لوبيه عضو مجلس الشيوخ ، وجلس عن يمين الكونت مارتن بليم مسيو برتييه ديزل . وكان غداء خاصًا سياسيًا جاداً ، فان الوزارة كانت قدسقطت منذ أربعة أيام ، فدعى أصحابنا هؤلاء الى قصر رياسة الجمهورية « الأليزيه » فى صبيحة ذلك اليوم نفسه ، وقبل «جران» القيام بتأليف وزارة . وكان اثناء تناول الطعام يعد قائمة بالاسماء ليقدمها مساء الى رئيس الجمهورية . وبينا كانوا يتناقشون في الأسماء ، كانت « تريز » تتذكر صور حياتها القلبية الخاصة . فقد عادت الى باريس مع قرينها الكونت فى وقت اجتماع البرلمان ، ومذ ذاك وهى تحيا حياة مسحورة . .

فجاك يهواها ، وهو يهواها بمزيج مرح من الشهوة والحنان ، ومن المعرفة والفضول . . وكان عصبى المزاج شديد القلق والهياج ، لكن تفاوت طبعه جعلها تقدر كثيرا حالات مرحه وفرحه ، ذلك المرح الفنان الذى يتقد فجأة كالشعلة ، يزيد في الحب دون أن يسيئه . ولم يبد لها أول عهده بها الا شغفا كئيبا مطردا لا تغيير فيه

فنال ذلك وحده منها واستمالها . لكن تكشف لها بعد ذلك عن روح مرح موفور مختلف اشكالا ، وعن رقة نادرة فى التلذذ ، وعن موهبة الامتاع و إرضاء النفس والجسم معا !

ثم نهضت تريز ، وتركت رجال السياسة فى ثوى الأضياف ، وخفت الى لقاء حبيبها دى شارتر . .

* * *

غطت الأنوار الشقراء نهر السين والأرصفة الحجرية واشجار الجنار الذهبية . و إذ خرجت تريز من قصرها تذوقت بالتذاذ عصف الريح وتمتعت مبتهجة بجلال الغروب . وهى مذ عودتها الى باريس والسعد ملازمها ، فتفرح كل صباح بتغير الطقس وترى بشعور أنانى ودود حبها فى كل شىء :

« فى خرير الماء ، فى قصف الرعود فى هدير البحر ، فى مر الغمام »

كما تراه :

« فى صهاريج البرارى ، فى الزهور فى السكلا ، فى التبر ، فى رمل القفار »

وكان كل نهار يطلع عليها محببًا اليها ، لأنه يحملها الى ذراعى محبها . . .

فى ذلك اليوم ، كما فى كل يوم ، إذ أخذت طريقها الى البيت الصغير فى حي « لوتيرن » ، كانت تفكر فى سعادتها غير المنتظرة ، الكاملة ،التى هى فى عرفها مضمونة آمنة .. وسارت فى شعاع الشمس الاخير المنيف الذى لمسه الشتاء وفروعه ، تقول لنفسها :

« — أنه يحبنى ، وفى ظنى أنه يحبنى بمجامع فؤاده ، فأن الحب عنده أسهل واقرب الى طبيعته مما هو الى غيره من الرجال . ففى حياة هؤلاء أفكار أسمى منهم ، عقيدة أو عادات ، أو مصالح وهم يؤمنون بالله أو بالواجب أو بأنفسهم ، أما هو فيؤمن بى . فأنا إلهه ، وواجبه ، وحياته جميعًا . ثم فكرت :

« وهو فى الواقع كذلك فى غير حاجة الى إنسان ، حتى ولا الىّ . فأفكاره عالم عظيم يستطيع أن يحيا فيه بسهولة حياة موفورة . لكنى أنا لا أستطيع العيش من دونه . فماذا يجرى علىّ لو أنه لم يعد لي »

ثم سكن روعها لتذكرها إعجابه الشهوانى بها ، والسحر الذى طلسمته به ونفثته فيه... وذكرت أنها قالت له يوما :« انك لا تحبنى الاّ حبا شهوانيا ، ولست أشكو من ذلك ، لأنه قد يكون هو وحده الحب الصادق » فأجابها بقوله : « إنه كذلك هو وحده الحب القوى والحب العظيم ، وله مقاييسه وله أسلحته. وماؤه الحس والخيال.

وهو شديد وخفيّ . ومرامه الاتصال بالجسم وروح الجسم معا ! وأما ما بقى ليس الاّ وهماً وكذبا »

فأهدأتها غبطتها ، واستخفى ما ساورها من الوساوس والهواجس كأنه سحاب صيف تقشع . . . وكانت أسوء فترة مرت بهما فى حبهما عندما ضرب الدهر بينهما بسهم الفراق . . . وفى العشق الفراق محرم !

وفى زاوية شارعي مارسو وجليليه ، تكهنت ، أكثر مما تكون قد عرفت ، بشبح — شبح شكل منسي ، مرَّ على مقربة منها . . فظنت نفسها ، وأرادت أن تكون ، واهمة . . فالذى تصورت أنها قد رأته لم يعد له وجود . ولم يكن له وجود أصلا ! لقد كان شبحا لُمِحَ بمعزل من عالم سابق ، في ظلمات وجود وهمى . . .

و بينا هى تطوى الشارع طيّاً ، رأت باعة الصحف يجرون نحوها حاملين جرائد المساء برءوس عناوين ضخمة إعلانا عن الوزارة الجديدة . فاجتازت «ساحة الإيتوال»، تحث خطاها رغبتها الملول . ورأت بعين قلبها جاك ينتظرها فى صحن الدرج بين تماثيل المرمر والبرنز العارية .. وقد أخذها بين ذراعيه وحملها ، بعد إذ هى مرتجفة مضناة من أثر العناق والقبلات ، الى تلك الغرفة التى ملؤها الظل واللذات وحيث رخاء الحياة أنساها الحياة !

ولكن ، فى وحدة شارع مكماهون ، اقترب الشبح الذى سبق أن

رأته في زاوية شارع جليليه ، وظهر بقربها بوضوح شديد مؤلم . . فعرفت فيه « رو بيرلومنيل » بعد ما اقتفى أثرها من رصفة « دو بيلى » أتى فالتقى و إياها فى أهدأ وأسلم بقعة من الطريق. وانجلى شكله وحاله عن شفوف روحه الذى راق تريز يوما من الايام . . ولوح الشرد والبحر وجهه الخشن بطبيعته فكسواه سمرة ونحفا قليلا ، وعليه هدوء يُخفى و يبدى علامات الالم العميق . . .

— لى كلام معك .

فأبطأت فى سيرها ، فمشى الى جانبها ، وقال :

— حاولت أن أسلوك وأنساك ، وهو أمر طبيعى بعد الذى كان . . أليس كذلك ؟ ولم أدخر جهداً فى هذا السبيل . إى والحق فلم يكن خيرا من نسيانك . بيد أننى لم استطع . فاشتريت يختا . وأبحرت به ستة اشهر . ولعلك تعرفين ؟

فاشارت بأنها عرفت . فاستطرد :

— أن « زر الورد » يخت جميل ، حمولته ثمانون طنا ، وكان عندى من الملاحين ستة رجال ، فاشتغلت معهم ، وهذا ألهانى .

ثم سكت ، وكانت تسير الهوينا ، محزونة ضجرة . فقد كان عندها سخافة من كل وجه ومدعاة للألم أن تصغى الى هذا الحديث العَجَب . واستطرد :

— غير انني أخجل من إخبارك بالعذاب الذى لقيته على ظهر هذا اليخت . .

فأحست انه يقول حقاً ، وأشاحت عنه بوجهها .

— أوه : انى أسامحك ، فقد فكرت طويلا ، فى وحدتى ، وقضيت الليالى والايام مضطجعاً على إيوان فوق ظهر اليخت . وأعدت الأفكار نفسها على ذهنى بلا انقطاع . وفكرت فى خلال الستة الأشهر تلك اكثر مما فكرت طول حياتى . لا تضحكى فلا شىء أفتق للذهن من الحزن .

وأدركت اننى إذا كنت قد خسرتك فالذنب ذنبى ، وكان على أن أعرف كيف احتفظ بحبك . وبينا «زر الورد» يمخر عباب البحر كنت ممدداً أقول لنفسى . «لم أعرف كيف أحتفظ بها . أواه لو قيض لى أن أعود فأبدأ ! » ثم انى بقوة التفكر والتألم قد فهمت . فهمت اننى لم أقاسمك أذواقك وأفكارك حق المقاسمة . فأنت امرأة نابهة وثابة الذكاء ، فلم أفطن الى ذلك ، لأننى لم أحبك من أجله . وقد أسأت اليك واثقلت عليك من حيث لم أقدّر . . .

فهزت رأسها ، فأصرّ :

— بلى ! بلى ! لقد كنت أخجلك دائماً . . . ولم أرع واجب الرعاية طبعك الحساس ، فوقع بيننا سوء التفاهم ، وهذا ناشىء من تغاير طبيعتينا تغايراً بيّنا . . ثم انى فوق هذا ما عرفت كيف أهيئك

وأسليك ، وما عرفت بتة كيف أجدُّ لك ضروب المسرات التى تعوز امرأة ذكية فهمة مثلك . .

وكان بسيطاً مخلصاً فى أسفه وفى ألمه الى حد أن أستثار عطفها عليه وميلها اليه . . فقالت له برقة :

— أى صديق ، ليس لدىَّ ما يدعو الى شكايتى منك . . .

فاستطرد :

— كل ما قلته لك الآن حق . وقد أدركته فى وحدتى ، وأنا على يختى ، فى عرض البحر . . إذ قضيت عليه ساعات لست أتمناها لأعدى أعدائي . واعتزمت غير مرة أن ألقى بنفسى فى اليم فلم أفعل . أفكان ذلك لاعتبارات دينية أم عواطف عائلية أم لأنه لم تكن عندى الشجاعة ؟ ما أدرى . وربما لأنك كنت ، على ما بيننا من البعد ، تعلقيننى بأسباب الحياة . وقد جذبت اليك ، فها أنت ذى تجدينني أمامك . . وحدث اننى راقبتك مدى يومين ، ولم أرد أن أزور بيتك ، فما كنت لأقدر على لقائك على حدة وما كنت لأقدر على محادثتك ، ثم انك كنت تضطرين الى استقبالى اضطراراً ، فآثرت مخاطبتك فى الطريق ، وهـذه فكرة عنت لى أيضاً على ظهر اليخت ، فقلت لنفسى : « إنها إذ أصغت الىّ فى الطريق فذلك لأنها تريد الاصغاء ، كما كانت تفعل منذ أربع

(تويز . لومنيل)

سنوات فى حديقة قصر « چوانفيل » تحت التماثيل ، على ضفاف البحيرة ، أفلا تذكرين ؟

ثم استطرد ، متنفساً الصعداء :

— أجل ، كما فى چوانفيل ، ما دام علينا أن نعود فنبدأ من جديد . قلت انى راقبتك يومين ، وكان المطر أمس يهطل ، فخرجت فى عربة ، ولم أقدر على اقتفاء أثرك ، لأعرف الى أين كنت ذاهبة ، وهو ما أردته ، ولم أفعله ، فانى لا أريد فعل ما قد يسوءك .

فمدت اليه يدها قائلة :

— شكراً لك . لقد عرفت اننى لن أندم على ثقتى بك .

وكانت منزعجة ، جزعة ، وقد عيل صبرها ، وهاجت أعصابها ، فحاولت أن تقطع عليه الحديث ، وتفلت منه فقالت :

— وداعاً ! ان الحياة مبسوطة أمامك ، وأنت سعيد . فتحقق من هذا ، وخفف عليك عناء الاهتمام بما لا يساوى قلامة ظفر ...

ولكنه قطع عليها الكلام بنظرة ، وبدت على أساريره دلالة قوة المراس وشدة الشكيمة التى تعرفها . .

— قلت لك أن عندى كلاماً لك ، فاصغى الىَّ دقيقة واحدة .

فذكرت چاك الذى هو الآن فى انتظارها ، ومرَّ بعض عابرى

السبيل فنظروا اليها ثم مضوا فى طريقهم . فوقفت تحت أغصان شجرة وانتظرت فى حنو و إشفاق . . .

فقال :

— إنى أغتفر لك وأنسى كل شىء . فاستعيدينى ! وأعدك الا أشير أمامك الى الماضى بكلمة ! . . .

فارتجفت ، و بدت منها حركة دهش وكدر طبيعيـة ، حتى توقف . و بعد لحظة تفكير ، قال :

— أعلم ان ما أعرضه عليك غير مألوف ، لـكننى تأملت فيه وفكرت فى كل شىء ، وهو الشىء الواحد الذى يمكن عمله ، ففكرى فيه مليًّا يا تريز ، ولا تجيبينى من فورك .

— عبثًا أخدعك ، فلا أستطيع ولا أريد قبول ما ذكرت ، وأنت تعرف السبب .

ومرت بهما عربة تسير على مهل ، فأشارت الى الحوذى فوقف ، فاستبقاها لحظة أخري وقال :

— لقد توقعت أن تقولى لى ذلك ، ولهذا أعيد عليك القول الا تعطينى جوابًا لساعتك .

وما إن دخلت العربة ، حتى ألقت عليه نظرة من عينيها ، فكانت عنده لحظة حزينة ، وتذكر الأوقات التى كانت إذا حان

انفصالهما فيها ، تنظر اليه بتينك العينين الرماديتين الساجيتين المعبودتين .. فكظم زفرة حرّى ، وتمتم بصوت أجش :

— اسمعى ، انى لا أستطيع العيش من غيرك ، انى أحبك ، الآن حقاً أحبك ، أما قبل الآن . . فلا أدرى !

وبينا هى تعطى الحوذى عنوان خياطة كيفما اتفق ، ابتعد عنها بمشيته الرخوة المرحة ، التى كانت فى هذه المرة مرتجة هوناً . . .

وأورثها هذا اللقاء توعكاً وقلقاً . وإذ لم يكن بد من لقائه ثانية تمنت ان تجده فظاً كما كان فى فلورنسا.

وعند زاوية الشارع أهابت بالسائق :

— الى شارع « دمور » فى « لوترن »

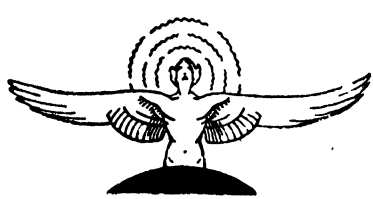

٣٢

كانت رواية « فوست » ستمثل فى دار الاوپرا يوم الجمعة . فبدأت الموسيقى تعزف والنظّارات المقرّبة تنفض بهو الأرجوان والذهب على الأنوار الاخّاذة بالأبصار . وكانت رؤوس النساء المزينة بالجوهر وأذرعهن العارية تضىء فى المقاصير المظلمة كأنها الأحجار الكريمة فى صناديق الحلى . وأشرف النظارة على القاعة فى سمط طويل من الماس البرّاق والزهر النضر والشعر الجميل والقدود الخوطية والثياب الشفافة والأنسجة الهفافة .

وكنت ترى فى الصفوف الأمامية سفيرة النمسا والدوقة دى جلادوين . وفى المدرّج « برت ديزينى » و « چان تول » التى اشتهرت بانتحار عشيق لها بالأمس ، وفى المقصورات ، مدام « برار دى لامال » مسبلة الجفون ، تلقى أهدابها الطويلة ظلّها على خديها الناعمين، والأميرة «سينافين» أنيقة فاخرة تخفى تثاؤبها خلف مروحتها. ومدام « دى مولين » جالسة بين صبيتين ، كانت تلقنهما فن التجمّل . ومدام « ملان » آمنة على جمالها الذى لم يبزّه لثلاثين عاماً جمال . ومدام « برتييه ديزل » متصلبة ، بشعرها الرمادى المثقل بالماس ، وزادت بثور وجهها وجاهة شكلها ، وكانت محط الأنظار ، فقد ذاع فى ذلك الصباح نبأ فشل « جرانـ » فى تأليف وزارة

وقبول المسيو برتييه ديزل تأليفها. وكادت مهمتـه تنجز، ونشرت الصحف قائمة باسماء الوزراء، ومن بينهم الكونت مارتن بليم وزيراً للمالية. فجعلت النظارات المكبرة تتوجه عبثًا الى مقصورة الكونتس مارتن التى كانت لا تزال خالية.

وانتشرت فى المكان غمغمة الأصوات. وكنت ترى فى الصف الثالث الجنرال لاريفيير يتحدث الى الجنرال دى لابريش. فمرَّ بهما « مونتسوى » فى طريقه الى مقعده. فمدَّ اليـه لاريفيير يده قائلاً: « لقد بلغني انك أنت يا مونتسوى الذى أسقطت « جران ». فهنيئًا لك ! » فاحتج مونتسوى قائلاً انه لا يخوض فى السياسة، ولا هو شيخ ولانائب بل ولا هو عضو حتى فى مجلس مقاطعة « الواز » . .

ومسح البهو بعو ينته وقال :

— انظر يا لاريفيير ! هناك فى تلك المقصورة اليمني امرأة فتانة حقًا، سمراء، مرسلة سوالفها على الخدين . . .

ثم استقر فى مجلسه هادئًا، متذوقًا حقائق السلطة والنفوذ.

وفي خلال ذلك كانت تتردد على ألسنة الناس أسماء الوزراء الجديدين: فبرتييـه ديزل رئيسًا لمجلس الوزراء ووزيراً الداخلية، ولوييه وزيراً للحقانية، ومارتن بليم وزيراً للماليـة، كما أن التعيينات الأخرى عُرفت ما خلا وزارة التجارة والحربية والبحرية فلم تكن قد عُيِّنت بعد . . .

وارتفع ستار المسرح عن حانة الإلّه « باخوس » ، وكان الطلاب ينشدون ترنيمتهم الثانية ، عند ما ظهرت الكونتس مارتن فى مقصورتها ، وقد رجّلت شعرها عاليًا ، وكانت لابسة ثوبًا أبيض ذا كمين منتشرين كجناحين ، وعلى مشد وسطها ، عند نهدها الأيسر ، كانت تزهو زنبقة كبيرة من الياقوت .

وجلست بقربها « مس بل » فى ثوب من المخمل الأخضر ، وكانت قد أتت الى باريس لتوصى على جهازها وملابسها بعد أن خطبت للأمير أيوزبيو البرتنلى دلاّ سبينا .

قالت مس بل :

— عزيزة ! إنك قد تركت فى فلورنسا صديقًا يعتز كثيراً بجمال ذكرك وهو الاستاذ الريغى . وهو يغدق عليك الثناء الذي هو عنده أزكى الثناء فيقول عنك أنك إنسانة موسيقية . وأنّى للاستاذ الريغى أن ينساك فى حين انه حتى الخزامى فى البستان تذكرك ؟ ؟ وتنوح أغصانها المجردة على غيابك – انها تأسف عليك وتحن اليك يا عزيزة !

فاجابت تريز :

— قولى لها اننى قد حملت من « فيزول » تذكاراً هو بُلالة أوامى وعُلالة أيامى . . .

فقالت مس بل :

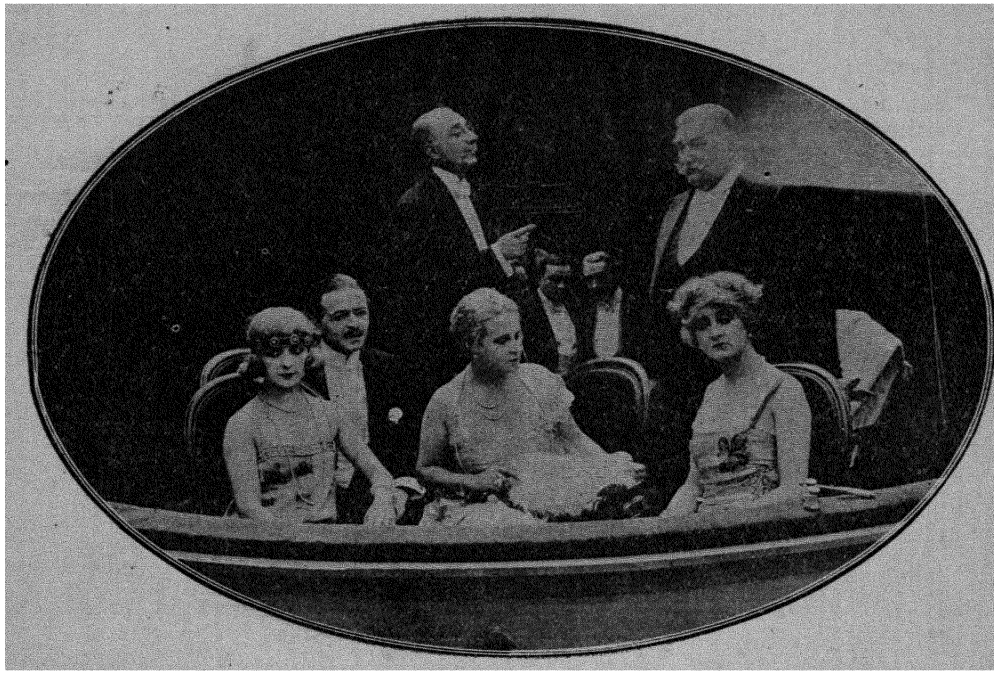

— أى والله يا عزيزة ! سأقول لُخزَامى فيزول انك تحنين اليها ، وانك لن تلبثى أن تعودى فتزوريها على أكمتها ، لكننى أسألك،أتلقين مسيو دى شارتر فى باريس ؟ فانى أريد أن أراه من كل نفسي ، لأنى أحبه إذ كان ذا نفس رقيقة حساسة نابهة . أجل يا عزيزة ، ان روح المسيو دى شارتر تفيض رقة وحساسية ونباهة . . .

فأجابت تريز ،إن مسيو دى شارتر فى دار التمثيل لا محالة فلن يقصر فى الحضور للسلام على مس بل .

وهصر الستار . فأسرع الناس الى الممشى ، وفى لحظة ازدحم البهو الصغير المتصل بالمقصورة بالماليين والفنانين والنواب ، وأحاطوا بالكونت مارتن بليم يهنئونه متزاحمين بالمناكب على مد أيديهم فوق رؤوس بعضهم البعض لمصافحته بالأيدى . وأقبل جوزيف شمل يسعل وله زنَّة وأنَّة ، وكان أعمش العينين ، أصم الأذنين ، يشق لنفسه باحتقار فى الزحام طريقًا . حتى وصل الى الكونتس مارتن فأخذ بيدها ، وغطَّاها بالأنفاس الثقيلة والقبل الرنَّانة ، قائلاً :

— يقال أن قرينك عُيّن وزيراً . أفهذا صحيح ؟

فقالت ان هذا ما أُشيع ، لكنها تعتقد ان شيئًا لم يقرر بعد على أن زوجها هنا فلمَ لا يسأله ؟ . فقال :

— آه ! إذاً فلم يعين زوجك وزيراً بعد ؟ فى حالة تعيينه سأسألك لحظة محادثة لمسألة من الشأن بأعظم مكان !

ثم سكت ، وهو يرسل من وراء عويناته الذهبية تلك النظرات التى تكون عادة للأعمى . . . وبدهها بالسؤال :

— أذهبت الى ايطاليا هذا العام يا سيدتى ؟

ثم قال بغير أن يدع لها وقتًا للرد :

— أنا عارف ! عارف ! لقد ذهبت الى رومه . ورأيت قوس الملك « تيتوس » المرذول . ذلك النصب الرخامى البغيض حاملاً بين أسلاب اليهود الشمعدان ذا الشعب السبع . لا بأس فدعينى أقول لك يا سيدتى انه عار على العالم سماحه ببقاء هذا النصب قائمًا فى مدينة رومه ، حيث لم يجد الباباوات القوت إلا بفضل فن اليهود من صاغة وصيارفة نقود . فقد أدخل اليهود الى ايطاليا علوم الأغريق والشرق . وما الرنيسانس « عصر النهضة » إلا من عمل اسرائيل . ذلك هو الحق الأبلج المشهود ولكنه متناكر مجحود .

ثم خرج ، وفى تلك الأثناء كانت الأميرة سينافين على طرف مقصورتها تنظر بعويناتها الى صاحبتها بفضول ثم أشارت الى پول ڤانس الذى كان بقربها ، قائلة :

— أما تجد الكونتس مارتن فى هذه السنة ذات جمال فائق ؟

وسأل الجنرال دى لاريش صاحبه لاريفيير .

— أرأيت ابن أخي ؟

— ابن أخيك ؟ « لومنيل » ؟

— نعم . روبير . فقد كان الآن فى القاعة .

ففكر دى لاريفيير لحظة ثم قال :

— لقد أتى هذا الصيف الى « سيمنفيل » . فتبيّنت فيه شذوذ المأخوذ . إنه ولد لطيف نبيه ، حركالذهب ، لكن تعوزه مهنة وغرض يقصده فى الحياة .

ورفع الستار . ولما انتهى الغناء ، خاطبت مس بل الكونتس مارتن بقولها :

— لقد كتب إلىّ المسيو شولت يا عزيزة خطاباً جميلاً للغاية . قال لى فيه أن اسمه رُفع فوق جميع الأسماء ، ونشر الله نوره فى كافة الأرجاء . . . ففرحت بذلك فرحاً شديداً . أو كما قال : « ان مجد غيرى من الشعراء مستكن فى المُرّ والعطر ، أما مجدى فيئن ويدمى تحت شؤبوب من الحجارة وصيب من قذائف المحار » أحق يا عزيزة ان الفرنسيين قد رجموا الرجل الطيب مسيو شولت ؟؟

وبينا تريز تسكن روع مس بل فتح « لوييه » باب المقصورة وعليه مظهر الصلف ، وكان مبللاً موحلاً ، وقال :

— انى آت من رياسة الجمهورية .

فقد كان من الشهامة بحيث يعلن الأنباء السارة الى الكونتس مارتن أولاً :

— لقد أقرّت التعيينات . فصار قرينك وزيراً للماليـة . وهى ادارة بديعة . . .

فسأل الكونت مارتن بليم :

— أوَ لم يبد رئيس الجمهورية اعتراضاً عند ذكر اسمى أمامه ؟

— بتاتاً . فان « برتييه » أذكره ارث الاستقامه المجيد الذى لآل مارتن ، كما أذكره ثروتك ، وبخاصة صلتك المعـلومة ببعض رجال المال المعروفين الذين تعـد معونتهم للحكومة ذات قيمة . وأدرك الرئيس ضرورات الساعة . فأمضى .

فتغضن وجه الكونت مارتن المصفر، فابتسم، فاستمر « لوييه » يقول :

— سيظهر المرسوم غداً فى الجريدة الرسمية . وقد صحبت بنفسى فى عربة أجرة موظف مجلس الوزراء الذى حمله الى المطبعة ، وهذا الاحتياط ضربة لازب ، ففى أيام « جريفى » الذى لم يكن مع ذلك أبله ، كانت المراسيم توقف فى الطريق من قصر « الاليزيه » الى رصفة « ڤولتير » !

وألقى « لوبيه » بنفسه على مقعد . وهناك ذاق بعينيه ومنخريه كتفى الكونتس مارتن ، وقال :

— لم يعد يقال ، كما فى أيام صديقى المسكين « غمبتا » ، ان الجمهورية مفتقرة الى نساء . فانك ياسيدتى ستقيمين الأفراح الجميلة فى أبهاء الوزارة .

ثم نهض وانحنى للكونتس قائلا :

— أتسمحين أيتها الكونتس أن أصحب قرينك ؟

وما إن خرجا حتى دخل « جاك دى شارتر » و « پول ڤانس » الى المقصورة : فقال الأخير :

— أهنئك يا سيدتى

لكنها التفتت الى « دى شارتر » قائلة :

— آمل ألاّ تكون قد أتيت لتهنئتى ، أنت . . .

فاستفهم منهـا « پول ڤانس » عما اذا كانت ستقطن فى دور الوزارة . فأجابته بالسلب . فاستطرد پول ڤانس فى الكلام :

— انك على الأقل ستغشين الحفلات الراقصة التى تقيمها رياسة الجمهورية وحكومة البلاد ، حيث نعجب بالفن الذى تحفظين به جلالة سحرك الخفى وخلابة حسنك البهى . وحيث تبقين أيضاً لنا مهبط الوحى ومبعث الأحلام . . .

فقالت الكونتس مارتن :

— كأنما التغيرات الوزارية « يا مسيو ڤانس » تلهمك أتفه التصورات . .

فقال « پول ڤانس » :

— اننى ياسيدتى لا أقول لك مع « رينان » أستاذى الحبيب : « وما شأن ذلك والشِّعْرى » لأنك ستجيبيني بحق : « وما تفعل الشِّعرى بالأرض الصغرى » . على أن ما كان مثار دهشى هو رؤية الأيفاع بأنه الشيوخ يغترون بوهم السلطة ، ناسين أن الجوع والحب والموت كما ان كل ضرورات الحياة الخسيسة أو الرفيعة لها كذلك على البشر سلطان أى سلطان ، بحيث لا تترك لسادة الأبدان غير سلطة على الورق ودولة من الكلام . . . . أما ما هو أحرى بالعجب فاعتقاد الناس أن عليهم حكاماً ووزراء غير بؤسهم وشهواتهم وغفلتهم . وكان حكيما ذلك الذى قال :

« فلنعين السخرية والشفقة شهوداً للبشر وقضاة ! »

فضحكت الكونتس مارتن وقالت :

— لكنك أنت الذى كتبت هذا « يا مسيو ڤانس » ! فانى أقرأ كتبك .

وبدأ الفصل الأخير . فلم يبق فى مقصورة الكونتس غيرها و « دى شارتر » و « مس بل »

وكانت الأخيرة تقول :

— عزيزة ! انى مغتبطة — كيف تقولون بالفرنسية ؟ — انى متحمسة فخور برؤيتك تضعين على موضع قلبك زنبقة فلورنسا الحمراء . ولا بد أن يكون المسيو « دى شارتر » ، وله روح فنّان ، فرحاً مثلى برؤية هذه الحلية الغالية على ثوبك . . آه ! أما لاحظت يا هواي ان على الحلي الجميلة مسحة القسوة الفاخرة ؟

فقالت « تريز » :

— ان جوهريي ههنا ، وقد أسميته : فهو مسيو « دى شارتر » الذى تفضل برسم هذه الحلية .

وفتحت المقصورة ، فالتفتت « تريز » ، فرأت فى الظل « لومنيل » ، الذى حيّاها قائلاً :

— أرجو يا سيدتى أن تزفى تهانئي الى قرينك .

ثم أطرى فى شيء من الجفوة أدلة حسنها البادية ، ووجه الى مس بل بضع كلمات تناسب المقام .

وكانت « تريز » مصغية ، قلقة ، ساهمة ، تجهد جهدها المؤلم فى الرد بأجوبة غير ذات معنى .

فسألها أأمضت الفصل فى رغد بجونفيل . وقال انه كان يود الذهاب الى هناك فى موسم الصيد . فلم تسنح له الفرص . لأنه كان مسافراً فى البحر الأبيض المتوسط على يخته . ثم ذهب للصيد فى سمينفيل .

فقالت مس بل :

— آه يا مسيو « لومنيل » ! لقد مخرت عباب البحر الأزرق ، فهل رأيت عرائس الماء ؟

كلا . انه ما رأى عرائس الماء ، لكن « درفيلاً » عام فى مياه اليخت ثلاثة أيام .

فسألته « مس بل » وهل يحب الدرفيل الموسيقى .

فقال انه لا يظن ذلك :

— ان الدرافيل هى بكل بساطة « القروش » الصغيرة التى يسميها البحارة أوز المحيط لمشابه معينة بينهما فى شكل الرأس .

فقالت « مس بل » :

— اذا جاء يا « مسيو لومنيل» فى العام القادم « درفيل » يعوم مرة أخرى حول يختك ، فرجائى اليك أن تضرب له على الناى. وبعد ، فهل تحب البحر « يا مسيو لومنيل » ؟

— انى أوثر الغاب .

وكان كابحًا جماح نفسه ، يتكلم ببساطة وهدوء .

— نعم « يا مسيو لومنيل » ، فانى أعلم مبلغ حبك الغاب ومماشيها حيث ترقص الأرانب الصغيرة فى ضياء القمر . . .

فشحب لون « دى شارتر » وقام وخرج .

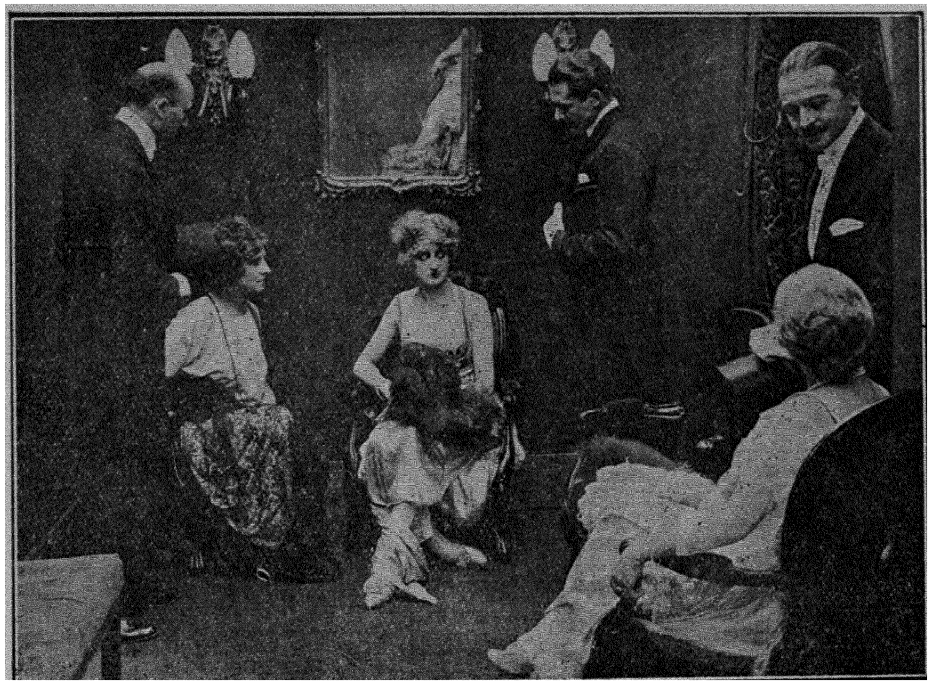

فلم تسمع تريز كلام صاحبتها «مس بل» الذى وجهته اليها عن التمثيل والغناء، لأن روحها كانت قد طارت من باب المقصورة الصغير.

وسُمع فى المخدع المتصل بالمقصورة دوى المقاعد المقلوبة. وعاد «شمل». فقد سمع ان الكونت «مارتن بليم» عُين وزيراً. فرجع أدراجه من فوره يسأله وسام الصليب من طبقة «كوماندور» ومسكناً أكثر اتساعاً فى دور المعهد العلمى، لأن مسكنه الحالى مظلم يضيق بزوجه وبناته الخمس، حتى انه اضطر ان يجعل غرفة مطالعته فى (طقيسى) وشكا شكوى طويلة مرة، وأبى أن ينصرف قبلما تعده «الكونتس مارتن» بالكلام فى شأنه.

وسألت مس بل:

— أتبحر يامسيو لومنيل على ظهر يختك فى العام المقبل؟

فقال انه لايظن ذلك. فلم تعد له رغبة فى الاحتفاظ بزرّ الورد. فقد كان البحر يقبض الرجاء. ونظر الى تريز بهدوء وحزم وعناد.

وكانت على المرسح «مرغريت» فى السجن و«مفيستوفل» يغنى: «تبلّج فجر النهار»، والموسيقى تقلد عَدْو الخيل المرعب.

فتمتمت تريز:

— ان بى صداعا، فهذا المكان يخنق.

فقالت مس بل:

— أريد أن أقول لك يا عزيزة ان « مرغريت » هـذه المسكينة لم ترد الخلاص بالجسد ، ولهذا السبب بعينه خلصت بالعقل والحق ، وانى موقنة أشد اليقـين بأننا جميعًا سيكون نصيبنا النجاة . أجل . انى أؤمن بتطهير الآثمين آخراً .

فنهضت تريز ، طويلة ، بيضاء خالصة ، على صدرها الزهرة الدامية . وكانت مس بل تصغى الى الموسيقى كأن على رأسها الطير . وتناول « لومنيل » فى المخدع معطف الكونتس مارتن ، و بينا هو يمسكه منشوراً مرت تريز من المقصورة الى المخدع ، ووقفت أمام المرآة ، بقرب الباب المورو ب . فوضـع المعطف الكبير من المخمل الأحمر الموشى بالذهب المخطط بالفرو على كتفيها العاريين ولمسهما بأصابعه خفيفًا ، وقال بصوت خافت بكل اختصار وجلاء :

— تريز ، انى احبك . فاذكرى ما سألتك أول من أمس — سأكون كل يوم ، كل يوم ، من الساعة الثالثة ، فى بيتنا بشارع سپونتينى .

وفى تلك اللحظة ، بينـا هى تحنى رأسها له ليصلح من وضع معطفها ، رأت « دى شارتر » ويده على مقبض الباب . فنظر اليها بكل ما يمكن العين البشرية أن تفصح عنـه من عتب وحزن . ثم تحول واختفى فى غياهب الممشى . فكأنما شعرت بمطارق من النار تضرب قلبها وتهد جوانب صدرها . فلبثت على العتبة جامدة لاحراك بها .

قال « مونتسوى » وكان قد جاء ليأخذها :

— أكنت بانتظارى ؟ سآخذك ومس بل الى البيت ، فاننا جعلناك اليوم ظهرياً فكنت نسياً منسياً .

٣٣

لازمتها فى عربتها وفى غرفتها نظرة صاحبهـا ، تلك النظرة القاسية الحزينة . . . وكانت تعرف مبلغ ما هو هَدَفٌ لليأس وعرضة لفقد زمام أمره . وقد رأته على هذه الحال موليًّا الأدبار على شاطىء الأرنو . فحثت إذ ذاك السعادة خطاها ، فى حال غمه وهمه ، بحيث جرت اليه وصاحت به « تعال ! »

وفى هذه المرة أيضًا ، على ما كانت محاطة ومحفوفة به ، كان ينبغى لها أن تجد شيئًا تقوله له ، فلا تدعه يذهب عنها صامتًا متألمًا . لكنها أُخذت أخذاً فى سكرات الدهشة وغمرات الحيرة والحسرة . . .

فقد وقعت الواقعة السخيفة بسرعـة فائقة ! فأحسَّت مقـدار اتساع الهوة التى بينهـا و بين « لومنيل » فلم تسقه فى غضبها بل استبعدته من فـكرها .

و بينا وصيفتها تنتظر لتنضو عنها ثيابها ، مشت جيئة وذهو با من نفاد صبرها . ثم وقفت بغتة . فقد رأت فى المرايا المظلمة التى تسبح فيها أضواء الشموع : ممشى التياترو وصاحبها ينسرب فيه لغير عودة أو رجوع .

أين تراه الآن ؟ وماذا يقول لنفسه وهو وحده ؟ لقد كان عذاباً لها ان كانت عاجزة عن اللحاق به للقائه فى الحال .

وظلت طويلا ويداها على قلبها ، زهوقا .

فصرخت الوصيفة جزعًا ، لأنها رأت على ثوب مولاتها الناصع قطرات من الدم . فان دبوس الرزبقة الحمراء قد خدش يدها ولم تتنبه له . فنزعت الحلية الرمزية ، التى حملتها أمام الجميع كسرّ قلبها المأثور . وأمسكتها بين أصابعها وتأملتها طويلا . وعندئذ قامت ثانية فتمثلت لهـا أيام فلورنسا ، وصومعة « سان مارك » حيث طبعت قبلة حبيبها الحلاوة على شفتيها ، على حين أنها رأت مرة أخرى ، فى غموض ، من خلال أهداب جفونها المنكسرة : رسوم الملائكة والسماء الزرقاء مصورة بالألوان على الحيطان ، ونصب « لانزى » ، والنبع اللامع لبائع الحلوى المثلجة الموضوع على غطاء من النسيج القرمزى ، ثم بيت شارع « الفيبرى » الصغير ، بما رسم على وجهته من بنات الغاب والمعز ، والغرفة التى سمعت فيهـا الرعاة والمتنكرة المرسومة على « البراقانات » صيحاتها . . وصمتها الطويل . . .

كلا ، فما كان هذا كله ظلال الماضى ، أو أشباح أوقات غابرة ، بل كان حقيقة حبها الحاضرة .

أهى كلمة ، كلمة ألقيت بغبـاء من أجنبى فأبادت هذه الأشياء

الجميلة!.. إن هذا لسعد الطالع ليس فى الامكان ، فأن حبهاوحبيبها ليسا متكئين على تكأة واهنة من الرمال الخائنة ، فلو قيض لها فقط أن تجرى الى بيته ، كما هى الآن ، مجردة من نصف ثيابها ، تحت جنح الظلام ، وتدخل غرفتـه . . . إذاً لوجدته جالساً الى النار ، ومرفقاه على فخـذيه ، معتمداً رأسه بيديه ، وقـد تشعَّبته الهموم وتقسَّمته الغموم . . . وعندها تتخال بأناملها شعره ، فتجعله يرفع اليها البصر ، ويرى أنها قد أحبته حقاً ، وأنها كانت له ، كنزه الحي من الفرح والحب .

وصرفت وصيفتها . وشغلت فى فراشها ، والمصباح مضىء ، بفكر واحد : أنه كان حادثاً ، حادثاً سخيفاً ، فهو لا ريب قد أدرك أنه لا شأن لحبهما بتلك الحماقة . يا للجنون ! أن يتخالجه الشك من إنسان غيره !.. كأنما تحس لسواه من الرجال فى الدنيا وجوداً !..

* * *

فتح الـكونت مارتن بليم باب الغرفة قليلا ، فلما رأى النور ، دخل سائلا :

— ألست نائمة يا تريز ؟

وكان عائداً من اجتماع عند «برتييه ويزل» مع زملائه الوزراء . فأراد مشورة زوجه فى أمور معينة ، لما يعلمه من رجاحة رأيها . وكان أشد ما يعوزه الأخلاص فى القول . فقال :

— قضى الأمر ، وانى موقن بمعونتك يا صديقتى العزيزة فى مركز هو مطمح الأنظار ، وان كان محفوفاً بالمصاعب ، بل بالمخاطر . وأنا مدين به لك الى حد ما ، لأنه يكاد يكون نفوذ أبيك العظيم هو الذى وضعنى فيه .

واستشارها فيمن يكون زعيما للمجلس . فأشارت عليه بخير ما تراه . وألفته لبيباً متزناً ، وان لم يكن أشد من غيره غباوة .

ثم تعمق فى التأمل :

— يجب أن أدافع أمام مجلس الشيوخ عن الميزانية كما صوت لها مجلس النواب ، وفي هذه الميزانيـة بدع لا أوافق عليها ، وقد عارضتها نائباً وسأعضدها وزيراً ، فحينذاك كنت أنظر الى ظاهر الاشياء أما الآن وانا أراها من الباطن فأنى أجدها مختلفة كل الاختلاف . وفضلاً عن هذا ، فأنى لم أعد حراً .

ثم تنهد قائلا :

— أواه لو عرف الناس قلة جَدَاء ما يستطيعه المرء وهو فى دست الحكم !

واندفع يفضى اليها بتأثراته ، فسمعته صابرة ، لكن غير واعية . وكان وجهه الشاحب وصوته الخافت كساعة الحائط ترقم لها مرور الدقائق البطىء واحدة واحدة . . .

فأذكرها أن عليها الدخول فى غمار بيئة لم تكن بيئتها ، وسوف

تصدمها تلك البيئـة ولا شك بخشونتها . لكن مركزهما يقضى عليهما الا يحتقرا أحداً . ومع ذلك فهو يعتمد على لباقتها وإخلاصها .

فنظرت اليه فزعة وقالت :

— ليس ما يدعو الان الى العجلة يا صاحبي ، فسننظر فى الأمر فيما بعد . .

ولما كان متعبًا منهوكا ، مسّاها بالخير ، وأشار عليها بالنوم لأنها ستسىء صحتها بتمضية سواد ليلها فى القراءة ، وانصرف .

فسمعت وقع خطاه ، أثقل من العادة قليلاً ، وهو يجتاز غرفة مكتبه الغاصة بأكوام الكتب الزرقاء والصحف ، فى طريقه الى مخدعه حيث ربما . . ينام . . .

وعندئذ ضاق صدرها بسكون الليل ، فنظرت الى ساعتها . فوجدت أن الثانيـة صباحًا قد تنصّفت . فقالت فى نفسها : « إنه يتألم كما أتألم . . . فلشدّ ما نظر الىّ بقنوط وغضب ! . . »

وكانت محتفظة بشجاعتها وحميتها ، أما ما أنفد صبرها وأنقض ظهرها ، فهو وجودها هنا ، سجينة مغلوبة على أمرها ، كأنها رهينة المحبسين . . . لكنها ستكون مطلقة السراح عند وضح الصبح . فتذهب اليه ، وتراه ، وتبسط له كل شىء . لأن الامر كان جليًا . وصغت وهى فى سياق أفكارها الحزينة الى قعقعة العربات ، على الرصفة ، الحين بعد الحين . هذا الدوى ، الذى ، قد لها ، ، الساعات قد شغل

انتباهها بل كاد يكون استلالها . فبذلت جهدها فى تبين الضوضاء الضئيلة على مسافة بعيدة وهى تتضخم شيئًا فشيئًا وتزداد جلاء . حتى أمكنها أن تميز قعقعة العجلات ، ودورة عمود الدولاب ، وصدمات الحوافر ذات الحدوات ، التى تزداد ضعفًا على ضعف وتنتهى بأن تتلاشى بعيداً فى دمدمة لا تدرك . . . فاذا عاد السكون فساد تابعت أفكارها .

سيفهم انها أحبته ، وانها لم تحب سواه ألبتــة . لـكن ساء الحظ بأن كان الليل شديد الثاقل فى مروره . فلم تجرؤ على النظر الى ساعتها ، خشية تحققها جمود الزمن المضنى .

فنهضت ، وذهبت الى الشباك ، وحسرت الستائر . فرأت فى السماء ذات السحب ضيــاء يَنْسَاح شاحبًا . فظنته بزوغ النهار . فنظرت الى ساعتها ، فأذا بها الثالثة والنصف .

فعادت الى النافذة ، وقد جذبتها ظلمات الخارج اللانهاية لها . فنظرت . وكان الرصيف يضىء على نور مصابيح الغاز . وكان يهطل من السماء القاتمة مطر صامت غير منظور . وبغتةً ، مزَّق حجب السكون صوت كان عاليًا ثم انخفض ، وفيه اهتزاز واختلاط حتى كأنه أصوات عدة تجادل وتضارب بعضها بعضًا ، وهو صوت نشوان كان يقارع الرصيف ويصادم الشجر . وكان مشغولاً بحوار طويل مع كائنات أحلامه ، سامحًا لها كرمًا منه بالـكلام ، لـكيما يسود عليها

بعد ذلك بالحركات المفخمة والكلمات المفحمة . فرأت « تريز » السكران المسكين يتمايل على طول السور فى جلبابه الابيض كأنه خرقة فى مهب ريح الليل ، وسمعته من وقت لآخر يردد دائمًا قولاً بعينه : « هذا بلاغي لها ، للحكومة ! »

وأخذتها قشعريرة البرد ، فعادت الى فراشها ؛ فراودها فكر مرهق : « انه غيور ، غيور كأنّ ثَمّ جنًّا تسوّل له الغيرة . وتلك مسألة أعصاب ودم . بيد أن غرامه كذلك مسألة دم وأعصاب . فغرامه وغيرته سواء . ان سواه قد يفهم . ويكفيه إرضاء كرامته أما هو فغيور غيرة شهوانية عجيبة . »

وقد عرفت ان الغيرة فيه كانت عذابًا بدنيًا ، قرحة دامية ، تزيدها كلاًّ بات المخيلة اتساعًا . كما عرفت مبلغ تأصّل الداء وعمق غوره . وحدث أن رأته أمام التمثال البرنزى لسان مارك يشحب لونه عند ما ألقت خطابًا فى صندوق البريد ، ولم يكن إذ ذاك قد قضى منها وطراً فى غير اشتهائه وأحلامه . . . وتذكرت شكاته المكتّمة ، وأحزانه الباغتة ، فيما بعد ، بعد القبلات الطويلة ، وخفية الكلمات الأسيفة التى كان يرددها بلا انقطاع : « يجب أن أسلوك فيك ؟ » . وشاهدت الخطاب الذى تلقته فى « دينار » ويأسه المفزع لكلمة سمها على خوان حانة . فشعرت ان الضربة قد وقعت مصادفة على الموضع الحساس ، على القرحة

الدامية . . لـكن نفسها الجَميع لم تذهب شعاعاً . فستقول كل شيء ، وتبوح بكل شيء . وإن اعترافاتها كلها لصارخة : « أحبك ! ولم أحب يوماً سواك ! »

وهى لم تخدعه أصلا . فانها لن تخبره بشيء لم يكن سبقها الى حزره . فقليلاً ما كذبت ، أقل ما فى الامكان ، وكيما تتجنَّب إيلامه فحسب . فكيف لم يفهم ؟ . الأجدى أن يعرف كل شيء ، ما دام كل شيء ليس شيئاً . وظلَّت تتمثَّل لمخيلتها الخواطر ذاتها ، فتكرر ذات الاقوال .

وأخذ مصباحها يخبو فلم يعد غير ذُبالة مدخنة . فأشعلت الشموع . وكانت الساعة السادسة والنصف . فاستبانت أنها نامت . فهرعت الى النافذة . وكان الجو القاتم يبدو بلمسه الأرض كأنه وإيّاها سيكوّنان بحراً واحداً من الظلمات الـكثيفة . .

وعندئذ عنَّ لها أن تعرف ساعة شروق الشمس . ولم تكن تعلم عن ذلك قليلا أو كثيراً . وكان كل ما يدور بخلدها أن ليالى ديسمبر طويلة أى طول . فحاولت أن تتذكر دون جدوى . ولم يخطر لها بتاتاً النظر الى التقويم المنسي على المنضدة . وكان وقع خطا العمال الثقيلة وهم يسيرون جماعات ، ودوي عجلات اللبن وعربات الخضر قد طرق سمعها كبشير بالخير ، فانتفضت لهذه العلامات الأولى المنبئة باستيقاظ المدينة كما انتفض العصفور بلله القطرُ .

في الساعة التاسعة ، وجدت مسيو « فوزلييه » في رحبة الدار الصغيرة ، يجرف مياه المطر ، وغليونه في فمه . فخرجت مدام « فوزلييه » من مسكنها . وكان كلاهما تبدو عليه علائم الارتباك . فبدأت مدام فوزلييه الكلام بقولها :

— ان مسيو چاك غير موجود .

ولما لم تنبس تريز بكلمة ولم تأت بحركة ، دنا منها فوزلييه وفي يده مكنسته ، مخبئاً في يسراه غليونه وراء ظهره ، وقال :

— لم يعد مسيو چاك الى البيت بعد . . .

فقالت تريز :

— سأنتظره .

فسارت بها مدام فوزلييه الى بهو الاستقبال ، حيث أوقدت نار الاصطلاء ، ولما دخّن الخشب ولم يلتهب بقيت منحنية عليه ، ويداها على فخذيها . . وقالت :

— أنه المطر الذي ينزل الدخان . .

فغمغمت الكونتس مارتن ألا تتكلّف عناء إيقاد النار ، فليست تحسّ البرد .

وطالعت وجهها في المرآة .

وكان ذابلا على اشتعال خديه . وعندئذٍ فقط تحققت من برودة قدميها كالجليد . فقاربت النار . ولما رأتها مدام فوزلييه قلقة ، حاولت ان تروّح عنها بكلمة ، فقالت :

— لن يطول غياب مسيو جاك . فهل لسيدتى أن تصطلى فى انتظاره . .

وكان المطر يُلحُّ على السقف الزجاجي ، وللنهار غُبْسة كلون الرماد . وتريز تردد لنفسها هذه الكلمات التى فقدت عندها معناها لشدة تكرارها إياها : «لم يعد الى البيت بعد» . وجعلت ترقب الباب بعينين مشتعلتين .

وظلت هكذا بلا حراك ولا تفكير أمداً لم تعرف مداه : ربما كان نصف الساعة . فاذا بوقع خطا ، وفتح البـاب ، ودخل . فرأته مبللا موحلا ملتهباً بالحمى . .

فنظرت اليه نظرة فيها من الاخـلاص والصراحة ما أدهشه . غير أنه ما عتم للحال أن تنبهت فيه كل أوجاعه . .

فقال لها :

— ماذا تبغين منى أيضاً بعد ما بغيتِ عليّ ؟ انك ألحقت بى كل ضرّ فى وسعك أن تلحقيه . . .

وكَسَبَهُ التعبُ لطفاً . فانزعجت :

— جاك ، اسمعنى . . .

فأشار ان ليس هناك ما يسمعه منها . . .

— جاك ، اصغ اليّ . . أننى ما خدعتك . . أى والحق أننى ما خدعتك . وهل كان ذلك فى الامكان ؟ . . وهل كان . .

فقاطعها :

— رحمة بى ! ولا تزيدى فى إيذائى . . دعينى ، أتوسل اليك أن تدعينى . فلو أنك عرفت كيف قضيت لياتى لما جرؤت على الاستمرار فى تعذيبي . . .

وسقط على أريكة حيث كان قد قبّلها تحت خمَارها ، منذ ستة شهور . .

وكان قد سرى سواد ليله حيثما ساقته قدماه . سار ونهر السين حتى وجد ضفتيه مزدهرتين بشجر الصفصاف والحور . . وحاول التلهي بالمرئيات ليسكن أوجاعه فشاهد على رصفة « برسى » القمر وهو يجرى فى السحاب ، وظلّ يرقبه ساعة فرآه يتقنّع ثم يُسفر ويختفى ثم يظهر . .

وبعد ذلك راح يشتغل باحصاء نوافذ البيوت إحصاء دقيقاً . وبدأ المطر يهطل ، فيمم سوق الخضر وشرب خمراً فى حانة . فقالت له امرأة بدينة ضخمة ، فى عينها حَوَل : « لا أراك رخىّ البال ! »

ومرت أمام عينيه رؤى تلك الليلة الحزينة ، فقال :

— فذكرت ليلة « الأرنو » . . ياويلك أنك أفسدت علىّ كل فرح فى الدنيا وكل جمال .

وتوسل اليهـا أن تتركه وحده . لأنه يود أن ينام . . لا أن يموت . . . فالموت يخيفه ويرعبه . . . لكنه يود أن ينـام ولا يستيقظ أبداً ! . .

ورآها أثناء ذلك أمامه ، مشتهاة أشـد اشتهاء ، ومرغوبة كما كانت من قبل . . فنظر اليها ، وبحث فيها بالنظر الشزر عن آثار الملاطفات التى لم يغدقها عليها . . .

فمدت اليه ذراعيها :

— جاك ! اسمعنى !

فأشار ان كلامها من عَبَث الأمور . . .

ومع ذلك فقد أراد أن يسمعها ، وكان مصغياً بتلهف ، وكان ما ستقوله موضع سخطه ورفضه سلفاً . . لـكنه كان وحده كل ما يهمه فى الوجود . . فقالت :

— إنك اسطعت الظن بأنى خـدعتك ، بأنى لم أعش فيك وحدك ولك وحدك . ولـكنك لا تفهم إذاً شيئاً ؟ أفلا ترى أنه لو كان هذا الرجل عشيقى لما احتاج أن يكلمنى فى دار التمثيل ، فى تلك المقصورة ، وكان عنده ألف وسيلة أخرى ليعطينى موعداً . ياويحى ! . هـذا محال ياحبيبى ، فأؤكد لك أننى مذ حظيت بسعادة — وحتى اليوم وأنا منبوذة معذبة ما زلت أقول بسعادة — معرفتك ،

كنت كلي لك . . أفكان يسعنى أن أكون لرجل آخر ؟ إنه فظيع . فظيع هـذا الذى تتخيّله . . لـكنني أحبك ، أحبك ! ولا أحب غيرك . ولم أحب أبداً سواك .

فأجابها متأنيًا ، بتمعّن قاس :

— « سأكون فى الساعة الثالثة من كل يوم فى بيتنا بشارع سيونتينى » . أليس هو عشيقك ، عشيقك الذى قال هذا ! لا ! إنه كان أجنبيًا عنك ورجلاً مجهول منك .

فنهضت واقفة ، وقالت برزانة ووجوم :

— بلى ، لقد كنت له . وأنت تعرف ذلك . وقد أنكرته ، وقد كذبت ، إبقاء عليك من الألم والضيق ، لـكن ما أقل ما كذبت وما أضرّه ! فقد عرفته . فلا تلمنى عليه . فقد عرفته ، وكنت تكلمنى دائمًا عن الماضى ، ثم انه قيل لك ذات يوم في مطعم . . فتصورت أكثر مما كان . ولم أخـدعك بكذبى ، فلو علمت تفاهة شأنه فى حياتى ! ذلك اننى لم اكن أعرفك . ولا أعرف أنك سوف تأتى ، وكنت مرهقة بالضجر .

وجثت على ركبتيها قائلة

— أخطأت ، وكان علىّ أن انتظرك . لـكن لو عرفت كيف أن كل ما كان لم يعد كائنا ، وكأنه لم يكن قط ؟

وكان صوتها شجيًا بحلاوة الشكاة ورخامة الغناء فى قولها :

— فلمَ لم تأت قبل ذلك ؟ لماذا ؟

وزحفت اليـه ، وحاولت أن تتناول يديه وتضم ركبتيه ، فدفعها عنه قائلا :

— كنت غبياً . فلم أعتقـد ، ولم أعرف . وكنت معتزماً ألاّ أعرف .

ونهض ، وفى سورة سخطه قال :

— إننى لا أحتمل ، كلا لا أستطيع احتمال أن يكون هو ذاك الرجل .

فجلست على الأريكة التى تركها ، ثم جعلت وهى تئن وتتكلم فى انخفاض صوت ، تفسر الماضى . ففى ذلك الزمن كانت وحيدة ملقاة فى بيئة مبتذلة فارغة الى حد مروع . فحدث ذلك ... فأذعنت لـكنها ما لبثت ان قَرعت سنّ النـدم . أوّاه ! فلو عرف مبلغ ما أمضّها ذلك وأرمضها ، وما كانت قد وصلت اليه حياتها من كمد وكدر ، لما كان غيوراً ، بل لرثى لها .

وهزّت رأسها ، ونظرت اليه من خلال ضفائر شعرها المنفوش :

— لـكننى أحدثك عن امرأة أخرى ، ولا شأن لى بتلك المرأة ، فاننى لم أوجد الا منذ عرفتك ، منذ ما كنت لك . .

فطفق يسير فى الحجرة بخطا واسعة غير منتظمة ، كما سار منذ

قليل على شاطىء السين . ثم انفجر ضاحكا ضحكة صفراء . .

— أجل ، ولكن فى حين كنت تحبيننى ، ماذا جرى لتلك المرأة التى لم تكونيها ؟

فنظرت اليه منفعلة :

— أفيمكن أن تظن . . ؟

— أو لم تريه ثانية فى « فلورنسا » ؟ أو لم توصليه الى المحطة ؟

فأخبرته كيف تعقبها الى ايطاليا جادًّا فى طلبها ، وكيف قابلته ، ثم قطعته ، وأنه سافر غضبان أسفًا ، وأنه من ذلك الحين حاول استردادها ، ولكنها لم تعره حتى التفاتة :

— أى حبيبى ، إنى لا أرى ، إنى لا أعرف إنسانًا فى الوجود خلاك . . !

فهزَّ رأسه :

— إنى لا أصدقك .

فهاج هائجها :

— لقد أخبرتك بكل شىء ، فاتهمنى ، وأدنى ، ولكن لا تسبَّنى فى حبى لك . فهذا ما أدفعه وأمنعه .

فحجب عينيه بيسراه :

— دعينى . لقد أسأت إلىَّ وآذيتنى كثيراً . فاشدَّ ما أحببتك حتى أن كل الآلام التى قد تصيبيننى بها كنت لأتقبلها ، وأحفظها ،

وأحبها . . . لكن هـذا فظيع . وإنى أمقته . فدعينى . ان عذابى لشديد . وداعاً .

فوقفت ، مستقيمة العود ، وقدماها الصغيرتان مسمرتان فى البساط :

— لقد أتيت . وإنها سعادتى . إنها حياتى التى أنازع فيها ، وأجاهد فى سبيلها . . وإنى كما تعرف عزيمة الرأي . فلست ذاهبة !

وأعادت كل ما قالته ، مشددة ، مخلصة ، واثقة من نفسها ، وحقها ، موضحة كيف قطعت ذلك القيد الذى كان من قبل رخواً وقد عقرها وضيق أنفاسها ، وكيف انها من يوم وهبته نفسها فى بيت شارع « الفيبرى » الصغير لم تكن إلاّ له ، من دون أسف ، وبأ كيدمن دون نظرة ضالة أو فكرة حائرة فى أى سواه . . ولكنها بمخاطبتها إيّاه عن رجل غيره أمضته وأغضبته ، فصرخ فيها قائلا :

— لا أصدقك !

عندئذ بدأت ثانية تكرر ما قالته .

وبغتةً ، نظرت بداهةً الى ساعتها ، وصاحت :

— ربّاه ! قد انتصف النهار !

ما أكثر ما كانت تصيح هـذه الصيحة عندما تروعهما ساعة الفراق . فارتجف جاك لسماعه هذه الكلمات المعهودة التى أصبحت الآن محزنة مؤنسة تبالغ فيها الهمُّ وتناهى . . . ومكثت بضع دقائق

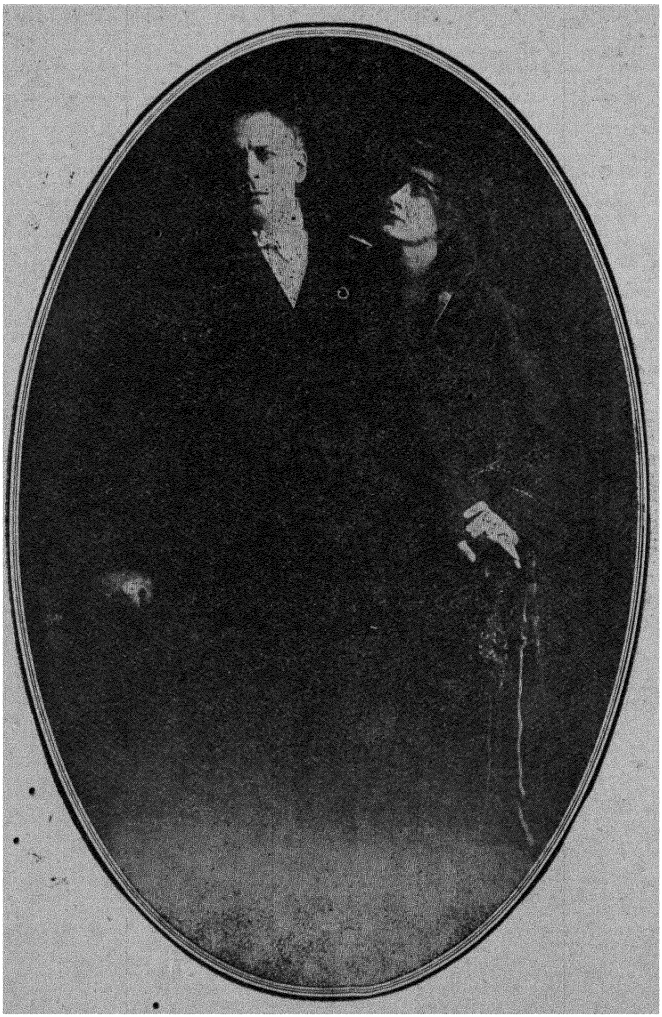

أخرى تبتهل اليـه بعبراتها وكلماتها الحارة . ثم اضطرت للرواح . وخرجت صفر اليدين بصفقة المغبون .

* * *

وجدت فى البيت بعض نساء السوق ينتظرنها فى البهو ليقدمن إليها طاقة زهر ، فذكرت أن زوجها صار وزيراً ، وكانت هناك أكوام البرقيات والبطاقات والخطابات والتهانئ والمطالب ، وكتبت اليها « مدام مارميه » تسألها توصية بابن أختها الكاتبين بالمدفعية الى الجنرال « لاريفيير » الذى أصبح وزير الحربية .

فدخلت قاعة الطعام ، وسقطت إعياء على مقعد ، وكان الكونت « مارتن بليم » يتم غداءه . وكان عليـه العود لساعته الى مجلس الوزراء والى بيت وزير المالية المعتزل لزيارته ، وذكر أن فرط خضوع موظفيه له ومبالغتهم فى التأدب قد ضايقته وأزعجته وأملته ، وقال :

— لاتغفلى يا صديقتى العزيزة عن زيارة مدام « برتييه ديزل » فانت تعرفين سرعة تأثرها .

فلم تجب . وبينا كان يغمس أصابعه الصفراء فى الأناء البلورى ، رفع رأسه فرآها منهوكة القوى مشوشة الهيئة بحيث لم يجرؤ على أن يزيد على ما قاله كلمة .

ألفى نفسه مواجهاً سراً آثر أن يجهله ، أمام حزن قد

يثيره لفظ واحد و يفجره . فخامره من ذلك قلق وخوف وضرب من الاحترام .

فألقى منشفته قائلا :

— ارجوك المعذرة يا صديقتى العزيزة .

ثم خرج .

فحاولت أن تأكل . فلم تقدر أن تزدرد شيئًا . وشعرت بأن كل شيء يقزز نفسها فلا يذاق ولا يطاق .

وفى نحو الساعة الثانية عادت الى البيت الصغير بحى «لوترن» . فوجدت جاك فى غرفته ، يدخن غليونه الخشبى ، وأمامه على المنضدة فنجان قهوة كاد يفرغ .

فنظر اليهـا بجفاء أثلج الدم فى عروقها . فلم تجرؤ على الكلام شاعرة بأن كل ما ستقوله سيصدعه ويزهقه ، فأن مجرد ظهورها فى رزانة وصمت قد أحفظه وأضرم سخيمته . وقد عرف أنها ستعود ، فانتظرها بفروغ صبر الحقد ، و بقلب صاد مشوق كالذى انتظرها به من قبل فى بيت شارع « الفيبرى » . فرأت بلمحة أنها أخطأت بقدومها ، فأنها كانت بغيابها عنه تجعله يشتهيها ويحن صبابة اليها وقد يدعوها . لكن كان قد سبق السيف العذل . وفضلا عن ذلك ، لم يخطر لها ان تكون حصيفة حذوراً .

فقالت له :

— ها أنت ذا ترى أننى قد رجعت ، ولم يكن يسعنى غير ذلك. ثم أن هذا طبيعى ما دمت أهواك . وأنت تعرف .

فشعرت أن كل ما فى وسعها أن تقوله لن يزيده الا سخطاً . فسألها أضربت كثيراً على هذه النغمة فى بيت شارع سبونتينى ؟ ؟

فنظرت إليه بألم مبرح :

— جاك ، انك كثيراً ما قلت لى انك تحتفظ فى صميم قلبك بالحقد والكدر . وأرى جليا أنك تحب إيلامي .

و بصبر حبها عادت فروت له تفصيلا حياتها كلها ، وفراغ ماضيها وكآبته ، وانه مذ جعلها له لم تعد تعيش الا به ، وفيه .

وكانت أقوالها تخرج صافية كنظراتها . وكانت جالسة بقربه ، فيشعر ، الفينة بعد الفينة ، بلمسة أناملها التى صارت الآن خجلة ، و بشدة حرارة أنفاسها . فصغى بشراهة قاسية . بل كان قاسياً على ذات نفسه ، فأراد أن يعرف كل شىء عن مقابلاتها الأخيرة مع ذلك الرجل ، والقطيعة . فروت له صادقة كل ما حدث فى فندق « لاجراند بريطانيا » . لكنها نقلت المنظر خارجاً ، الى احدى الطرقات ، خشية أن تؤلم حبيبها أيضاً صورة ذلك اللقاء المحزن بين أربعة جدران . ثم فسرت لقاء المحطة. فانها لم ترد أن تُلقى فى مهاوى اليأس والتهور رجلا مولعاً مقهوراً . وهى من ذلك العهد لم تسمع به حتى يوم مخاطبته إياها بشارع مكاهون . وأعادت ما قاله تحت ظل

الشجرة . وكيف أنها رأته بعد يومين فى مقصورتها بالأوبرا . وهى بالتأكيد لم تشجعه على الحضور . وهذه هى الحقيقة .

كانت هى الحقيقة . بيد أن السم القديم الذى تراكم فيه قليلا قليلا كان يفعل فعله ويفرى لحمه . فالماضى ، الماضى الذى يستحيل إصلاحه ، قد جعلته حاضراً باقراراتها ، فشبّه له وعذّبه .

فقال لها :

— اننى لا أصدقك ،على أننى لو صدقتك فلا أقدر أن أعود فأراك لمجرد فكرة أنك كنت يومًا لذاك الرجل ! وقد قلت كل ذلك ، وكتبته لك ، وأنت تذكرين حين كنت فى « دينار » ، لا أريد أن يكون هو ذاك . . وأما بعد . .

ثم توقف ، فقالت :

— أنت تعلم حق العلم أنه لم يكن ثمة شىء بعد .

— أما بعد ، فقد رأيته .

وبقيا طويلا صامتين . وأخيراً قالت بنغمة نائحة غريبة :

— ولكن يا حبيبى كان حقًا عليك أن ترى ان امرأة مثلى ، متزوجة على نحوى . . . . فنى كل يوم يحمل النساء الى أحبابهن مواضى مثقلة بأكثر من ماضيّ . . ومع ذلك يُعشقن . . . وآهٍ لو عرفت كم كان ماضىّ لا وزن له !

— أعرف ما أعطيتهِ ، ولا يمكن المرء أن يغتفر لك أنت ما يغتفره لسواك .

— ولـكنى يا حبيبى كسواي من النساء .

— كلا ، لست كغيرك من النساء . فلا شيء فيك يمكن التجاوز عنه . . .

وتكلم مقفل الفم وأسنانه تصرّ . . . وعيناه ، تانك العينان اللتان قد رأتهما كبيرتين مضيئتين بلهيب الحب اللذيذ ، قد حالتا الآن جافتين ، جافيتين ، غائرتين وراء جفونهما المتكسرة ، ولهما نظرة غريبة . فأخافها .

فذهبت الى آخر الغرفة ، واتخذت مجلساً ، وهناك ، والقلب ضائق والرموش مختلجة عجباً ، كطفلة ، ظلت طويلا ترتعش وهى مختنقة بالزفرات . ثم انفجرت باكية .

فتنهد قائلا :

— لمـاذا قدّر عليَّ أن أعرفك ؟

فأجابته غاصة بدموعها :

— أما أنا فما أندم على أنى قد عرفتك . إني أقضى من ذلك نحبي وألقى حتفي ولست نادمة . فقد أحببت .

فأصرّ جائراً على أن يؤلم قلبها ويقصم صلبها ، وقد عرف شناعة فعله ولم يستطع له دفعاً .

— قد يجوز أنك بعد هذا كله أحببتنى أنا أيضاً . .

فأجابته ، شرقة الجفنين بالدمع :

— لكننى لم أحب سواك ، وقد شغفتنى حباً . وهذا الذى من أجله تقتصّ منى الآن . .ياويلتا ، كيف يعلق بوهمك أننى كنت يوما لغيرك ما كنت لك !

— ولم لا ؟

فنظرت اليه بلا حزم ولا عزم :

— بالله قل لى ، أحقاً أنك لا تصدقنى ؟

وأردفت برقة فائقة :

— أفتصدقنى إذا قتلت نفسى ؟

— كلا ، فلا أصدقك .

فمسحت وجنتيها بمنديلها ، ثم رفعت عينيها اللامعتين من خلال دموعها :

— إذاً قضي الأمر !

ونهضت ، ونظرت ثانية الى مافى الغرفة من آلاف الأشياء التى عاشرتها فى ألفة شهوانية ضاحكة ، وجعلتها لهـا واتخذتها ولية حميمة ، والتى لم تعد بالنسبة اليها الآن شيئاً مذكوراً ،فنظرت اليها هذه الأشياء كأنها غريبة أجنبية عنها وعدوة لدود لها : فرأت المسبكوكات الفلورنسية التي أذكرتها فيزول وأوقات ايطاليا

المسحورة . . والصورة الجانبية التي عملها دى شارتر لفتاة ارتسمت ضحكة على محياها البديع النحيف المضنى.ثم وقفت لحظة ، عاطفةً ، أمام دمية تلك البنية الصغيرة « كلارا » بائعة الجرائد التى قد أتت هى أيضًا الى هذا المكان ، ثم اختفت ، محمولة في اللانهاية المروعة ، لانهاية الحياة والكائنات . . .

وكررت :

— اذاً قضى الأمر !

فلم ينبس .

وآذن الشفق بالفراق ، وطمس معالم الأشكال .

فقالت :

— ترى ما يكون مصيرى ؟

فأجاب :

— وأنا ، فما يكون مصيرى ؟

ثم نظر كلاهما الى صاحبه مشفقًا لأن كلاً منهما كان مملوءاً شفقة على نفسه .

فقالت تريز أيضًا :

— وأنا التي كنت أخشى من الكبر لأجلك ، ولأجل نفسى ، ولكيما لا ينتهى حبنا الجميل ! فليت القدر لم يتمخض به ! أجل ، كان

الأولى الا أولد . فيا لسبق الشعور عند ما حننت الى الموت ، وأنا بنت صغيرة ، في قصر « چوانڤيل » على شاطىء البحيرة ، تحت ظلال الزيزفون ، أمام عذارى الغاب المرمرية .

وسقط ذراعاها ، واشتبكت يداها ، ورفعت بصرها ، وأرسلت عيناها المغرورقتان شعاعاً فى الظلمة المحيطة :

— وما من وسيلة لأجعلك تشعر بأن ما أخبرك به هو الصدق وأنه أصلاً مد كنت لك . . أصلا! . لكن أتى لى ؟ أن الفكرة المجردة تبدو لى فظيعة منكرة . أتكون معرفتك بى إذاً قليلة الى هذا الحد ؟

فهز رأسه بحزن :

كلا ! فلا أعرفك !

فنظرت متسائلة مرة أخرى الى ما حولها من الأشياء التى فى الحجرة ، شهود غرامها :

— ولكن كان إذاً عبثاً ان كان كل منـا لصاحبه . . . كان نافلة.. وما هو الا محض لقاء عرضي ولم نجتمع فنكون شخصاً واحداً.

فتميزت من الغيظ . ولم يكن جائزاً أنه لا يعرف مكاناً شغله من نفسها .

وفي حميا هواها المغلوب ، ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وغطته بالقبل والدموع والصيحات والنهشات . . .

فنسى كل شيء ، وأخذها بين ذراعيه ، متوجعة منكسرة ، ولـكن سعيدة ، وضمها اليه ، عنيف الشهوة ثائرها ، ليقضى لُبَانات الفؤادِ المعذبِ . . . وكانت منكسة الرأس على الوسادة ، تبسم له من خلال الدموع .

فانتزع نفسه منها بغتة ، قائلا :

— انى لم أعد أراك وحدك ، انى أرى الآخر معك ، دائمًا ..

فنظرت اليه ، صامتة . حانقة ، قانطة . ونهضت ، وأصلحت من ثوبها وشعرها ، باستحياء غريب . ثم إذ تحققت أن قد قُضى الأمر ، وحُمَّ الهجر . قلبت فيما حولها ، بنظرة دهشة ، عينيها اللتين ابيضتا من الحزن ، فما عادتا تريان شيئًا ، وخرجت متثاقلة .